

UNIVERSAL
LIBRARY

OU_234840

UNIVERSAL
LIBRARY

الجمعية العلمية الإسلامية

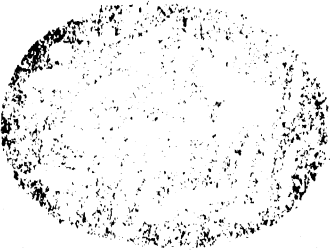
تفسير القرآن الكريم

—••—

لعلامة الامام

الشيخ محمد عبد الله

(رحمه الله تعالى)



—••—

جزء عمر

كل نسخة من هذا الكتاب لا يوجد عليها ختم الجمعية تعتبر مسروقة

(الطبعة الثالثة)

سنة ١٣٤١ هـ

حقوق الطبع محفوظة للجمعية

مطبعة مصر - شركس مصر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ربنا عليك توكلنا . وإليك أنبنا وإليك المصير . ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا
واغفر لنا ربنا انك أنت العزيز الحكيم فتحت لي يارب أبواب فضلك وعرفتني
ماشئت من أسرار قولك فبأى لسان أحمدك وبأية جارحة اشكرك . أسألك
المعونة على بيان الحق . لارشاد المستعدين لقبوله من الخلق . وأن تجعل الكلمة
العليا لكتابك المبين . والسلطة العظمى لهدى خاتم المرسلين . سيدنا محمد صلى
الله عليه وعلى جميع النبيين . ومن تبعهم على الصراط المستقيم . واقتنى أثرهم
في الصالحات والسير القويم . وارشد اللهم هذه الامة العازية . الى ما فيه لها
السلامة والعافية . ولا تجعلها حرباً للهادين . ولا فتنة للضالين المضلين
(أما بعد) فقد نهى بعض اخواني من أعضاء الجمعية الخيرية الاسلامية الى أن
أكتب تفسيراً لجزء عم يتساءلون وتبارك الذى بيده الملك ليكون مرجعاً
للاساتذة لمدارس الجمعية في تفهيم التلامذة معانى ما يحفظون من الجزئين لينشئوا
متعودين على فهم ما يحفظون وتدبر ما يقرؤن وليكون ما فى تلك السور من
دلائل التوحيد والعظات والعبر مشرفاً للعقائد السليمة فى نفوسهم وعاملاً
للاصلاح فى أعمالهم وأخلاقهم فتوكلت على الله فى العمل وبدأت بحزء عم يتساءلون
وكتبت أطلب أوقات الفراغ من حين الى حين وقاما كنت أجدها حتى يسرلى الله السفر
الى البلاد المغربية هذه السنة سنة احدى وعشرين وثلثمائة وألف من الهجرة
فوجدت من الوقت فى السفر ما لم أجده فى الحضر وقد وفقت الى تنميته فى قلبك
البلاد وأسأل الله أن يسهل لى سبيل العمل فى تفسير جزء تبارك الذى بيده
الملك وهو على كل شىء قدير انه نعم المولى ونعم النصير وقد بذلت جهدى فى
أن تكون العبارة سهلة التناول خالية من الخلاف وكثرة الوجوه فى الاعراب
بحيث لا يحتاج فى فهمها الا الى أن يعرف القارئ كيف يقرأ أو السامع كيف
يسمع مع حسن النية وسلامة الوجدان والله الموفق لمن شاء الى خير الاشياء
والله أعلم

سورة النبا مكية وهي أربعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ النَّبَاءِ الْعَظِيمِ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ كَلَّا
سَيَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مَهَادًا وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا

كان غير المؤمنين يسأل بعضهم بعضاً عن رسالة النبي صلى الله عليه وسلم ويسألون غيرهم فيقولون هل هو رسول وما هذا الخبر الذي جاء به من دعوى أنه مرسل من قبل الله يدعو إلى توحيده وإلى الاعتقاد باليوم الآخر وهو يوم القيامة يوم يسئل كل عامل عما عمل فبكتهم الله بقوله عن أي شيء يتساءلون ثم قال عن الخبر العظيم الذي هم فيه مختلفون بعضهم ينكره وبعضهم يتردد في صحته ثم رد عليهم الإنكار والتردد بقوله كلاً سيعلمون ثم كلاً سيعلمون أي ستكشف لهم الحقيقة ويرون صحة الخبر وتنقطع الريبة فيه يوم تقوم الساعة ويفصل بينهم ثم ذكرهم بدلائل قدرته وآيات رحمته فقال ألم نجعل الأرض مهاداً لـ الخ أي أن من ينعم على الناس هذه النعم العظيمة لا يهملهم من إرسال داع إلى توحيده بعد ما ضلوا عنه وهاد إلى طريقه المستقيم ومذكر بيوم الحساب وليس بعظيم على صاحب هذا الاحسان أن يرسل ذلك الرسول ولا أن يحقق ما يدعوا إلى الاعتقاد به من شؤون اليوم الآخر وهي ما ذكر في قوله أن يوم الفصل الخ

(عم) أصله عما أي عن أي شيء والابهام للتعظيم (والنبا) الخبر الذي يهتم له (وكلاً) للردع ونفي الزعم الباطل (المهاد) الفراش وقد جعل الله الأرض موطئاً للناس والدواب يقيمون عليها فهي فراش لهم — (والأوتاد) جمع وتد بسكون التاء وكسرها وهو معروف وإنما كانت الجبال أوتاداً لأن بروزها في الأرض كبروز الأوتاد المغروزة فيها ولأنها في تثبيت الأرض ومنعها من الميبدان والاضطراب كالأوتاد في حفظ الخيمة من مثل ذلك كأن أقطار الأرض قد شدت إليها ولولا الجبال لكانت الأرض دأمة الاضطراب بما في جوفها من المواد الدأمة الجشائ

وَحَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا
وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا وَجَعَلْنَا سِرَاجًا
وَهَاجًا وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا
وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا

(وأزواجاً) ذكراً وأنثى ليتم الائتناس والتعاون على سعادة المعيشة وحفظ النسل
وتكميله بالتربية — (والسبات) بضم السين الموت والمسبوت الميت من السبت
وهو القطع، والنوم أحد الموتين ونعمة الله فيه كبيرة فإن موت بضع ساعات
في اليوم يريح القوى من تعبها وينشطها من كسلها ويعيد إليها ما فقد منها ولو
لم يكن النوم موتاً واليقظة بعثاً لم يتم هذا التجديد للقوى — لباس الجسم ما
يستره والليل شبيهه باللباس لأنه يستر الأشخاص بظلمته وللناس في هذا الستر
فوائد اللباس فكما أن اللباس يقي من الحر والبرد ويستر العورات عن النظر
كذلك الليل يستتر فيه الفار من العدو أو الحيوان المفترس المطارد له ويختفي
فيه الكامن للوثوب على ما يريد التخلص منه والنجاة من شر مساورته

وكم لظلام الليل عندك من يد * تخبر أن المأنوية تكذب

(والمعاش) الحياة فكما جعل النوم موتاً جعل اليقظة حياة والنهار زمن هذه الحياة
أى جعل النهار وقت معاش يستيقظون فيه ويتقلبون في حوائجهم ومكاسبهم
(والسبع الشداد) الطرائق السبع وهى ما فيه الكراكب السبعة السيارة
المشهورة وخصها بالذكر لظهورها ومعرفة العامة لها والا فقد بنى ما هو أعظم
منها وهو ما وراءها من عوالم السموات ووصفها بالشدة لأنها محكمة متينة لا
يؤثر فيها مرور الزمان (والوهاج) المتلألئ الوقاد — والسراج الوهاج هو الشمس
(والمعصرات) السحاب والغيوم إذا أعصرت أى جاء وقت أن تعصر الماء فيسقط
منها المطر (والشجاج) المنصب بكثرة (والحب) يعنى به ما يقتات به الناس من نحو
الحنطة والشعير (والنبات) ما يقتات به الدواب من التبن والحشيش «كلوا وارعوا
أنعامكم» «متاعاً لكم ولا أنعامكم» (والجنات) جمع جنة وهى الحديقة والبستان
فيه الشجر أو النخل (وألفافاً) أى ملتفة الشجر لتقارب أغصانه وطول أفئانه

إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا وَسِيرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا

(ويوم الفصل) هو يوم القيامة يظهر فيه الحق وينكشف الستار عن القلوب والالتباس عن العيون فيفصل بين الحق والباطل و (كان ميقاتا) أى ينتهى اليه الناس فيجتمعون فيه ليرى كل عاقبة عمله وكان كذلك أى قضاء الله وقدره (يوم ينفخ في الصور) بدل من يوم الفصل أو عطف بيان له والنفخ في الصور تمثيل لبعث الله للناس يوم القيامة بسرعة لا يمثلها الا نفخة في بوق فاذا هم قيام ينظرون وعلينا أن نؤمن بما ورد من النفخ في الصور وليس علينا أن نعلم ما هى حقيقة ذلك الصور والبحث وراء هذا عبث لا يسوغ للمسلم (والافواج) الامم والطوائف أى تأتون أئماً وطوائف مختلفة — (وفتحت السماء) أى أنه يتغير فى ذلك اليوم نظام الكون فلا تبقى أرض على أنها ثقل ولا سماء على أنها تظل بل تكون السماء بالنسبة الى الارواح مفتحة الابواب بل تكون أبواباً فلا يبقى علو ولا سفلى ولا يكون مانع يمنع الارواح من السير حيث تشاء والاخرة عالم آخر غير عالم الدنيا التى نحن فيها فنؤمن بما ورد به الخبر فى وصفه ولا نبحث عن حقائقه ما دام الوارد غير محال ولا شك أن امتناع السماء علينا انما هو لطبيعة أجسامنا فى هذه الحياة الدنيا اما النشأة الاخرى فقد تكون على غير ذلك فتكون السماء بالنسبة اليها أبواباً ندخل من أيها شئنا باذن الله وقد يكون معنى تفتح السماء ما عني بقوله اذا السماء انشقت اذا السماء انقطرت يوم تشقق السماء بالغمام أى أنه يقع الاضطراب فى نظام الكواكب فيذهب التماسك بينها ولا يكون فيما يسمى سماء الا مسالك وأبواب لا يلتقى فيها شئ بشئ وذلك هو خراب الكون العلوى كما يخرب الكون السفلى

(وسيرت الجبال) تمثيل لمور الارض فى ذلك اليوم وان جبالها لا تكون على رسوخها المعروف اليوم بل يذهب ما كان لها من قرار وتعود كأنها سراب يرى من بعيد فاذا لمستته لم تجد شيئاً وذلك لتفرق أجزائها وانبعثت جواهرها

إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا لِلطَّاغِينَ مَاءً لَا بَشِيرَ فِيهَا أَحْقَابًا
لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا إِلَّا حِمِيمًا وَغَسَاقًا جَزَاءً وَفَاقًا إِنَّهُمْ
كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا وَكُلَّ شَيْءٍ
أَخْصَيْنَاهُ كِتَابًا فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا

بعد أن عدد وجوه احسانه ودلائل قدرته على ارسال رسوله وتأنيده وذكر
ان الفصل بين الرسول وبين معانديه سيكون يوم القيامة وذكر هوله وامتيار
شؤونه عن شؤون أيام الدنيا جاء الى وعيد المكذبين وبيان ما يلاقونه وأخبر
أن جهنم وهى دار العذاب قد قدرها الله مرصاداً وحداً يرصدون فيه للعذاب
وهى مرجعهم الذى ينتهون اليه وأنهم سيقومون فيها مددا طوالا مجددين
معدمين لا يجدون شيئاً من النعيم والراحة ولا يذوقون فيها روحاً ينفس عنهم
حر النار ولا يذوقون من الشراب الا الماء الحار والصديد الذى يسيل من
أبدانهم جزاء يوافق أعمالهم لأنهم كانوا لا ينتظرون يوم الحساب ولذلك اقترفوا
السيئات وأتوا قبائح الاعمال وكذبوا بالدلائل التى أقامها الله على صدق رسله
تكذيباً أشد تكذيب وقد أحصى الله كل شىء فى كتاب علمه فلم يغب عنه
شىء مما صدر منهم وسيوفهم جزاء ما صنعوا وستكون كلمته العالية أن يقول
لهم ذوقوا فلن نزيدكم الا عذاباً

(المآب) المرجع (لا بشير) مقيمين (الاحقاب) جمع حقب بضمين قيل هو
ثمانون سنة وقيل أكثر من ذلك والمراد المدد المتطاولة ولا يكاد يستعمل الحقب
والحقة لا حيث يراد تتابع الازمنة وتواليها أى يلبثون فيها مدداً الى غير
النهاية (البرد) برد الهواء أو هو النوم ورد عن بعض العرب « منع البرد البرد »
(الغساق) من غسق يغسق اذا انصب وسال وهو القيح والصديد الدائم السيلان
من اجساد أهل النار (الوفاق) مصدر وافق وصف به الجزاء مبالغة (كذاباً)
أى تكذيباً وهذه الصيغة فاشية فى كلام فصحاء العرب فى باب فعل فيقال فسر
فساراً مثلاً (كتاباً) مصدر كتب وهو فى موضع احصاء كأنه قيل أحصيناه
احصاء أو أن أحصيناه فى معنى كتبناه لأن الاحصاء بالكتابة والكتابة هنا

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا وَكَأْسًا
 دِهَاقًا لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا الْغَوَا وَلَا يَكْذَبُ جَزَاءٌ مِنْ رَبِّكَ عَطَاءٌ حِسَابًا
 رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا
 يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ

على النحو الذى يليق بتزيه الله تعالى وهو أعلى من كتابتنا التى نعرفها وأشد
 منها ضبطاً لكننا لانكلف بالبحث عنها فذلك مما نؤمن به ونسكل علم حقيقته
 الى الله (ان للمتقين الخ)

بعد ما بين حال المكذبين جاء بما يناله المتقون وأنهم سيفوزون بالأجر العظيم
 فى الجنان التى وصفها ووصف ما فيها وان ذلك عطاء لهم من مالك السموات
 والارض عظيم الرحمة والانعام الذى لا يملك أحد من أهل السموات والارض
 أن يخاطبه فى شأن الثواب والعقاب بل هو المتصرف فيه وحده فى ذلك اليوم
 الذى يقوم فيه الروح والخلق المقدس من عالم الغيب والملائكة صفاً ولا يمكن
 لأحد أن يتكلم الا من اذن له الرحمن ونطق بالصواب

(المفاز) الفوز بالنعيم والثواب أو مكان ذلك (والحدائق) البساتين فيها انواع
 الشجر المثمر (والأعنان) معروفة جمع غنصها بالذكر لأهميتها (والكواعب)
 البنات اللاتي استدارت نديهن (والاتراب) اللاتي من سن واحدة والتمتع بهذه
 البنات فى الجنة مما يمثله الانسان فى هذه الدنيا على نحو من اللذة ولكن لا تعلم
 حقيقته فى الجنة وغاية ما يجب أن نصدق به انه تتمتع فائق اللذة على حسب ما
 يناسب ذلك العالم الاخرى (الكأس) اناء من بللور يشرب فيه (والدهاق)
 المملوءة المترعة وأدهق الحوض ملاءه (واللغو) مالا يعتد به من الكلام (والكذاب)
 التكذيب كما سبق واللغو والتكذيب مما تألم له انفس الصادقين بل هو من اشد
 الاذى لقلوبهم فأراد الله اراحة ذلك عنهم (والحساب) الكافى (والروح والملائكة)
 من مخلوقات الله المغيبة عنا التى لانكلف بالبحث عن حقائقها وقيامها واصطفاها
 على النحو الذى يليق بها والذى تقيده هذه الآية الكريمة انهم مع قريهم

إِلَّا مَنْ أِذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ
اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ
مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا

من الله لا يستطيع احد منهم ان يشفع لاحد او يستمنح منحة الا اذا اذن الله
له ولا يأذن الا لمن علم انه سيجاب وانما يكون الكلام ضرباً من التكريم لمن
يأذن الله له به يختص به من يشاء ولا اثر له فيما اراد الله البتة
(ذلك اليوم الحق الخ)

بعد ان ذكر الله في قوله ان يوم الفصل كان ميقاتاً الخ ان يوم القيامة موعد يفصل
فيه بين الحق والباطل وترفع فيه ستر الشبهة عن القلوب وبين كيف يتحول العالم
فيه من حال الى حال وكيف ينشر الموتى ويحشرون ثم ذكر ان دار العذاب حد
ينتهي اليه اهل الجهالة والجحود في ذلك اليوم الموعود وان الفوز موعد لاهل
الجنة وهم المتقون وانهى الكلام في تعداد ما اعد لهم بأن ذلك سيكون لهم في
ذلك اليوم ووصفه بوصف آخر لم يسبق وهو انه يقوم فيه الروح والملائكة صفاء
الخ عقب ذلك كله بتأكيد ان هذا اليوم حق لا ريبه في انه يأتي لا محالة فاذا
كان هذا اليوم يوم الجزاء حقاً لا ريب فيه ومرجعاً لا مفر منه والناس فيه
فريقان فريق بعيد عن الله مدحور ما به النار ودار العذاب وفريق ما به القرب
من الله ومنازل الكرامة فمن كانت له مشيئة صادقة فليتخذ ما بآ الى ربه
فليعمل عملاً صالحاً يقربه منه ويحله محال كرامته

ثم رجع الى تهديد المخاطبين من المعاندين وتحذيرهم عاقبة عنادهم فقال
(انا انذرناكم عذاباً قريباً) وهو ما وصفه فيما سبق وقربه لأنهم يجدون منه
عقب موتهم فان الروح متى فارقت البدن انكشف لها ما ينتظرها ولا تزال في
الم منه الى ان تلاقيه يوم ينظر المرء اعماله حاضرة لديه معروضة عليه وعند
ذلك يقول الكافر من شدة مايلتي وهول ما يرى يا ليتني كنت تراباً ويتمنى
ان كان جماداً لم يصب حظاً من الحياة

(الانذار) الاخبار بالمكروه قبل وقوعه (والمرء) الانسان ذكراً كان او انثى

سورة النازعات مكية وميت واربعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا
وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا

(والنازعات الخ)

جاء في الكتاب العزيز ضروب من القسم بالازمنة والامكنة والاشياء والقسم انما يكون بشيء يخشى المقسم اذا حنث في حلفه به ان يقع تحت المؤاخذه «نعوذ بالله ان يتوهم شيء من هذا في جانب الله» وما كان الله جل شأنه ليحتاج في تأكيد اخباره الى القسم بما هو صنع قدرته فليس لشيء في الوجود قدر اذا نسب الى قدره الذي لا يقدره القادرون بل لا وجود لكائن اذا قيس الى وجوده الا لانه انبسط عليه شعاع من اشعة ظهوره جل شأنه ولهذا قد يسأل السائل عن هذا النوع من تأكيد الخبر الذي اختص به القرآن وكيف يوجد في كلام الله فيجيب بأنك اذا رجعت الى جميع ما أقسم الله به وجدته اما شيئاً انكره بعض الناس او احتقره لغفلته عن فائدته او ذهل عن موضع العبرة فيه وعمى عن حكمة الله في خلقه او انعكس عليه الرأي في امره فاعتقد فيه غير الحق الذي قرر الله شأنه عليه فيقسم الله به اما لتقرير وجوده في عقل من ينكره او تعظيم شأنه في نفس من يحقره او تنبيه الشعور الى ما فيه عند من لا يذكره او لقلب الاعتقاد في قلب من اضله الوهم او خانه الفهم فما اقسام الله به يوم القيامة او القرآن مثلاً ذلك لتقرير ان الاول واقع لامفر منه وان الثاني كلام الله الحق الذي لا ريب فيه ثم يكون في ذلك تعظيم كليهما الأول لما يكون فيه من سعادة وشقاء ، والثاني لما فيه من الهداية والشفاء لما يعمرون النفوس من الادواء ومن ذلك النجوم قوم يحقرونها لانها من جملة عالم المادة ويغفلون عن حكمة الله فيها وماناها بها من المصالح وآخرون يعتقدونها آلهة تتصرف في الاكوان السفلية تصرف الرب في المربوب فيقسم الله بها موصوفة بأوصاف تدل على انها من المخلوقات التي تصرفها القدرة الالهية وليس فيها شيء من صفات الالهية كما تراه في مفتتح

فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا

هذه السورة وفي سورة اذا الشمس كورت ثم تشير الى ما نيط بها من المصالح كما سيرد عليك وسترى فيما يساق اليك من هذا التفسير في السور الاتية ما يرشدك الى تفصيل ما اجملنا هنا ، وهناك امر يجب التنبيه عليه وهو ان من الاديان السابقة على دين الاسلام ما ظن اهله ان هذا الكون الجسماني وما فيه من نور وظلمة واجرام واعراض انما هو كون مادي لم يشأ الله خلقه الا ليكون حبساً للنفس وفتنة للارواح فمن طلب رضا الله فليعرض عنه وليبعد عن طيباته وليأخذ بدنه بضروب الاعنات والتعذيب واصناف الحرمان وليغمض عينيه عن النظر الى شيء مما يشتمل عليه هذا الكون الفاسد في زعمه اللهم الا على نية مقتته والهروب منه فأقسم الله بكثير من هذه الكائنات ليبين مقدار عنايته بها وانه لا يفضيه من عباده ان يتمتعوا بما متعهم به منها متى ادركوا حكمة الله في ذلك المتاع ووقفوا عند حدوده في الانتفاع وقد افتتح الله هذه السورة بأن اقسم ببعض مخلوقاته اظهاراً لعظم شأنها واتقان نظامها وغزارة فوائدها وانها مسخرة له خاضعة لامره ليقعن ما يوعدون مما ذكر في السورة السابقة وما يذكر في هذه السورة في يوم تعظم فيه الالهوال وتضطرب فيه القلوب وتحشع الابصار ويعجب فيه المبعوثون من عودهم الى حياتهم الاولى بعد ان كانوا عظاماً نخرة خالية تمر فيها الرياح ويتحققون حينئذ خسارهم بما انكروا في هذه الدنيا معادهم فيجابون على تعجبهم هذا بأن لا تحسبوا تلك الكرة الى الحياة صعبة على الله فما الامر عنده الا صيحة واحدة فاذا الناس احياء ظاهرون في ارض المعاد

(النازعات) من نزع عن القوس رمى عنها (والفرق) هو الاغراق في النزع اي الاتيان على الغاية منه والنازعات غرقاً هي الكواكب تنزع عن قسي دوائرها ما نراه شهباً ساقطة (والناشطات نشطاً) من نشط ينشط اذا خرج من بلد الى بلد وهي الكواكب تفارق مداراتها وتنقلب من برج الى برج فتختلف اقاليمها وهي (الساجحات سيحاً) تتحرك في الهواء وتسير في الجواء سيراً سريعاً وهي السيارات من كواكب واقمار وهي (السابقات) في سبجها فتم دورتها حول ما تدور عليه في مدة اسرع مما يتم غيرها كالقمر يتم دورته في شهر قمرى وكالارض تم دورتها

فَالْمُدْبِرَاتِ أَمْرًا يَوْمَ تَرْجَفُ الرَّاجِفَةُ تَتَّبِعَهَا الْوَادِفَةُ قُلُوبُ
يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ يَقُولُونَ أَيْنَا الْمَرْدُودُونَ
فِي الْخَافَةِ أَيْنَا كُنَّا عَظَمًا نَخِرَةً قَالُوا تِلْكَ إِذْكَرُهُ خَاسِرَةٌ فَإِنَّمَا
هِيَ نَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى

في سنة شمسية ونحو ذلك من السيارات ومنها ما لا يتم دورته الا في سنين لكن
السابقات هي التي انقردت بتدبير بعض الامور الكونية في عالمنا الارضى كما
قال فالمدبرات امرأ وليس التدبير الا ظهور الاثر فسبق القمر علمنا حساب شهوره
وله من الاثر في السحاب والمطر وفي البحر من المد والجزر ولضيائه ايام امتلائه
من الفوائد في تصريف منافع الناس والحيوان ما لا يخفى على ذى بصيرة وسبق
الشمس في ابراجها على ما يرى للناظر عامنا حساب شهورها وسبقها الى تتميم دورتها
السنية عامنا حساب السنين من جهة وخالف بين فصول السنة من جهة اخرى
واختلاف الفصول من اسباب حياة النبات والحيوان ونسبة التدبير اليها لانها
اسباب ما نستفيد منها والمدير الحكيم هو الله جل شأنه (الراجفة) الارض بمن
عليها (والرادفة) السماء وما فيها تردفها اى تتبعها فتتشق وتنتثر كواكبها (الواجفة)
شديدة الاضطراب (ابصارها خاشعة) اى ذليلة واذاف الابصار الى ضمير القلوب
لأنه اراد من وجيف القلوب شدة الخوف الواقع بأربابها فهي كناية عنهم
(الخافرة) الحالة الاولى أى الحياة بعد الموت ظنوها حياتهم الاولى يقال رجع
خلان في حافرة اى في طريقه التى جاء فيها (والنخرة) البالية الجوفاء التى تمر
فيها الرياح (والكرة) الواحدة من الكر اى الرجوع (والخاسرة) التى يخسر
أربابها ولا يربحون (والزجرة) الصيحة يراد بها النفخة الثانية يبعث بها
الاموات (والساهرة) الارض البيضاء سميت بذلك لأن السراب يجرى فيها
من قولهم عين ساهرة اى جارية الماء لا ينقطع جريانه منها .

(هل أتاك الخ) يريد الله ان يذكر نبيه بدعوة موسى لفرعون وأمر الله لنبيه
موسى بالتلطف في القول واللين في الدعوة الى الحق موافاة للحكمة واقامة للحجة

إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِي الْمَقْدَسِ طُوًى إِذْ هَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ ابْنَهُ
طَفًى فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَىٰ أَنْ تَزْكَىٰ وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَحْسَبُنِي
فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ثُمَّ أَذْبَرَ سَعْيَهُ فَحَسَرَ
فَنَادَىٰ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ

في الموعدة ثم بما كان من عاقبة الدعوة وعصيان فرعون واستنكافه عن قبولها
واخذ الله له وتنكيله به في الدنيا والآخرة حيث اغرقه وفي الآخرة سيحرقه
وفي ذلك تسلية له صلى الله عليه وسلم ووعد له بالفوز كما فاز موسى وفيه وعيد
شديد لأولئك الذين كانوا يكذبون ما جاء به من التوحيد ووجوب الإيمان
باليوم الآخر وانذار لهم بأن من اهلك فرعون في عتوه وجبروته قادر على اهلاكهم .
(الوادي المقدس) واد في اسفل جبل طور سيناء من برية الشام (وطوى) اما
اسم لذلك الوادي او بمعنى مرتين اى الوادي الذى قدس مرة بعد اخرى (وطفى)
جاوز الحد في العدوان على رعيته من بنى اسرائيل وغلا في الكبر والعظمة حتى
ظن انه مظهر الالهية . هل لك الى كذا اى هل ترغب فيه ويقال هل لك
فى كذا وهل لك الى كذا بمعنى هل ترغب فيه وترغب اليه (وتزكى) اى تزكى
وتطهر من الشرك وما يتبعه من رذائل الاخلاق وهو استفهام يقصد به العرض
والطلب وهو افضل انواعه واوفقها بالالطف والادب (واهديك) اى هل تحب
ان ادلك على ربك فتؤمن به ومتى آمنت خفته وخشيته فان خشية الله انما
تكون من العلم قال انما يخشى الله من عباده العلماء ومن خشى الله اتقاه ومن
اتقاه امن عقابه (فأراه الآية الكبرى) اى لما لم يقنع بالدليل القولى اظهر له
آية ودليلا يراه بعينه وهو انقلاب العصا حية ومع ذلك كذب الداعى وعصى
سلطان البرهان (ثم ادبر) اى ترك موسى وانقلب (يسعى) فى مكائده (خسر)
اى جمع سحرته واعوانه وقام فيهم يقول انا ربكم الاعلى فلا سلطان يعلو سلطاني
ولم يزل فى عتوه حتى تبع موسى وقومه الى البحر الاحمر عند خروجهم من
مصر فأغرقه الله فى البحر هو وجنوده وهو معنى قوله

فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى
 أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خُلُقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا
 وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا

(فأخذه الله) ونكال الآخرة والأولى أى ان اخذ الله لم يكن قاصراً على
 الاغراق فى البحر بل نكل به وعذبه عذاب الآخرة وهى يوم القيامة والأولى
 وهى هذه الدنيا (ان فى ذلك لعبرة) أى موعظة (لمن يخشى) أى يخاف أى
 لمن له عقل يتدبر به عواقب الامور ومصايرها فينظر فى حوادث الماضين
 واحوال الحاضرين ويتعظ بها

(أأنتم أشد خلقاً) عود الى خطاب اولئك المكذبين المغرورين لتقريرهم وتسفيه
 احلامهم فى استبعاد ما يوعدون به من البعث وما يتبعه او استبطاء اخذ الله لهم
 فى هذه الدنيا مع انه هو الذى انشأهم وخلقهم اول مرة فان كانوا قد غفلوا
 عن انه هو خالقهم فلينظروا الى السماء والى الارض ليعلموا ان من خلقهما
 وانشأهما لا يصعب عليه خلقهم ولا يسعهم انكار ان خالق السماء والارض هو
 الله فكيف ينكرون انه خالقهم وانه القادر على اعادتهم كما بداهم

(أشد خلقاً) اصعب انشاء (بناها) بيان لكيفية خلقه السماء والبناء ضم الاجزاء
 المتفرقة بعضها الى بعض مع ربطها بما يمسكها حتى يكون عنها بنية واحدة وهكذا
 صنع الله بالكواكب وضع كلا منها على نسبة من الاخر مع ما يمسك كلا فى مداره
 حتى كان عنها عالم واحد فى النظر سمي باسم واحد وهو السماء التى تعلونا وهو
 معنى قوله (رفع سمكها فسواها) والسمك قامة كل شىء فقد رفع اجرامها فوق
 رؤوسنا (فسواها) عدلها بوضع كل جرم فى موضعه (اغطش الليل) اظلمه وغطش
 الليل اظلم ونسبة الليل الى السماء لانه يكون بمغيب كواكبها (وضحاها) نورها وضوء
 شمسها قال تعالى والشمس وضحاها أى ضوءها وتعاقب الليل والنهار واختلاف
 الفصول التابع لحركة بعض السيارات يهيه الارض للسكنى وهو معنى قوله
 (والارض بعد ذلك) تسوية السماء على الوجه السابق وابرار الاضواء (دحاها)

أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا وَلِبِجَالِ أَزْوَاجِهَا مَتَاعًا لَّكُمْ
وَلِلْأَنْعَامِ لَكُمْ فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ الْكُبْرَى يَوْمَ تَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ
مَا سَعَى وَبُرْزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى فَأَمَّا مَنْ طَغَى وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا
فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى

أى مهدها وجعلها قابلة للسكنى وذلك بأن (أخرج منها ماءها) بتفجير الينابيع والعيون والأنهار (ومرعاهها) أى رعيها وهو النبات الذى يأكل منه الناس والدواب وتثبيت الجبال وجعلها مانعة من اضطراب الأرض من تنمة التمهيد واعداد الأرض لسكنى الأحياء وهو متأخر عن الاستعداد الأول لانبات النبات وإن كان بروز الجبال سابقاً على ذلك وقد جعل الله ذلك كله ليتمتع به الناس والأنعام أفلا يكون صانع ذلك كله هو صانعكم أفلا يكون خالقكم وواهبكم مابه تحيون ورافع السماء فوقكم وممهد الأرض تحتكم قادراً على بعثكم وهل يليق به أن يترككم سدى بعد أن دبركم هذا التدبير ووفر لكم هذا الخير الكثير .

(فإذا جاءت الخ) لما تبين أنه القادر على نشر الأموات كما قدر على خلق الأكوان تبين صدق ما أوحى به الى نبيه من أن ذلك اليوم الذى يقوم فيه الناس لرب العالمين لا بد منه فإذا جاءت طامته الكبرى التى تفوق كل طامة ووقت مجيئها هو ذلك اليوم الذى تعرض فيه الاعمال على العاملين فيتذكر كل سعيه وعمله يوم يظهر الله فيه الجحيم ودار العذاب للعيان فيراها كل من له بصيرة . فى ذلك اليوم يوزع الجزاء على الأعمال (فأما من طغى) وجاوز حدود الله المضروبة فى أحكامه وفضل لئلا تذ الحياة الدنيا على ثواب الآخرة فدار العذاب مأواه ومستقره وأما من عرف بسطة الساطان الالهى فخاف ذلك الجلال الرفيع وزجر نفسه عن هواها الباطل الذى يميل بها الى اتباع الشهوات فالجنة مأواه فعلى هذا يكون جواب اذا محذوفاً لا يجاز دل عليه التقسيم فى قوله فأما من طغى وتقديره وزع الجزاء على العمل فأما الخ (الطامة الكبرى) الداهية التى تطم على الدواهي أى تغلب وتعلو

وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ فَإِنَّ الْجَنَّةَ
هِيَ الْمَأْوَىٰ يُسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسِلُهَا ۖ فِيمَ أَنْتَ مِنْ
ذِكْرِهَا ۖ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا ۚ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مِّنْ نَّحْشِهَا ۚ كَانَتْهُمْ
يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا

(مقام ربه) يراد منه جلاله وعظمته والا فهو منزله عن المقام والقيام (المأوى)
في الموضعين هو المستقر والمقام والتعريف اشارة الى أنه معلوم لاشبهة فيه
(يسألونك عن الساعة الخ) كان أهل العناد من قريش يعنتون رسول الله صلى
الله عليه وسلم بالسؤال عن وقت الساعة ومتى يقيمها الله فكان النبي يردد في
نفسه ما يقولون ويتمنى لو أمكن الجواب عما يسألون كما هو شأن الحريص على
الهداية الجاهد في الاقناع فنهاه الله عن تمنى ما لا يرجي وجاء بالنهي في صورة
الاستفهام الانكارى حيث قال فيم أنت من ذكرها أى ما هذه الذكرى الدائمة
لست فى شىء منها أى لا حاجة لك بها فان علم ذلك ينتهى الى ربك وانما شأنك
أن تنذر من يخافها فتنبه من غفلته حتى يستعد لما يلقاه يومها أما هؤلاء
المعاندون فدعهم فانهم لا يعقلون ولا تشغل بالجواب عما يسألون فاذا جاءت الساعة
ذهبت صورة كل زمان مضى من أذهانهم سواء طال أو قصر فحسبوا أنهم لم
يلبثوا من يوم خلقوا الى يوم بعثوا الا عشية أو ضحاها أى طرفاً من
أطراف النهار لانهاراً كاملاً وذلك لمفاجأتها لهم على غير استعداد لتوقعها
(الساعة) ساعة يبعث الناس وهى يوم القيامة (أيان مرساها) أى متى ارساؤها
أى اقامتها ومتى حصولها (فيم أنت) أى فى أى شىء أنت من مداومة تذكرها
أو فى أى شىء أنت من ذكرها لهم واخبارهم بوقتها أى لست فى شىء من هذا
أى ليس من شأنك أن تذكر لهم من خبرها شيئاً سوى أنك تنذر من يخافها
(والعشية) طرف النهار من آخره (والضحى) طرفه من أوله واطافة الضحى الى
ضمير العشية اشارة الى أن العشية والضحى من يوم واحد فهم يحسبون أنهم
لم يلبثوا الا بعض يوم واحد كما قال لم يلبثوا الا ساعة من نهار واللبث الاقامة.

سورة عبس مكية وهي ثنتان وأربعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

نزلت هذه السورة في ابن أم مكتوم وهو ابن تحال خديجة رضى الله عنها قيل اسمه عمرو بن قيس وقيل عبد الله بن عمرو وقيل عبد الله بن شريح بن مالك والأول أشهر كما جاء في جامع الأصول وأم مكتوم لقب أمه واسمها عاتكة بنت عبد الله المخزومية وكان أعمى قيل ولد كذلك وقيل عمى بعد بصر وهو من المهاجرين الأولين واستخلفه صلى الله عليه وسلم على المدينة يصلى بالناس مراراً وكان يؤذن بعد بلال . أتى الى النبي صلى الله عليه وسلم وهو بمكة ومعه صناديد قريش عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأبوجهل بن هشام والعباس بن عبد المطلب وأممية بن خلف والوليد بن المغيرة يدعوهم الى الاسلام رجاء أن يسلم باسلامهم غيرهم فقال ابن أم مكتوم يا رسول الله أقرئني وعلمني مما علمك الله وكرر ذلك وهو لا يعلم تشاغله صلى الله عليه وسلم بالقوم فذكره الرسول قطعه لكلامه فظهرت الكراهة في وجهه فعبس وأعرض عنه فنزلت الآيات .

يذكر الله نبيه في صورة عتاب بأن ضعف ذلك الأعمى وفقره لا يصح أن يكون حاملاً على كراهة كلامه والاعراض عنه فانه حتى القلب ذكى الفؤاد اذا سمع الحكمة وعافها فيتطهر بها من أوضار الآثام وتصفو بها نفسه من كدر الوساوس أو يذكر بها ويتعظ فتتفعه العظة في مستنبل أمره فلا يقع في مأثم اما أولئك الأغنياء الأقوياء فأكثرهم الجحدة الأغنياء فلا ينبغي الانصراف اليهم والتصدى لهم لمجرد الطمع في اقبالهم على الامر يرجون فيه فيتبعهم غيرهم فان قوة الانسان في حياة قلبه وذكاء لبه والاذعان للحق اذا ظهر والالتقياد للدليل اذا بهر أما المال والنشب والعصبة والنسب والحشم والأعوان والاكايل والتيجان فهي عوارى تغدو وترتحل وتقر حيناً ثم تنتقل فكأنه يقول يا أيها النبي ان أقبلت فأقبل على العقل الذكى والقلب النقى واياك أن تنصرف عنه الى ذى الجاه القوى والمكان العلى فذلك انسان بنفسه حتى بطبعه وهذا غائب عن حسه معدوم بذاته موجود بجمعه وفي ذلك من تأديب الله لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ما لو تأدبوا به لكانوا اليوم أرشد الأمم هداهم الله

عَبَسَ وَتَوَلَّى أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى وَمَا يُدِيرُكَ لَعَلَّه يُزَكِّي
 أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى أَمَّا مَنْ اسْتَفْنَى فَآنتَ لَهُ تَصَدَّى
 وَمَا عَلَيْكَ إِلَّا يَزَكِّيَ وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى وَهُوَ يَخْشَى فَآنتَ
 عَنْهُ تَلَهَّى

(العبوس) معروف المعنى (وتولى) أعرض (أن جاءه) أى لأجل أن جاء، أى كان عبوسه واعراضه لأجل أن الأعشى جاءه وقطع كلامه (وما يدريك) أى وأى شىء يعرفك بحال هذا الاعشى وأنه مستعد لأن يتطهر بما تعلمه من أحكام الله (أو يذكرك) منها ما غفل عنه فيتعظ بوعظك (فتنفعه) هذه (الذكرى) وتلك الموعدة وذكر خبر العبوس والتولى بالحكاية عن الغائب ليلفته الى النظر فى العمل فى ذاته صادراً من أى شخص نسب اليه ثم أقبل عليه بالخطاب بعد هذا الاستدعاء تشديداً فى العتاب ثم بعد ذلك حصر شأنه فى تلك الحادثة فى أمرين ذكرهما بقوله (أما من استغنى الح) أى أن ماصدر منك كان هكذا على التفصيل الذى سيذكر (أما من استغنى) بماله وقوته عن سماع القرآن (فأنت له تصدى) أى تتعرض بالاقبال عليه مع أنك رسول وما عليك الا البلاغ فان كان المغرور قد ظن فى ماله غنى عن هداية الله ورضى لنفسه أن يبقى فى دنس الكفر فما عليك عيب فى بقاءه كذلك وأن لا يتطهر من درن الغرور ووسخ الجهالة (وأما من جاءك يسعى) اليك طالباً للهداية (وهو يخشى) الله ويخاف من الغواية وما دفعه اليك الا حبه لأن يتطهر من الجهل ويستضيء بضياء العلم وخوفه الوقوع فى ظلمات الضلالة فأنت تلهى عنه وتتغافل عن اجابته الى طلبته .

ثم أراد أن يبين أن الهداية التى يسوقها الله الى البشر على ألسن الرسل ليست مما يحتمل لتقريره فى النفوس واجباده فى القلوب وانما هى تذكرة تنبه الغافل الى ما غرز الله فى فطرته من الخير وأودعه غريزته من وجدان معرفة الخالق فى الخلقة فمن صد عنها فانما هو معاند مقاوم لما يدعو به اليه سره وتنزع به اليه

كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ فَمِنْ شَاءَ ذَكَرَهُ فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ مَرْفُوعَةٍ
مُطَهَّرَةٍ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ كِرَامٍ بَرَرَةٍ قَتَلَ الْإِنْسَانَ مَا كَفَرَهُ

نفسه فما عليك الا أن تبلغ ما عرفت عن ربك لتذكر به الناسى وتنبه الغافل
أما أن تحابى القوى المعاند ظناً منك أن مداجاته ترده عن عناده فذلك ليس
من عملك فذكر ان نعتت الذكرى .

(كلا) حرف ردع للزجر عن التصدى للمستغنى والتلهى عن المستهدى وعلل
للزجر بقوله (انها) أى الهداية المودعة فى الكتب الالهية وأجلها القرآن والضمير
فى « من شاء ذكره » يعود الى الله تعالى لأن أعظم الهداية أن يذكر وحده
لا شريك له ولظهور الدليل وشعور الوجدان لا يتوقف ذكره ومعرفة سبجانه
الا على مشيئة الذاكر بعد التذكير فتى وردت التذكرة نبهت وجدانه ولا يمنعه
عن الاهتداء الا عدم المشيئة بالعناد ثم قال تلك الهداية (فى صحف مكرمة)
وهى صحف الكتب الالهية (مرفوعة) أى عالية شريفة (مطهرة) من النقص
والضلالة (بأيدى سفرة) جمع سافر وهو من يسفر بين الناس بالصلح والسلام
وهم الملائكة أو الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ومعنى كون الكتب بأيدى
الملائكة أن الملائكة هم الواسطة فى حملها الى الانبياء ومعنى كونها بأيدى
الانبياء أنها تنزل بالوحى عليهم وهم يبلغونها للناس وكل من الملائكة والانبياء
يصح اطلاق اسم السفير عليه كما صح اطلاق اسم الرسول على كل منها
(والبررة) جمع بار وهو صانع البر والخير .

ثم أراد أن يزيدنا بياناً ويوضح لنا أن معرفة الله وتوحيده ليسا من العقائد التى
يلزم أن تنشأ فى القلوب بل هما مركزتان فى الجبل ولا تحتاجان الا الى التذكير
فاذا ذكرت النفس ذكرت ولا يمنعهما عن الاعتراف والاقرار الامنازعة الهوى
فاذا خالفت سلطانه لم يكن بينها وبين الاقرار الا أن تشاء فقال (قتل الانسان
ما كفره) دعاء على الانسان بأشنع دعواتهم على ما هو المعروف فى لسانهم
وهو كناية عن قبح حاله وأنه قد بلغ منه مبلغاً لا يستحق معه أن يبقى حياً ومنشأ

مِنْ أَيْ شَيْءٍ خَلَقَهُ مِنْ نُظْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ ثُمَّ السَّبِيلَ لَيْسَكَ
ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَأَهُ كَلَامًا يَقْضِي مَا أَمَرَهُ

الشناعة ومناطها نسيانه لما يتقلب فيه من النعم وذهوله عن مسديها حتى اذا ذكر به فهو يعرض عن الذكرى فما أشد كفره باحسان من غمره في نعمته من مبدأ إيجاده الى ساعة معاده انظر من أى شىء خلقه (من نظفة) أى ماء لحياء فيه (فقدره) فقد أنشأ بدنه من ذلك الماء فى أطوار مختلفة كما بينه فى آيات أخر وقدره بمقداره فأتم خلقه بأعضاء متناسبة لتلائم حاجاته مدة بقاءه وأودع فيه من القوى ما يمكنه من استعمال تلك الأعضاء وتصريفها فيما خاقت له وجعل كل ذلك بمقدار محدود على حسب ما يقتضيه كمال نوعه ثم بعد أن قدره هذا التقدير وأكمل بدنه على هذا المقياس الخاص بنوعه وهبه العقل الذى يقود تلك القوى عند تصرفها للأعضاء وبالعقل قد يسره سبيل الخير وأوضح له جادة الرشاد (ثم أماته) فلم يتركه كما يميت سائر الحيوان لكنه قد تفضل عليه (فأقبره) أى جعل له قبراً يوارى فيه تكريمة له ولم يجعل فى غريزة الانسان أن يترك ميتة مطروحا على الأرض جزراً للسباع هذا ما يراه الانسان من نعم ربه عليه فى نفسه ولا ريب أن سليم الفطرة لا يحتاج فى الاذعان به الا الى مجرد التذكير . ثم أن الله سبحانه اتبع هذه النعم المريعة الدالة على قدرته ووحدانيته بأمر البعث والنشور وجاء به كأنه من المشهودات التى ينبغى للانسان أن يعتبر بها ليشير الى أن الحياة الآخرة مما ركز الشعور به فى الطباع كذلك وان لم يدرك كنهه ولم يوقف على تفصيل حقيقته وقوله (اذا شاء أنشره) أى أنه ينشره ويبعثه بعد موته واقباره فى الوقت الذى يريد أن يبعثه فيه .

ثم أخذ يؤكد ما دل عليه قوله قتل الانسان ما أكفره فقال (كلا) أى حقاً ان الانسان قد بلغ فى كفره بالنعمة الالهية مبلغاً يقضى بالعجب فانه بعد ما رأى فى نفسه مما عددناه من آيات ربه وبعد أن مضى على نوعه تلك السنين الطوال فى الارض وهو يتقلب فى أدوار وأطوار يشاهد فيها من جلائل الآثار ما يحرك الأنظار ويسير بها الى الصواب من الآراء والصحيح من الافكار بعد هذا كله

فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعِنَبًا

لا يزال اذا ذكر لا يذكر واذا أنعم عليه لا يشكر فهو الى الآن لم يقض ما أمره الله به سواء كان الأمر بالالهام وهداية الفطر بما أشهده في نفسه من دلائل القدرة وعلائم الاحسان والنعمة أو كان بالوحى على السنة الانبياء والمرسلين فان الله لم يدع الانسان منذ زمان طويل سدى ولم يهمله من ارسال الهداة اثر الهداة غير أن الانسان في ضلاله وانقياده للاهواء الفاسدة لم يقض شيئاً مما أمره الله به وكيف يكون قد قضى شيئاً من ذلك وهو لا يزال في غفلة عنه يدعو معه غيره ويشرك في الاستعانة سواء ويأتى من فظائع الاعمال ما لا يرضاه فان زعم الانسان أنه لم يشهد خلق نفسه ورمى عينيه بالعمى عما في بدنه وعقله بالغباوة عما في ذاته وعما كان من أمرها في بدايتها ونهايتها وعلل هواه في الغواية بأن شيئاً مما في خلقه لا يقوم دليلاً على وحدانية خالقه وانقراده بالاحسان اليه لانه لم يشهد تلك النشأة ان خطر ذلك ببال أحد من أفراد الانسان (فلينظر) الى ما بين يديه من أقرب الاشياء اليه (الى طعامه) الذى يقيم بنيته ويجد لذته ويحفظ به منته ماذا صنعنا في احداثه وتهيئته لأن يكون غذاء صالحاً (أنا صبيبنا الماء) من المزن (صباً) شديداً ظاهراً (ثم) بعد أن كانت الأرض رتقاً متماسكة الأجزاء شققناها شقاً مرئياً مشهوداً كما تراه فى الأرض بعد الرى أو شققناها بالكراش على البقر بأيدي الانسان والكراش قلب الأرض للحرث وشق الأرض سواء كان بالحراش أو بغيره ليدخل الهواء والضياء فى جوفها فيحلل أجزاءها ويهيئها لتغذية النبات فينبت فيها و قيل المراد شق الأرض بالنبات كأنه قال ثم شققنا الأرض شقاً بالنبات ثم فصل النبات فقال (فأنبطنا فيها حباً الخ) ولا بأس به أيضاً ولما كان مرجع كل موجود الى مصدر الوجود وهو الذى سبب الاسباب وقدر الافعال وأقدر عليها كان اسناد الصب والشق اليه صحيحاً على كل حال كاسناد الانبات (والحب) كل ما حصد من نحو الحنطة والشعير وغيرهما

وَقَضَبًا وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا وَحَدَائِقَ غُلْبًا وَفَاكِهَةً وَأَبًّا

(والقضب) الرطبة وهو ما أكل من النبات غضا وسمى قضباً لأنه يقضب أى يقطع مرة بعد أخرى (والزيتون والنخل) معروفان لكل عربى (والحدائق) جمع حديقة وهى البساتين ذات الاشجار المثمرة عليها حوائط تحيط بها (وغلبا) جمع غلباء بالمد أى ضئمة عظيمة وعظم الحدائق بكثرة أشجارها والتفافها وقد يكون العظم فى نفس الأشجار بأن تكون كل شجرة غليظة عظيمة وذكر الحدائق بوصفها ذلك لبيان أن النعمة فيما تشتمل عليه الحدائق برمتها فالنعمة فى الأشجار بجملة لافى ثمرها خاصة فمن أخشابها ما ينفع للاحراق فى تدبير الطعام ومن أوراقها ما تأكله الحيوانات ومن النعمة فى الحدائق أنواع النبات مما يأكله الناس وترعاه الماشية وانما تدخل ثمار الأشجار فى الفاكهة تبعاً ثم خصص الفاكهة بالذكر بعد ذلك لأنها مما يتمتع به الانسان خاصة فقال (وفاكهة) ثم ذكر الأب لأنه مما ينفع الحيوان خاصة بقوله (وأباً) والأب المرعى لأنه يؤب أى يؤم وينتجع روى أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه سئل عن الاب فقال أى سماء تظلى وأى ارض تقلنى اذا قات فى كتاب الله مالا علم لى به وعن عمر رضى الله عنه أنه قرأ هذه الآية فقال « كل هذا قد عرفنا فما الأب » ثم رفض عصا كانت بيده أى كسرها غضباً على نفسه وقال « هذا لعمر الله التكلف وما عليك يا ابن أم عمر أن لاتدرى ما الأب » ثم قال « اتبعوا ماتبين لكم من هذا الكتاب ومالا فدعوه » اذا سمعت هذه الروايات فلا تظن أن سيدنا عمر بن الخطاب ينهى عن تتبع معانى القرآن والبحث عن مشكلاته ولكنه يريد أن يعلمك أن الذى عليك من حيث أنت مؤمن إنما هو فهم جملة المعنى فالمطلوب منك فى هذه الآيات هو أن تعلم أن الله يمن عليك بنعم أسداها اليك فى نفسك وتقويم حياتك وجعلها متاعاً لك ولأنعامك فاذا جاء فى سردها لفظ لم تفهمه لم يكن من جد المؤمن أن ينقطع لطلب هذا المعنى بعد فهم المراد من ذكره بل الواجب على أهل الجدة والعزيمة أن يعتبروا بتعداد النعم وأن يجعلوا معظم همهم الشكر والعمل هكذا كان شأن الصحابة رضى الله عنهم ثم خلف من بعدهم خلف وقفوا عند الالفاظ

مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْفَامِكُمْ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاحَةُ يُؤْمِرُ الْمَرْءُ مِنْ
أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ
يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ

وجعلوها شغلاً شاغلاً لا يهتمهم الا التشديق بتصريفها وتأويلها وتحميلها مالا تحتمله
وقد تركوا قلوبهم خالية من الفكر والذكر وأعضاءهم معطلة عن العمل الصالح
والشكر (متاعاً لكم) اما مفعول له أى فعل ذلك تمتيعاً لكم أو مصدر حذف
فعله وجرد من الزوائد أى متعمكم بذلك متاعاً والمعنى على كل حال أن فيما عدده
ماياً كله وينتفع به الانسان ومنه ماياً كله الحيوان والأنعام الماشيه وكل ما ينتفع
به الانسان من الحيوان .

(الصخ) الضرب بالحديد على الحديد والعصا الصلبة على شىء مصمت وصخ الصخرة
وصخيجها صوتها اذا ضربتها بحجراو غيره والصاخة ههنا كالقارعة فى سورتهاهى
الحادثة العظمى التى عبر عنها بالطامة الكبرى يكون نذيرها ذلك الصوت الهائل
الذى يحدث من تخريب الكون ووقع بعض أجزامه على بعض ولكون هذه
الحادثة تأتى بذلك الصوت المفزع سميت صاخة وقارعة أو أنها سميت صاخة لأنها
بما تأتى به من ذلك الصوت تصخ الاذان اى تصمها يقال صخ الصوت الاذن
يصخها صخاً فلا تسمع النفوس شيئاً فى ذلك الوقت الا ماتنادى به وتدعى الى الحياة
والنشور وهذه الاسماء كلها أسماء للقيامة العظمى يوم ينكشف للارواح مشهد
الجبروت الاعظم فيشغل كل نفس ما يصيبها من هيبة الجلال الالهى وتود لو نجت
بنفسها فهى تفر من كل من تتوهم أنه يتعلق بها ويطلب معونتها على ما هو فيه
فيتوارى كل امرئ من أخيه بل من أمه وأبيه بل من صاحبتة التى هى ألصق
الناس به وقد يبذل فى الدفاع عنها حياته لو مكن من ذلك ويفر من بنيه وكان فى
الدنيا يفديهم بماله وروحه ذلك كله لان لكل واحد ما يجد من الرعب وما يرهب
من الهول وما يخشى من مناقشة الحساب شأنا يغنيه أى يكفى لصرف جميع قواه

وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ صَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ أُولَئِكَ هُمُ الْكُفَرَةُ الْفَجَرَةُ

فليس عنده فضل فكر وقوة يمد بها غيره وجواب اذا في قوله فاذا جاءت الصباخة محذوف ليذهب الفكر فيه مذاهبه ويستورد منه على النفس غرائبه كانه يقول قتل الانسان ما أ كفره بنعمة ربه هذه نفسه لم يشرق عليها نور الوجود الا من فيض الوجود وهذا طعامه وما يقيم حياته الى الاجل المحدود انما يساق اليه بتدبير الشكور الودود ومع ذلك فقد ضربت الغفلة بينه وبين ربه حجابا فهو اذا ذكر لا يتذكر واذا عرض عليه الدليل لا يتفكر وربما جهل قدره فشمخ واستكبر وظن أنه القوى فلا يغلب والعزیز فلا يقهر فاذا ذهبت هذه الحياة الدنيا وجاءت الطامة الكبرى في ذلك اليوم العظيم فماذا يكون شأن ذلك الانسان هل يبقى في غفلته وهل يجد في نفسه شيئا من عظمتة أو فما أعظم أسفه وما أشد ندمه أو انجلت أوهامه وبطلت ظنونه أو ما يشبه ذلك مما فيه تهويل عليه أو تقرير له .

(الوجوه المسفرة) المضيئة المتهللة الضاحكة (المستبشرة) التي يظهر عليها الفرح والسرور لما تجد من برد اليقين بأنها ستوفي ما وعدت به جزاء ايمانها وما قدمت من صالح أعمال وشكر آلاء ونعم تلك الوجوه هي وجوه الذين آمنوا وعملوا الصالحات أما الوجوه الأخر وهي التي (عليها غبرة) أي يعلوها الغبار (وترهقها قتر) أي يغشاها سواد وقد يكون الغبار والسواد على حقيقتهم تمييزا لهم بأردأ الحالات وقد يكون الغبار غبار الذل والسواد سواد الغم والحزن وهو ما يقابل الاسفار والاستبشار تلك الوجوه هي وجوه الكفرة الذين لا يؤمنون بالله وبما جاء به أنبياءه (الفجرة) الذين قد خرجوا عن حدود شرائعه واقترفوا السيئات في حياتهم الدنيا نسأل الله أن يعاملنا بلطفه ورحمته ويحجبنا التعرض لغضبه ونقمته .

وقوله وجوه يومئذ الخ ابتداء كلام لبيان حال الناس يوم يأتي الله بذلك الحادث العظيم حادث الانقلاب في نظام الكون العام أو نظام الحياة الانسانية فينشأ

الناس نشأة أخرى ينكشف لهم فيها ما كان قد انهم عليهم في حياتهم الاولى ويتبين لهم من الامر ما كانوا فيه يختصمون ويأتيهم اليقين بما كانوا فيه يمترون فمن كان في هذه الحياة الدنيا طالباً للحق نظاراً في الدليل لا تحجبه عن الاعتبار غفلة ولا تأخذه عن الحق اذا ذكر به أنفة ولا تنفره منه عادة ولا تباعده عنه ألفة فهو لا يعقد لنفسه عقيدة الا بعد تقريرها على المقدمات الصحيحة المستمدة من حكم البديهة ليس فيها رأى فلان أو قيل سابق في زمان الا قول رسول كريم قامت على عصمته براهين يقبلها العقل السليم ويؤيدها الذكر الحكيم ثم أخذ نفسه بالعمل على ما يطابق عقيدته فهو كما يعتقد بالحق يعمل للحق من كان هذا شأنه في حياته هذه فما الذي يلاقه اذا جاءت الصاخة يوم ينكشف الحجاب ويزول الارتباب ما كان قد أيقن به في حياته الدنيا يشهد بالعيان أنه هو فيطمئن الى ما عرف وتسكن نفسه الى ما ألف وما كان لا يزال في طلبه والبحث في الأدلة للوقوف عليه وأدركه الموت قبل الوصول اليه ظهر ما كان يطلب منه حاضراً بين يديه فيفرح به فرح المحب يلقى محبوبه والراغب الحريص يصادف مرغوبه وفي الحالين تهلل وجهه ويسفر ويضحك ويستبشر

وأما من احتقر عقله ورضى جهله وصرفه عن الدليل ما أخذه عن آبائه وتلقاه عن سلفه ورؤسائه وشغل نفسه بالجدال والمرء في تصحيح الاهواء والتماس الحيل لتقرير الباطل وترويج الفاسد كما كان يفعل أعداء الانبياء ولا يزال يأتيه السفهاء لينصروا به أهواء الاغبياء ثم يتبع ذلك بأعمال تطابق ما يهوى وتخالف ما يزعم . يزعم الغيرة على الدين ولا تجد عملاً من أعماله ينطبق على أصل قرره الدين . الدين ينهى عن الفواحش وهو يقتربها . الدين يأمر بصيانة مصالح العامة وهو يفتك بها . الدين يطالب أهله ببذل المال في سبل الخير وهو يسلب المال ليكنزه فان انفق منه شيئاً صرفه في سبل الشر . الدين يأمر بالعدل وهو أظلم الظالمين . الدين يأمر بالصدق وهو يكذب ويحب الكاذبين من كان هذا شأنه فماذا يكون حاله يوم يتجلى الجبار ويرتفع الستار يجد كل شيء على خلاف ما كان يعرفه يجد الحق غير ما كان يعتقد يجد ان الباطل هو ما كان يعتمد يتحقق أن ما كان يظنه من العمل خيراً لنفسه صار وبالاً عليها يرى الخبث حشواً أعماله والخيبة حلف آماله فيملك الهم نفسه لشر ما يتوقع ويظهر أثر ذلك على وجهه فتعلوه الغبرة وتغشاها القفرة لانه من الكفرة الفجرة

سورة البكويريكه وهى تسع وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 إِذَا الشَّمْسُ كَرَّتْ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ وَإِذَا الْجِبَالُ
 سُيِّرَتْ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ

ابتدأ سبحانه يذكر يوم القيامة بما يكون فيه من الحوادث ليُعظم شأنه ويفخم هوله ويقول فى ذلك اليوم تعلم كل نفس ما أحضرته من أعمالها أى يتبين لها ما كان منها من خير أو شر ويذهب الالتهاس الذى كان يغر المغرورين وينكشف الغطاء عن تلبيس المرائين من يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره والحوادث التى تقع من أول يوم القيامة الى ساعة الحساب على ما هو مذكور فى هذه السورة هى أولا تكوير الشمس وتكويرها دهورتها وسقوطها وذلك عند خراب العالم الذى يعيش فيه الى حياته الدنيا فان علمه الآخر الذى ينقلب اليه لا يبقى فيه شئ من هذه الاجرام فالشمس تسقط ويمحى ضوءها وثانيا انكدار النجوم وهو تناثرها وانقضاضها حتى تذهب ويمحى لاؤها يقال انكدر عليهم القوم اذا جاؤا أرسالا حتى ينصبوا عليهم وتسير الجبال يكون عند الرجفة التى تزلزل الارض فتقطع أوصالها وتفصل منها أجزالها فتسير مقذوفة فى الفضاء وقد تمر على الرؤس من السحاب وهذه الحوادث تقع متى جاء الاجل واقتضت الحكمة الالهية أن تحرب الارض ريتبدل نظام هذا الكون الحاضر بالنظام الذى يستقر عليه أمره بعد ذلك الاضطراب ولا ريب فى أنه اذا كورت الشمس وتناثرت الكواكب وأرجفت الارض حتى انفصلت عنها جبالها كان الخوف عظيما والرعب عميما فمن كان حيا اذ ذاك غشيه من أمر نفسه ما يذهله عن أفضل ماله لديه فتعطل (العشار) وهى جمع عشراء بضم العين وفتح الشين وهى

وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ

النباى اذا مضى على حملها عشرة أشهر حتى تلد وهى أكرم مال كان عند المخاطبين فيهمولونها ويدعونها تذهب حيث شاءت لعظم الهول وشدة الكرب قيل ان تعطيل العشار حقيقى لانه حكاية الحال فى بداية الخراب والناس والحيوان لا يزالون أحياء فيصيبهم ما يصيبهم ثم يهلكون ويدل عليه قوله بعد ذلك (واذا الوحوش حشرت) وحشر الوحوش اما جمعها لاستيلاء الرعب عليها وخروجها من أحجارها وأوكارها ونسيانها ما كانت تخافه فتفر منه فتعشر هائمة لا يخشى بعضها بعضاً ولا يخشى جميعها سطوة الانسان وقيل حشر الوحوش موتها وهلاكها يقال اذا أجهفت السنة بالقحط والجذب وأضرت بالناس حشرتهم السنة أى أهلكتهم وهلاكها من هول ذلك الحادث الاعظم وقال القرطبى ان تعطيل العشار تمثيل لشدة الكرب والا فلا عشار ولا تعطيل كأنه قال بعد ذكر ماسبق من تكوير الشمس وانكدار النجوم وتسيير الجبال « وكان من هول هذه الحوادث ما يصرف حاضرها عن أكرم الاشياء عليه حتى لو كان عنده عشار لعطلها وأهملها » وقد قيل فى حشر الوحوش انه جمعها يوم القيامة للحساب وهو ضعيف بعيد لان الكلام الآن فى حوادث التخريب قبل البعث بالفعل وأول الكلام فى البعث قوله واذا النفوس زوجت أما تسجير البحار فهو أن يفجر الزلزال ما بينها حتى تختلط وتعود بحرا واحدا وهو بمعنى الملى فان كل واحد منها يمتلىء حتى يفيض ويختلط بالآخر وتسجير البحار على هذا المعنى لازم لما سبقه من تقطع أوصال الارض واتفصال الجبال ويدل على رجحان هذا التأويل ظاهر قوله تعالى فى سورة الانقطار واذا البحار فجرت وقد يكون تسجيرها اضرامها نارا فان ما فى بطن الارض من النار يظهر اذ ذاك بتشققها وتمزق طبقاتها العليا أما الماء فيذهب عند ذلك بخارا ولا يبقى فى البحار الا النار أما كون باطن الارض محتوى على نار فقد ورد به بعض الاخبار ورد أن البحر غطاء جهنم وان لم يعرف فى صحيحها ولكن البحث العلمى أثبت ذلك ويشهد عليه غليان البراكين وهى جبال النار كما تشهد عليه الزلازل الشديدة التى تشق الارض والجبال فى بعض الاطراف كما وقع فى (جاوا) من عدة سنوات فان آثار النار فى بطن الارض قد ظهرت فيها ظهورا لاشبهة

وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ

قطراً على الذهن بعده وبعد أن عدد ما يحدث من مقدمات الفناء وبطلان الحياة في الارض وامتناع المعيشة فيها أخذ يذكر ما يكون بعد ذلك من البعث والنشور وما يأتي بعده فقال (واذا النفوس زوجت) أى زوجت الارواح بأبدانها وهى النشأة الآخرة وفى الآية ما يشعر بأن النفوس كانت باقية من يوم الموت المعتاد الى يوم المعاد وانما تزوج بالبدن بعد أن كانت منفردة عنه وبعد البعث يكون الشروع فى الحساب ومنه أن يؤتى بالموءودة فتسأل بين يدي وائدها عن السبب الذى قتلت لأجله ليكون الجواب أشد وقعاً على الوائد فأنها ستجيب أنها قتلت بلا ذنب جنته وذلك أن الواد هو دفن البنت فى صغرها حية وكان عادة من أشنع العوائد فاشية فى العرب أيام الجاهلية وكان لهم فى ذلك تفنن فمنهم من كان اذا ولدت له بنت وأراد أن يستحييها ولا يقتلها أمسكها مهانة الى أن تقدر على الرعى ثم ألبسها جبة من صوف أو شعر وأرسلها فى البادية ترعى له ابله وان أراد أن يقتلها تركها حتى اذا كانت سداسية قال لأمها طيبيها وزينيها حتى اذهب بها الى أحماؤها وقد حفر لها بئراً فى الصحراء فيبلغ بها البئر فيقول لها انظري فيها ثم يدفعها من خلفها ويهيل عليها التراب حتى تستوى البئر بالارض وعند بعضهم كانت الوالدة اذا جاءها المخاض حفرت حفرة فتمخضت على رأس الحفرة فاذا ولدت بنتاً رمت بها فيها وان ولدت ابناً حبسته فانظر الى هذه القسوة وغلظ القلب وقتل البنات البريئات بغير ذنب سوى خوف الفقر أو العار كيف استبدلت بالرحمة والرأفة بعد أن خالط الاسلام قلوب العرب فما أعظم نعمة الاسلام على الانسانية بأسرها بمحوه هذه العادة القبيحة .

الصحف التى تنشر يوم القيامة بعد البعث هى صحف الاعمال والذى يجب علينا اعتقاده أن أعمال العباد تظهر لهم ثابتة مبينة لا يرتابون فيها يوم الجزاء ويعبر عن معنى ذلك الثبوت والبيان بنشر صحف الاعمال أما كون الصحف على مثال الاوراق التى نكتب عليها فى الدنيا أو على مثال اللوح أو ما يشبه ذلك مما جرى

وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أُخْضِرَتْ

استعماله للكتابة عليه فذلك مما لم يصل عامنا اليه ولن يصل اليه بمجرد العقل ولم يرو عن المعصوم صلى الله عليه وسلم فيه نص قاطع (وكشط السماء) ازالها كما يكشط الجلد عن الذبيحة أى واذا السماء كسفت وطويت ولم يبق هناك شئ يسمى سماء أو غطاء وهذا انما يكون بخلو ذلك العالم الجديد من الكواكب بل بخلوه مما يطلق عليه فى الدنيا اسم الاعلى والاسفل (والجحيم) جهنم التى يعاقب بالعذاب فيها أهل الكفر والطغيان وتسعيرها ايقادها ايقاداً شديداً والواجب على المؤمن أن يعلم أن هناك ناراً للعذاب اسمها جهنم وانها تسعر وتوقد على المعنى الذى يريده الله أى أن ألم من قضى عليه بالدخول فيها من أشد الآلام التى تحدث عن امساس النيران للاجسام الحية أما كون الايقاد بالخطب أو الفحم الحجرى أو الخشبى أو ما أشبه ذلك مما هو معروف عندنا فى حياتنا هذه فذلك غير واجب أن يعتقد به . (وازلاف الجنة) ادناؤها وتقريبها من المتقين كقوله تعالى وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد والجنة دار الثواب كما هو معروف وقوله (علمت نفس ماأحضرت) جواب لجميع ماسبق من الشروط والمقصود كما قدمنا أن ذلك يكون يوم القيامة وهو ممتد من تكوير الشمس وما بعده الى أن يرى أهل الجنة الجنة وأهل النار النار وليس يلزم من ذلك أن علم النفس بما جاءت به من أعمالها يتدى من أول جزء منه بل انما يكون بعد البعث ونشر الصحف وقد أورد الجواب على هذا الأسلوب ولم يأت بلفظ يفيد التعميم كقوله تعالى يوم تجد كل نفس ماعملت من خير محضرا وان كان المعنى ههنا عليه ليفيد ماأراده من وجه أبلغ على ماجرت به عادتهم فى الخطاب عند ارادة التهويل فان التقليل فى مقام التهويل انما يؤتى به للمبالغة فى التكثير كما فى قوله تعالى ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين ومعناه المقصود كم يود وكما يقول قائد لمن سأله كم عندك من الفرسان رب فارس عندى أو لاتعدم عندى فارساً وهو يريد أن ماعنده من الفرسان كثيراً لا يحصيه ولا يريد أن يتزيد به .

فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ الْجَوَّارِ الْكُنَّسِ

فان قال قائل لم جىء بذكر كسحط السماء بعد ذكر البعث ونشر الصحف وشىء من الحساب وقبل ذكر تسعير الجحيم وازلاف الجنة وكان من حق كسحط السماء أن يذكر في حوادث التخریب بعد انكدار النجوم قلنا هذا يدل على أن كسحط السماء ههنا لا يقصد منه تخریب العالم العلوى كما قال يوم نطوى السماء كطى السجل للكتب فان هذا قد تقدم فى تكوير الشمس وانكدار النجوم وانما يقصد الغطاء والحجاب الذى يعلوك فلا تبصر ما وراءه وقد فصل فى هذه السورة ما أجمله فى سورة ق عند بيان ما يسبق الحساب فقد قال هناك ونفخ فى الصور ذلك يوم الوعيد وقال هنا اذا الشمس كورت الى آخر قوله واذا النفوس زوجت وفصل هناك فى بيان الحساب ما أجمله فى هذه السورة فانه اكتفى منه هنا بذكر سؤال الموءدة ونشر الصحف وكسحط السماء وقال هناك وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد وقال قرينه هذا مالى عتيد ألقيا فى جهنم كل كفار عنيد وهو فى مقابلة قوله هنا واذا الجحيم سعرت ثم ذكر ست آيات فيما يتعلق بأهل جهنم وقال بعدها وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد وأتبع ذلك بوصف حال أهل الجنة فى آيات كثيرة أيضاً فهذا يدل على أن كشف الغطاء هناك هو كسحط السماء هنا وكل من السورتين تفسر الأخرى . ما أجل هناك فصل هنا وما أجل هنا فصل هناك . وأنه بكشف الغطاء أو كسحط السماء يظهر لكل نفس عملها وتقوم عليها شهودها فتبصر ما لم تكن تبصره من قبل ثم ترى ما أعد لها من جنة أو نار فسبحان من أودع فى كتابه ما يهدينا الى لبابه .

(فلا أقسم) عبارة من عبارات العرب فى القسم يراد بها تأكيد الخبر كأنه فى ثبوتة وظهوره لا يحتاج الى قسم ويقال انه يؤتى بها فى القسم اذا أريد تعظيم المقسم به كأن القائل يقول انى لأعظمه بالقسم لأنه عظيم فى نفسه والمعنى فى كل حال على القسم قال تعالى فلا أقسم بمواقع النجوم وانه لقسم لو تعلمون عظيم انه لقرآن كريم الخ والخنس جمع خائسة من خنس اذا رجع و (الكنس) جمع كائسة من كنس الظبي اذا استتر فى كناسه وهو موضع فى الشجر يأوى اليه من شدة الحر أو غيرها و (الجوارى)

وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ

جمع جارية من الجرى (والخنس الجوارى الكنس) قيل هى الدرارى الخمسة وهى عطارد والزهرة والمريخ والمشتري وزحل وذلك لأنها تجرى مع الشمس ثم ترى راجعة حتى تختفى فى ضوء الشمس فرجوعها فى رأى العين هو خنوسها واختفاؤها هو كنوسها وقيل هى الكواكب جميعها فانها لا تزال جارية راجعة علينا بعد مغيبها غائبة عنا بعد طلوعها وعسعس الليل أدبر قال العجاج

حتى اذا الصبح لها تنفسا * وانجباب عنها ليلها وعسعسا

وتنفس الصبح تلبج وامتد حتى صار نهاراً بيناً وأقسم بهذه الدرارى أو الكواكب جميعها لينوه بشأنها من جهة ما فى حركاتها من الدلائل على قدرة مصرفها ومقدرها وارشاد تلك الحركات الى ما فى كونها من بديع الصنع واحكام النظام مع نعتها فى القسم بما يبعدها عن مراتب الألوهية من الخنوس والكنوس تقريبا لمن خصها بالعبادة واتخذها من دونه أرباباً وفى الليل اذا أدبر زوال تلك الغمة التى تغمر الأحياء بالنسداد الطامة بعد ما استعادت الابدان نشاطها وانتعشت من فتورها وفى الصبح اذا تنفس بشرى الانفس بالحياة الجديدة فى النهار الجديد تنطلق فيه الارادات الى تحصيل الرغبات وسد الحاجات واستدراك ما فات والاستعداد لما هو آت وقوله (انه لقول رسول كريم) جواب القسم وهو انقسم عليه المراد توكيده وقرن لا أقسم بالفاء حيث قال فلا أقسم وهى تدل على تعلق ما بعدها بما قبلها يدلنا على أن الضمير فى أنه لذلك الخبر المتقدم وهو اذا الشمس كورت الخ ويفهم منه القرآن ضمناً كانه يقول اذا وقعت هذه الامور كلها كان ما ذكرت وذلك خبر لا ريبه فيه فانى أقسم الخ وهذا أظهر من اعادة الضمير على القرآن بجملته لأنه لم يتقدم له ذكر حتى يقرن القسم على أنه كذلك بالفاء و (الرسول الكريم) هو جبريل وانما كان قوله لأنه هو حامله الى النبي صلى الله عليه وسلم وقد وصفه بأنه ذو قوة كما وصفه فى سورة أخرى بأنه شديد القوى ذو مرة وهى الحصافة فى العقل والرأى والمتانة فيهما ومكين عند ذى العرش أى صاحب مكانة وشرف

وَمَا صَاحِبُكُمْ يَمْلِكُونَ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ وَمَا هُوَ عَلَى
الْغَيْبِ بِضَنِينٍ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ

لديه سبحانه وصاحب العرش هو الله ومن معاني العرش الملك وهو مطاع في الملأ
الأعلى أمين فيه و (ثم) بمعنى هناك أى في العالم الالهى وهو عالم لا يعلم حقيقته الا
الله وهو علام الغيوب (وما صاحبكم بمجنون) صاحبهم هو نبينا صلى الله عليه وسلم
ونفى عنه وصف الجنون لان بعض قريش كان يرميه بذلك عند ما يسمع منه
غريب الخبر من اليوم الآخر وغيره من مواضع العبر مما لم يكن معروفاً لهم ولا
مألوفاً لعقولهم والتعبير عنه بصاحبهم أبلغ في الاستدلال عليهم فانه صلى الله عليه
وسلم معهم من صغره الى كبره وما عرفوا منه الا كمال العقل والتبريز في الفضل
فكيف يوصف بالجنون عند ما يدعى الرسالة من ربه وعلم شيء من غيبه باذنه
(ولقد رآه) أى أن محمداً صلى الله عليه وسلم قد رأى جبريل بالأفق الأعلى
الواضح المظهر لما يرى فيه من جهة المشرق أو المغرب أو عند سدرة المنتهى
فذلك مما لا يفهم من هذه الآية وهذه الرؤية تتمثل جبريل للنبي صلى الله عليه وسلم
في مثل يبصر فهو قد ظهر له وتجلي لعينه على أنه جبريل فعرفه (وما هو على
الغيب بظنين) قرىء بالطاء وبالضاد والمعنى على القراءة الاولى وما محمد صلى الله
عليه وسلم بمتهم على الغيب أى انه صادق في اخباره عن اليوم الآخر وحوادثه
والوحي وما يجيء به وكما أنه لم يعرف عنه الكذب في ماضى حياته فهو غير متهم
فيما يحكيه عن رؤية جبريل وعلى النانية يكون المعنى أنه لا يبخل بما يأتيه من
الوحي ولا يقصر في تبليغه وسمى الوحي غيباً لانه لا يعرفه لا يفهم حقيقته من
البشر الا الذى يوحى اليه (وما هو بقول شيطان رجيم) أى لما كان صاحبكم
قد عرف بصحة العقل وبالأمانة على الغيب فلا يكون ما يحدث به من خبر الآخرة
والجنة والنار والشرائع والاحكام قول شيطان رجيم تظنون أنه قد تبعه وخالط
عقله (فأين تذهبون) أى مسلك تسلكون وقد قامت عليكم الحجة وأحاط بكم
الحق من جميع جوانبكم ما هذا الذى يتلوه عليكم محمد صلى الله عليه وسلم

إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ وَمَا تَشَاوُنَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ

(الا ذكر للعالمين) موعظة يتذكرون بها ما غرز الله في طباعهم من الميل الى الخير وانما أنساهم ذكره مائلاً على طباعهم من ملكات السوء التي تحدثها أمراض الاجتماع (وقوله لمن شاء الخ) بدل من العالمين أى أنه ذكر يتذكر به من وجه إرادته لأن يستقيم على الجادة الواضحة جادة الحق والعدل أما من صرف نفسه عن ذلك ولم يرد الا الاعوجاج والانحراف عن طريق الحق والصواب فذلك الذكر لا يؤثر فيه ولا يخرججه من غفلته فعلى مشيئة المكلف تتوقف الهداية ولا ريب فى أن كل مكلف قد فرض عليه أن يوجه فكره نحو الحق ليطلبه وأن يحفز (١) عزمه الى الخير ليكسبه ولما كان ترتيب الذكر والانتفاع به على مشيئة العبد أن يستقيم ربما يوهم أن الانسان مستقل باختياره سلطان لنفسه وحاكم لأمره منقطع العلاقة فى إرادته عن سلطان الهه استدرك لدفع هذا الوهم بقوله (وما تشاؤون الا أن يشاء الله) أى ان إرادتكم انما هى له مخلوقة وهو الذى أودعها فيكم ولو شاء لسلبكم اياها وجعلكم من الحيوانات التى ليس لها إرادة العاقل أو أخط من ذلك بحيث لا تكون لكم إرادة بالمرة وأتى بالوصف لبيان العلة فى الحكم حيث قال (رب العالمين) أى أنه لما كان رب العالمين أجمعين وهو مانحهم كل ما يتمتعون به من القوى إرادة أو غيرها وهو مع ذلك صاحب السلطان الأعلى عليهم كانت إرادتكم مستندة فى الحقيقة الى إرادته وخاضعة لسلطانه فلو شاء أن يحولها الى وجه غير الذى اتجهت اليه لتحلوت ولو شاء محوها بالمرة لمحيث له الامر وهو على كل شىء قدير

(١) يحفز (من باب ضرب أى يسوق عزمه ويدفعه كما فى القاموس اهـ) مصححه

سورة الانفطار ملكة وهي تسع عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ وَإِذَا الْبِحَارُ
فُجِّرَتْ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝ عَلِمْتَ نَفْسٌ مَا أَتَيْتَ وَأَخَّرْتَ

عود الى التذكير باليوم الآخر وبأن النفوس تشهد ما عملته في الدنيا لا يغيب عنها منه شيء في ذلك اليوم فتتجلى لها اعمالها في حقيقتها لا ترى خيراً في صورة شر ولا تتخيل شراً في مثال خير كما يقع في الدنيا لا غلب النفوس لأن الذي يحول بين الناس وبين فعل الخير انما هو تفضيل مالم يس بخير عليه ولا يفضل الشخص شيئاً على شيء الا اذا ظنه خيراً له ففضد الخير يتمثل للشرار في صورة الخير فيفعلونه والخير يظهر لنفوسهم على انه غير خير فيتركونه ولكن عند ما تتجلى الافعال كما هي في ذلك اليوم وينكشف الغطاء عن البصائر يعرف أهل الخير أنهم وان نجوا فهم مقصرون فيأسفون على ما تركوا ويستبشرون بثواب ما عملوا ويعض أهل السوء على أيديهم من الندم ويوقنون بسوء المنقلب ويتمنون لو كانوا تواباً . ذكر الله اليوم الآخر ببعض ما يحدث فيه من عظام الامور كما من علينا بمثل هذا التذكير في السورة السابقة فقال (اذا السماء انفطرت) اي انشقت وجاء في سورة الفرقان يوم تشقق السماء بالغمام وانشقاق السماء انصداع نظامها فلا يبقى أمر ما فيها من الكواكب على ما تراه اليوم فيجرب العالم بأسره ولذلك عقب انشقاق السماء بما هو من لوازمه حيث قال (واذا الكواكب انتثرت) أي سقطت فبادت فاذا كان ذلك اضطربت الارض أيضاً وزلزلت زلزالاً شديداً ووقع الخلل في جميع اجزائها فتفجر البحار وتزول الحواجز بينها فيختلط عذبها بالحمها بل تفيض على الارض حتى يصير سطح الارض ماء لحظات من الزمان وذلك قوله في سورة التكويد واذا البحار سجرت أي مائت وفاض منها الماء على التأويل الأول وقد يصح اجراء ما هنا على التأويل الثاني وذلك أنه بعد أن تفجر البحار

يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ

وفيض ماؤها تظهر النار وتأخذ مكان الماء بعد ان يتحول الى بخار كما أشير اليه في السورة السابقة واذا وقع ذلك انقلب باطن الارض الى ظاهرها فلا ريب في ان تبعثر القبور أى يظهر ما كان قد خفى فيها من بقايا أجساد الموتي وبعد ذلك يكون بعث الاموات وحيائهم في النشأة الآخرة ثم تنشر الصحف وينكشف الغطاء فتعلم كل نفس ما قدمت من أعمال الخير وما أخرت منها بالكسل والاهمال والتسوية من يوم الى آخر حتى حلت الآجال وقد يكون المعنى ما فعلت من خير أو شر وما تركت منهما . /

جرت العادة بأن كرم السيد يخدع العبيد فاذا أمرتها ونوا في الاجابة الى امره واذا نهى تغافلوا عن نهيه وتمادوا في لزوم ما نهى عنه والوقوع فيما حذر منه ويروى عن علي كرم الله وجهه أنه صاح بغلام له كرات فلم يلبه فنظر فاذا هو بالباب فقال له مالك لم تجبني فقال لثقتي بحملك وأمنى من عقوبتك فاستحسن جوابه وأعتقه وقالوا من كرم الرجل سوء أدب غلمانه وعلى هذه العادة اتكأ بعض من ضرب بينه وبين معنى الخطاب بحجاب أى حجاب حيث قال أن الله جل شأنه قد ألهم المخاطب الجواب فلعبدته أن يجيبه بقوله غرني كرمك ولا يخفى أن هذا تلاعب بالتأويل وتضليل للناظر في كتاب الله أى تضليل كيف يخطر ببال عاقل أن يقول ذلك في معنى أبلغ الكلام وهو صادر في مقام التهويل والارهاب والتخويف من الحساب وشدة العقاب وسد السبل واغلاق الابواب على أولئك الجاحدين الذين قرعوا بهذا الخطاب ولكن اسمع ما يليق بالمقام الكريم . وصف الكريم ليس خاصاً بمعنى الرحيم والواسع العطاء المحسن الغافر للذنوب بل قد جاء في القرآن وصفاً للرزق والكتاب والرسول والعرش والمقام والمدخل والقول وللأجر ولا ريب أنه في كل مقام يفيد المعنى الذي يناسبه والاصل في معنى الكريم الكمال في الوصف والبعد عن النقص ولقد فسروا الكريم بالعظيم في قوله تعالى رب العرش الكريم في سورة المؤمنين وهو الانسب بمقام الخطاب في سورتنا هذه فكأنه يقول ما غرك ربك العلي العظيم الذي قد علا في ذاته وصفاته عن كل مايوهم نقصاً أو عيباً فهل يمكن للرب العلي البالغ الغاية في الكمال أن يترك عبده سدى وأن يهمل فعالمه فلا يعاقب شريراً ولا يثيب

الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوِّكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ

خيراً ولا يعد لهم ما يردعهم عن القبيح ولا ما يهزمهم الى الحسن كلا ان اللائق بعلوه وسموه وكرم مقامه العلي أن يفيض نعمه على أهل الصالحات ويصب نعمه على مجترحي السيئات تفضلاً منه على الاولين وحكمة فائقة في التنكيل بالآخرين . ولئن سلم أن معنى الكريم الجواد الواسع العطاء فياض النعم فلا يصح أن يدخل فيه معنى العفو والمغفرة والخطاب خطاب تقرير ولكن فيه اشارة الى معنى رفيع يليق بكتاب الله ذلك أنه خاطب بيا أيها الانسان ولم يقل أيها المخلوق أو العبد وفي الانسان معنى العاقل المتفكر الذي أوتي من قوة العقل وبسطة القدرة في العمل ما لا حد له ينتهي اليه حتى صار بذلك أفضل المخلوقات وأكملها ونال بفضل ما أوتيته قوة السلطان عليها ولم يكن ذلك كله الامنحة من ربه الكريم الذي احسن كل شيء خلقه وهذا الكريم انما ياتي به ان يوفي كل مرتبة من الوجود حقها فالانسان الذي خص بهذه المنزلة من الكرم الالهى لا ينبغي أن يعيش كما يعيش سائر الحيوان ويموت كما يموت الوحش وصغار الذر وانما يتساوى مع بعضها في الحياة الاولى من حيث قصر المدة وسرعة الفناء ولكن الذي يليق بعقله وقوة نفسه الناطقة أن تكون له حياة أبدية لا حد لها ولا فناء يأتي عليها ولا ريب في أنه اذا روعى في الكرم الالهى أن لا يدع مستعداً الا منحه ما استعد له ولا يحرم قابلاً مما أعد لأن يقبله وهو الذي ينبغي أن يراعى فيه فقد ارتفع الغرور وأزيحت الخديعة وحق اليقين بأنه لا بد من حياة أخرى بعد هذه الحياة يوفي فيها كل ذي حق حقه وكل عامل جزاء عمله لان ذلك من تمام معنى الكرم الذي ميز الانسان على غيره من أنواع الحيوان وانما تمام تمييزه بأن يجعل له حياة باقية تناسب ما وهبه من العقل والقدرة ويؤكد هذا المعنى لو حمل الكريم عليه تعقيبهِ وصف الكريم بقوله (الذي خلقك فسواك) أى أكمل لك قواك (فعذلك) أى جعلك معتدلاً متناسب الخلق معتدل القامة لا كسائر البهائم وفي قراءة عدلك بالتخفيف ومعناه صرفك عن خلقه غيرك فخلقك خلقة حسنة مفارقة لسائر الخلق ثم أجل ذلك في قوله (في أى صورة ما شاء ركبك) أى ركبك في صورة هي من أعجب الصور وأتقنها وأحكمها وأدناها على بقائك الأبدى في نشأة أخرى بعد هذه النشأة الاولى ، وكلمة

كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالذِّينِ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ
مَا تَفْعَلُونَ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجُورَ لَفِي حُجِيمٍ

ماهى التى يسمونها زائدة ولكنها تدل على تفخيم ما اتصلت به فزيادتها زيادة اعراب
وان لم تكن خالية عن المعنى ويرشد الى ان المعنى هو ماقلنا قوله بعد ذلك (كلا
بل تكذبون بالدين الخ) كلا أى لاشىء يغرك ويخدعك بل ان سعة عطاء ربك
وحكمته فى كرمه تدلك وتوحى الى نفسك أنك مبعوث فى يوم آخر لثواب أو عقاب
وانما الذى يقع منك أيها الانسان هو العناد والتكذيب بالدين اى الجزاء اى
الانصراف عمداً وعناداً عما يدعو اليه الشعور الاول وعن الدليل الذى تقيمه
الرسل والحجة التى يأتى بها الانبياء مع ان الله لم يترك عملاً من اعمالك الا حفظه
وأحصاه عليك حتى يوفيك جزاءه .

ومن الغيب الذى يجب علينا الايمان به ما أنبأنا به فى كتابه من ان علينا حفظه
يكتبون اعمالنا حسنات وسيئات ولكن ليس علينا ان نبحث عن حقيقة هؤلاء
ومن اى شىء خلقوا وما هو عملهم فى حفظهم وكتابتهم هل عندهم اوراق واقلام
ومداد كالمعهود عندنا وهو مايبعد فهمه أو هناك ألواح ترسم فيها الاعمال وهل
الحروف والصور التى ترسم هى على نحو مانعهد أو انما هى أرواح تتجلى لها الاعمال
فتبقى فيها بقاء المداد فى القرطاس الى أن يبعث الله الناس كل ذلك لا نكلف العلم به
وانما نكلف الايمان بصدق الخبر وتفويض الامر فى معناه الى الله والذى يجب
علينا اعتقاده من جهة مايدخل فى عملنا هو أن أعمالنا تحفظ وتحصى لا يضيع منها
نقير ولا قطمير و (كراماً كاتبين) أى مطهرين عن الغرض والنسيان

ثم بعد أن ذكر مايدل على أن الغفلة عن اليوم الآخر لا موجب لها الا التكذيب
والعناد أخذ يؤكد الامر ويخبر به على القطع الذى لايدخله الريب فقال (ان
الابرار لفي نعيم وان الفجار لفي حميم) يريد أنه لاشىء فى جانب العلى الاعلى يسوغ
لاحد من البشر أن يغتر به وأن ينخدع فيه بل لا بد من يوم يكون فيه الثواب
والعقاب ولا بد أن يكون أهل الثواب فى دار النعيم وأهل النقمة وموضع الغضب
الالهى يكونون فى الجحيم وهى دار العذاب والاولون هم الابرار والابرار جمع

بر بفتح الباء وهو الموصوف بالبر بكسرهما قال بعضهم البر بالكسر الصدق وقال آخر هو التقوى وهو اجمال قد بينه الكتاب العزيز والسنة النبوية ولا يكون الصدق ولا التقوى براً حتى يكون فيه حسن المعاملة وافراغ الوسع في ايصال الخير الى الناس فاذا خلا الوصف من ذلك لم يكن براً ولم يكن صاحبه داخلياً في هذا الوعد الكريم قال الله تعالى . ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم اذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون. فجعل البر منحصراً فى الايمان بما يجب الايمان به ثم فى بذل المال فى وجوهه وفى الصلاة ثم عاد الى بذل المال بذكر الزكاة وبعد هذا ذكر الوفاء بالعهود وهو ملاك لكثير من الفضائل وأتبعه بالصبر على المرض والفقر وكل ما يخرج فى عيش أو يؤذى فى نفس أو بدن والصبر فى حالة الحرب للدفاع عن الحق ثم قال أولئك الذين صدقوا ليشير الى أن الصدق الذى يؤخذ فى معنى البر لا يكون براً ولا صدقاً الا اذا جمع هذه الأوصاف والفعال المتقدمة وكذلك قوله وأولئك هم المتقون يفيد أن التقوى هى ما جمع ذلك وقال فى سورة آل عمران . لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون وما تنفقوا من شئ فان الله به عليم . فلا يعد الشخص براً ولا باراً حتى يكون للناس من كسبه ومن نفسه نصيب فلا يغترن أولئك الكسالى الخاملون الذين يظنون أنهم يدركون مقام الأبرار بركات من الخشية خاليات وبتسبيحات وتكبيرات وتحميدات ملفوظات غير معقولات وصيحات غير لائقات بأهل المروآت من المؤمنين والمؤمنات ثم بصوم أيام معدودات لا يجتنب فيها اىذاء كثير من المخلوقات مع عدم مبالاة الواحد منهم بشأن الدين قام أم سقط ارتفع أو انحط ومع حرصه وطمعه وتطلعه لما فى أيدي الناس واعتقاده الاستحقاق لما عندهم لالشيء سوى أنهم عاملون فى كسب المال وهو غير عامل وهم يجرون على سنة الحق وهو متمسك بسنة الباطل وهم متجملون بحلية العمل وهو منها عاقل فهو لاء ليسوا من الأبرار بل يجدر بهم أن يكونوا من الفجار (والفجار) جمع فاجر والفاجر

يَصْلُونَهَا يَوْمَ الدِّينِ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ
ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً وَالْأَمْرُ
لِیَوْمَئِذٍ لِلَّهِ

من يفجر أمر الله أى يميل عنه ويتركه (١) والفجور كالفسق فى أنه خروج
عن الحد الذى وضعه الله فى شرعه وأوامر الله قد عرفت فى البر فمن لم يستجمعها
فقد فجر (يصلونها) أى يقاسون حر الجحيم (يوم الدين) أى يوم الجزاء ثم أكد
أن هذا العذاب حتم وأنه لا نجاة لهم منه بقوله (وما هم عنها بغائبين) أى أنهم
ملازمون لتلك الدار دار العذاب والعار

وبعد أن أكد خبر اليوم الآخر أشد التأكيد وبين ما يلقاه فيه المغرورون على
التأييد عاد يفخم أمر ذلك اليوم ويعظم شأنه فقال (وما أدراك ما يوم الدين)
أى من الذى أعلمك أيها الانسان كنه ذلك اليوم أى عجيب منك ثم عجيب أن
تتهاون بنبئه كأنك قد أدركت كنهه ووزنته فعرفت وجه الخلاص مما يلقاك فيه
ما تصورت فيه من الهول فحقيقته فوق كلا انك لم تدرك من كنهه شيئاً وكل
ما تصورت فانه ذلك اليوم الذى لا محاباة فيه ولا مواساة ولا يجد المرء ما يعول
عليه سوى ما قدمت يداه يحفوه الأولياء ويخذله الشفعاء ويتبرأ منه الاقرباء
(يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً) فلا تحمل عنها ذنباً ولا تدفع عنها عبثاً (والأمر
ليومئذ لله) وحده فلا شفيع ولا نصير ولا وزير ولا مشير وهو الذى وعد
وأوعد على لسان رسله وهو أصدق قائل فى قوله وأعدل فاعل فى فعله فلامهرب
لعامل من جزاء عمله حيث قد استأثر الله بالأمر كله نسأل الله المعونة فى دنيانا
لننال الأمن من عقابه فى آخرنا

(١) قال الشاعر

فتبتم فنى لا يفجر الله عامداً * ولا يجتوبه جاره حين يحل

أى لا يفجر أمر الله ولا يميل عنه (لسان العرب)

سورة المطففين بمكية ومكة وثلاثون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ
وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ

سورة المطففين قيل مكية كما ذكر وقيل مدنية نزلت في حال أهل المدينة حين قدمها النبي صلى الله عليه وسلم حيث كانوا أخبث الناس كيلا كما رواه البيهقي وغيره عن ابن عباس . والمطففون قد بينهم الله في قوله (الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون) أى إذا كان لهم عند الناس حق في شئ يكال أو يوزن وأرادوا أخذه منهم لا يأخذونه الا تاما كاملا ولهذا عدى اكتالوا بعلى فقالا اكتالوا عليهم ولم يقل منهم لان ما يأخذونه حق على الناس يستوفونه منهم (وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون) أى إذا كان للناس حق عندهم في مكيل أو موزون أعطوهم ذلك الحق مع النقص والخسار ولما كان المعنى على الاعطاء عدى كال الى الضمير بدون حرف وقد يكون على حذف الجار والا يصل كما في قوله

ولقد جنيتك أكمؤا وعساقل* ولقد نهيتك عن بنات الاوبر

أى جنيت لك والاصل كالوا لهم والا كمؤ جمع كماء وهى ما يعرف عند العامة الآن بعيش الغراب والعساقل ضرب منه أبيض وقيل لونه بين البياض والحمرة وبنات الاوبر ضرب منه كذلك ردىء الطعم وانما سمي من يبخس الكيل في حال ويملؤه أو يزيد عليه في حال مطففا لانه يبلغ في كيله طفاف الكيل كسحاب أى ما يقرب من ملئه ولا يملأه في الحالة الاولى ويبلغ الطفاف أو الطفافة بالضم وهى مافوق المكيل في الحالة الثانية ولانه يطلب الغنى بشئ طفيف وهو ما يأخذه من البخس إذا اكتال منك ومن الزيادة إذا اكتال عليك

أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ

قد ذكر الله في هذه السورة تفصيلا لما أجمله في السورة السابقة فقد جاء بنوع من أنواع الفجور وهو التطفيف في المكيال ثم جاء بنوع آخر وهو التكذيب بيوم الدين وبمنشاء ذلك التكذيب وهو الاعتداء وملازمة الآثام وأتبع ذلك بأثر من آثار التكذيب وهو دعوى أن آيات الله في كتابه هي أساطير الاولين كل هذا بيان للفجور المؤدى بصاحبه الى الجحيم ثم زاد ما يلاقونه في الآخرة تفصيلا من حيث ذكر أين يكون كتابهم وذكر حجبتهم عن ربهم وما يقال لهم من قوارع التبكيت وكذلك فصل في نعيم الابرار ما أجمله في السورة المتقدمة كما ترى

بعد ان قال ويل للمطففين أى هلاك لهم عظيم ونكال ينتظرهم قال (ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم) أى ان تطفيف الكيل واختلاس مال الناس بوسيلة هذا العمل مما لا يصدر الا عن شخص لا يظن أنه يبعث يوم القيامة ويحاسب على عمله ولو ظن البعث والحساب لما طفف الكيل ولا بنحس الميزان ولهذا تنزل حالة المطفف منزلة حال من يجهل ظنه بالحياة الآخرة فضلا عن اعتقاده فيها فيستفهم عنه كما قال ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون لذلك اليوم العظيم أى فيه (يوم يقوم الناس لرب العالمين) أى يقفون للعرض عليه ويطول بهم الموقف اعظاما لجلاله واجلالا لمقامه جل شأنه واعتبار المطفف كأنة لا يظن أنه سيبعث للقيام بين يدي ربه وتنزيله منزلة المنكر للبعث اعتبار حق لا يجادل فيه الا مغرور بالله أو جاهل بدينه بل منكر لحقيقته وكيف يصر على ايداء الناس والغض من حقهم من يظن بعض الظن انه سيقوم بين يدي رب العالمين وخالق الخلق اجمعين القاهر الجبار ليحاسب على النقيير والقطمير والحبة والذرة (كلا) لا يقيم على ذلك الامنكر لما اوعده به او متأول فيما يدفع عنه العقاب وينجيه من الحساب لا يبعد به تأوله عن منزلة المنكر بل يسقطه مع صاحبه في النار وبئس القرار هذا ما ينذر الله المطففين الراضين بالقليل من السحت فما ظنك بأولئك الذين يأكلون اموالهم الناس بلا كيل ولا وزن بل يسلبونهم ما بأيديهم ويفلبونهم على ثمار اعمالهم

كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفَجَارِ لَفِي سَجِينٍ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَجِينٌ كِتَابٌ مَرْقُومٌ

فيحرمونهم حق التمتع بها اعتماداً على قوة الملك أو نفوذ السلطان أو باستعمال طرق الحيلة فهل يعد هؤلاء من الشاكين في يوم البعث فضلاً عن الظانين أو الموقنين لا ريب أن هؤلاء لا يحسبون إلا في عداد الجاحدين المنكرين وإن زعموا بلسانهم أنهم من الموحدين المؤمنين يروى أن اعرابياً قال لعبد الملك ابن مروان « سمعت ما قال الله في المطففين » أراد بذلك أن قد حق الوعيد على المطفف على النحو الذي سمعت من التهويل والتعظيم فما ظنك بنفسك وأنت تنهب وتسلب وتنتزع الأموال من أيدي أربابها بالقوة والقهر لا بالحيلة والخدعة استعظماً لقوتك وغفلة عن جبروت الله وتكبراً على الناس ولا تكتفى من ذلك بالقليل كما هو شأن المطفف ولا ترضى بما دون استئصال الأموال ومسح ما يبقى من غبارها بأيدي أهلها فالويل كل الويل لك يوم يقوم الناس لرب العالمين قرئ يوم يقوم بالفتح وبالجر وعلى الثاني هو بدل من يوم عظيم وعلى الأول يكون ظرفاً لمبعوثون أو منصوباً على الاختصاص وهو ما اختاره لأن المقام له .

كلا ردع لهم عن التطفيف الذي يقتربونه لغفلتهم عن يوم الحساب وضعف اعتقادهم به فإن ذلك غرور منهم لا يرجعون فيه إلى سند وذلك أنهم بعملهم هذا يعدون من الفجار والفجار يحاسبون على أعمالهم لا يغفل منها شيء فإن لهم كتاباً تحصى فيه أعمالهم خفيها وجليها حقيرها وعظيمها وذلك الكتاب يسمى بسجين وهو مرقوم أي قد أثبت فيه العلامات الدالة على الأعمال ويفهم من استعمال اللفظ في اللغة ومن مقابلته بكتاب الأبرار الذي في عليين أن فيه معنى التسفل كما أن في مقابله معنى التعلو وقد رأيت في بعض كتب أهل البحث في اللغات أن الوحل يسمى في اللغة الايتيوية سنجون بالجيم العجمية مع امالة في حركة الواو ولا يخفى ما في معنى الوحل من التسفل وقد يكون هذا اللفظ من استعمال عرب اليمن فإن فيها كثيراً من الألفاظ الايتيوية لكثرة المخالطة بينهم وبين أهل الحبشة استعملوه فيما يقارب الوحل فلا يبعد أن يقال إن الكتاب فيه أي أنه مكتوب به

وَبَلَّغْ يَوْمَ ذَلِكَ ذِينَ الَّذِينَ يَكْذِبُونَ يَوْمَ الدِّينِ وَمَا يَكْذِبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُفْتَدٍ أَثِيمٍ

أو على التصوير والتمثيل أى أن الاعمال لخبثها تصور وتمثل كأنها مكتوبة به ويكون معنى كون الوحل وما يقاربه كتابا مرقوما أن الاعمال بعد أن خطت به صار ذلك المداد القبيح كتابا مرقوما وعلى أن سجيننا اسم لما تحصى فيه الاعمال يجوز أن يكون لفظ كتاب الأول مصدراً أى أن كتبهم واثبات الأسماء وأعمالهم هو فى ذلك الكتاب الذى هو كالسجل لتلك الأسماء والاعمال ويقال كتب الله فلاناً فى الأشقياء أو فى السعداء أى أدرج اسمه بين أسمائهم فيما قدر لهم فكذلك يقال كتب الفجار فى سجين أى أودع أسمائهم فيه مقرونة الى أعمالهم ويجوز أن يكون كتاب بمعنى المكتوب ومعنى كونه فى سجين أن سجيناً هو سجل عام يحتوى على صحائف كثيرة لكل فاجر صحيفة والجموع هو ذلك السجل العام المسمى بسجين (ويل يومئذ للمكذبين) إعادة للوعيد الأول فى قوله ويل للمطففين بعبارة أدل على عظم الجرم وأعم تشمل تلك الجريمة وغيرها وذلك أنه قال فى المطففين ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم ليبين أن الاصرار على ذلك العمل القبيح يدل على ارتقاع الظن بالبعث ثم أعاد الوعيد بلفظ المكذبين الذى يشمل أولئك المطففين وغيرهم وهم الذين يكذبون بيوم الدين أى يوم الجزاء سواء كان التكذيب بمجرد الخبر به مباشرة أو كان بعدم المبالاة بما يكون فيه من عقاب وعذاب وعدم المبالاة هو التكذيب المستبطن فى النفس الذى تجرى عليه فى أعمالها وان كانت لا تظهره فى أقوالها وأعظم دليل على عدم المبالاة هو الاصرار على الجرائم والمداومة على اقتراف السيئات ولهذا جعل الاعتداء والاثم مناط التكذيب فى قوله (وما يكذب به الا كل معتد أثيم) فان من كان ميالاً الى العدل فى خلائقه وأفعاله واقعاً عند ما جدد الله لعباده فى شرائعه وسننه لا يعتدى حدود النصفة فأيسر شئ عليه التصديق باليوم الآخر وهو أعون له على ما مال اليه أما من اعتدى

إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ قُلُوبِهِمْ مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ

الحق وعمى عن الانصاف واعتاد ارتكاب الآثام واتيان مافيه الغض من حقوق الناس والاضرار بهم والاخلال بنظامهم فذلك الذى يصعب بل يكاد يمتنع عليه الاذعان باخبار الآخرة لأنه يأبى النظر فى أدلتها وتدبر البينات القائمة على صدقها لأن فى ذلك قضاء على نفسه بالسفه وحكماً عليها بالظلم ذلك فيما مضى لها ثم فيه تخويف لها من ارتكاب مثل عملها فيما يستقبل وهى جاحمة طامحة فهو لا يريد إلا أن يعللها بالانكار ويهون عليها الامر بالتغافل أو التعلق بالامانى من نصرة الاولياء أو توسط الشفعاء فلذلك اذا تليت عليه الآيات المنزلة الناطقة بأصدق الخبر عما يكون فى ذلك اليوم مما لا مفر منه (قال أساطير الاولين) والاساطير أحاديث لا نظام لها أى ذلك كلام مكرر الحكاية يآثره الآخر عن الاول والخلف عن السلف ولكنه مالا ينطبق على الواقع فهو مما تعودت النفوس سماعه وتعودت أن لا تتأثر منه وأن لا تحلى منه بطائل فلا يستحق النظر فيه هكذا حال القوم يتلى عليهم كتاب الله وفيه ما ينعى عليهم حالهم ويكشف لهم ما لبسوا على أنفسهم ويبين لهم سيئات أعمالهم فيقولون هذا مفهوم ولكن من ذا الذى يعمل به ولم لم يعمل فلان وفلان حتى كنا نسلك مسلكهم ونستقيم على طريقهم فهؤلاء واصفون بكتاب الله بأنه أساطير الاولين وان لم ينطقوا باللفظ الدال على الوصف ليعملوا بأنفسهم بأنهم مسامعون وأنهم مع فجورهم ناجون (كلا) ان هذه الآيات ليست بأساطير تسطر وأقاصيص تحكى وتؤثر وتعاد وتكرر بدون حقيقة ولا أثر بل هى الحق الذى لامراء فيه عرفه منها أهل العدل المتعرضون للرحمة والفضل وانما الذى غطى قلوب المكذبين وحجبها عن فهم ما جاءت به الآيات تلك الملكات الرديئة والعادات السيئة والأعمال الخبيثة التى كانوا يكسبونها وران على قلبه أى ركب وغطاه ومعنى رين الذنب وركوبه القلب حتى يحجبه عن الفهم هو

كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْفُجَّارِ ثُمَّ
يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْإِبْرَارِ لَفِي
عِلِّيَّينَ وَمَا أَذْرُكَ مَا عِلِّيُّونَ كِتَابٌ مَرْقُومٌ

ما ذكرناه لك من أن المسمى الذي ضريت نفسه بالقبيح يسعى جهده في البعد
عن كل مايكدر صفوه فهو يعرض عن كل ما يجد فيه تهجيناً لعمله أو تخويناً
من عاقبة فعله وهل يغنيهم هذا العمى من الحق شيئاً (كلا) انهم سيكونون
يوم القيامة في المكان الدون وموقف الهون و (انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون)
ولا يحجب عن الرب الكريم الا المخذول المرذول الدليل المبين (ثم انهم) بعد
أن يطرّدوا عن أبواب الكرامة يقذف بهم حيث لا يلقون الا الاسف والندامة
يقذف بهم في الجحيم يصلونها ويقاسون حرها (ثم يقال) لهم (هذا) هو العذاب
(الذي كنتم به تكذبون) تبكيتاً لهم وزيادة في التنكيل بهم فان أشد شيء على
الانسان اذا أصابه مكروه أن يذكر وهو يتألم له بأن وسائل النجاة من مصابه كانت
بين يديه فأهملها وأسباب التفصى عنه كانت في مكنته فأغفلها (كلا) ردع
عن التكذيب المذكور في قوله هذا الذي كنتم به تكذبون وانما يجب تجنبه
طلباً للكرامة في ملازمة التصديق الذي هو ضده فان كتاب الابرار في عليين الخ
وقد بينا في السورة السابقة معنى الابرار وهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات
المفصلة في السور والآيات فهؤلاء لا يضيع عمل عامل منهم بل كل ما عمله
فقد أحصاه الله في كتاب مرقوم اسمه عليون والكلام على لفظ كتاب الاول
كالكلام عليه فيما سبق وقد رأيت عن بعض الباحثين في اللغات الشرقية أن لفظ
عليون في اللغة الايتيوبية (الحبشية القديمة) معناه النقش باللون الاحمر فان لم يكن
العليون من العلو فمن الجائز أن اللفظ دخل في لغة أهل اليمن وعرب الجنوب على
معنى الزينة ثم أطلق على كل مزين لطيف وقد يدل على ذلك تخالف البناء
والوزن مع ماهو من معنى العلو وهذه الكتب التي تكتب فيها أعمال المجرمين أو

يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ عَلَى الْأَرَائِلِ يُنْظَرُونَ
تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْمُومٍ
خِتَامُهُ مِسْكٌ

أعمال الأبرار مما استأثر الله بعلم حقيقته فسجين وعليون موجودان أودعهما الله أعمال الخاسرين والناجين وليس علينا أن نعرف أنهما من أوراق أو أخشاب أو معادن آخر أو من ارواح غير أجسام كل ذلك مما لا حاجة الى البحث فيه لاستكمال الايمان وقد يكشفه الله للمصطفين من عباده ولهذا قال (يشهده المقربون) وجاء بهذه الصفة ليبدل بها على انه امر محقق الثبوت حتى أن المقرب ليشهده شهود العيان اذا وصل من القرب الى الحد الذي يكشف له فيه ذلك الكتاب وأمثاله ولما كان المقصود من شهود المقربين هو ما ذكرنا والله أعلم ظهر وجه ذكر هذه الصفة في جانب كتاب الأبرار وعدم ذكر مثلها في جانب كتاب الفجار لأن الفجار لا يشهدهم الله كتبهم ولا كتب غيرهم لتسفل ارواحهم وتدنسها باوضار الفجور فأنى يكون لها الاطلاع الى غيب لا يدنو منه الا النفوس العالية والعقول الصافية وقيل المراد بالمقربين الملائكة وعليه لا يظهر تخصيص كتاب الأبرار بذلك فان كتاب الفجار مشهود لهم كذلك

بعد أن أكد الخبر باحصاء أعمال الأبرار وأن احصاءها في كتاب رفيع مكرم جليل أخذ يفصل ما ينالونه من الجزاء على البر والاحسان فقال (ان الأبرار لفي نعيم) والنعيم والنعيمى والنعماء والنعمة كله الخفض والدعة وما فيه لذة وراحة وليس فيه ألم وعناء وهو ضد البأساء والبؤسى (والارائك) هي الاسرة فى الحجال والحجال جمع حجلة مثل القبة وحجلة العروس بيت أى خيمة يزين بالثياب والاسرة والستور وقوله (ينظرون) أى يمدون أعينهم الى ماشاؤا لا يغضى الخزي من أبصارهم (ونضرة النعيم) بهجته وماؤه وروثقه (والرحيق) الشراب الخالص الذى لا غش فيه وهو قول الزجاج وقيل هو أعتق الخمر وأفضلها وقيل هو صفوتها وهى معان كلها متقاربة (ومخموم) ختمت أوانيه وسدت وكان ختامها المسك مكان الطينة

وَفِي ذَلِكَ فَلَيْتَنَّافِسِ الْمُتَنَافِسُونَ يَشْرَبُ بِهَا الْمُقْرَبُونَ

وقيل المراد من ختامه مقطعه بعد الشرب أى أن الشارب يجد منه رائحة المسك بعد أن يشربه ولا يجد تلك الرائحة الخبيثة التي يجدها شارب الحجر (وفي ذلك فليتنافس المتنافسون) أى فى ذلك النعيم وما تلاه يرغب الراغبون ويسبق بعضهم بعضا اليه بالاعمال التي تقرب منه وهذه الجملة معترضة ذكرها عقب أنواع النعيم المتقدمة قبل أن يأتى على بقية أوصاف الرحيق اسرعا اليك بالترغيب فى التسابق الى ماعد من أنواع السعادة وقد يعود اسم الاشارة فى ذلك الى الرحيق المختوم تميزا له من بين أنواع النعيم السابقة بالترغيب فيه والجملة اعتراض على كل حال وكل نوعين اختلطا فاحدهما مزج صاحبه ومزاجه فبعد أن قال يستقون من رحيق مختوم ختامه مسك بين ما يمزج بذلك الرحيق اذا رغّب راغب أن يمزجه بشيء ودل على أن مزاجه يكون من التسنيم وهو ماء يأتى من الاعالى واسمه التسنيم ليطابق الاسم مسماه ثم زاده بيانا بقوله (عينا يشرب بها المقربون) فعينا منصوب على الاختصاص بالمدح وفيه من البيان مالا يخفى يشرب بها المقربون أى يشربون بها الرحيق مزاجا له اذا أرادوا والمقربون هم الابرار بعينهم ذكرهم بهذا الوصف زيادة فى تكميمهم

كل هذه الانواع من النعيم التي ذكرت فى الآيات مما ترغّب فيه الأتقى وتتسابق اليه الهمم لهذا حفز الله بها عزائم المحسنين ليزدادوا احسانا وليطمع فيها الواقف على أول الطريق فيلزم الجادة الواضحة ويدع المعوجة الملتبسة ويسلك سبيل السابقين وليرد بها من جار على النهج ويقيم على الصراط المستقيم هذا والمفهوم منها ما يشبه ما نحن فيه فما ظنك بها لو كانت أرقى وأكمل وأعلى وأفضل وأنه لا يدانيها شيء مما نعهده فى الدنيا الا فى الاسم أو ضرب من الشبه البعيد كما هو حقيقة أمرها والحق فى شأنها

إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ وَإِذَا مَرُّوا
بِهِمْ تَبْتَغَا مِنْهُنَّ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ وَإِذَا
رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ

بعد أن ذكر ما أوعده به الفجار وهم أهل الجرائم ومقتترفوا السيئات وما وعد به
المتقون وهم أهل البر والاحسان وما سيلاقيه كل من الفريقين في الدار الآخرة
جزاء على عمله أخذ يذكر ما كان لأحد الفريقين إلى الآخر في الدنيا وما سيكون
من شأن الآخر مع الفريق الأول في الآخرة فقال (إن الذين أجمعوا) وهم
المعتدون الأئمة الذين شريت نفوسهم في الشر وصمت آذانهم عن سماع دعوة الحق
هؤلاء كانوا يضحكون من الذين آمنوا ذلك لأنه حين رحم الله هذا العالم ببعثة
النبي صلى الله عليه وسلم كان كبار القوم وعرفاؤهم على رأى الدهماء وفي ضلال
العامة وكانت دعوة الحق خافتة لا يرتفع بها إلا صوته عليه السلام ثم يهمس بها
بعض من يليه ويحجب دعوته من الضعفاء الذين لم تطمس أهواؤهم سبيل الحق
إلى قلوبهم فيسر بها إلى من يرجوه ولا يستطيع الجهر بها لمن يخافه ومن شأن
القوى المستعز بالقدرة والكثرة أن يضحك ممن يخالفه في المنزع ويدعوه إلى غير
ما يعرفه وهو أضعف منه قوة وأقل عدداً كذلك كان شأن جماعة من قريش كأبي
جهل والوليد بن المغيرة والعاص بن وائل وأشياعهم وهكذا يكون شأن أمثالهم
في كل زمان متى عمت البدع وتفرقت الشيع وخفي طريق الحق بين طرق
الباطل وجهل معنى الدين وأزهقت روحه من عباراته وأساليبه ولم يبق إلا ظواهر
لا تطابقها البواطن وحركات أركان لا تشايعها السرائر وتحكمت الشهوات فلم تنب
رغبة تحدو بالناس إلى العمل إلا ما تعلق بالطعام والشراب والزينة والرياش
والمناصب والالقباب وتشبثت الهمم بالمجد الكاذب وأحب كل واحد أن يحمدا بما
لم يفعل وذهب الناقص يستكمل ما تنقص منه بتنقيص الكامل واستوى في ذلك
الكبير والصغير والامير والمأمور والجاهل والملقب بلقب العالم إذا صار الناس إلى
هذه الحال ضعف صوت الحق وازدري السامعون منهم بالداعى إليه وانطبق عليهم
نص الآية الكريمة (واذا مروا) بأحد من أهل الحق يغمز بعضهم بعضاً هزواً به

وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ۖ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ
يَضْحَكُونَ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ۚ هَلْ تُؤْتِي الْكُفَّارَ مَا كَانُوا
يَفْعَلُونَ

وإذا انقلب هؤلاء الضالون الى أهلهم ورجعوا الى بيوتهم رجعوا اليهم فكهين ملتذين بحكاية ما يعيبون به أهل الايمان اذ يرمونهم بالسخافة وقلة العقل كأن يقولوا عجباً هذا فلان يقول « لاتدعوا الا الهاً واحداً ولا تتوجهوا بالطلب فيما يفوق طاقتكم الا الى الله وحده خالق السموات والارض » فأين الاولياء والشفعاء وكم فعلوا وتركوا وضروا ونفعوا وهو ينكر جميع ذلك كأن الناس جميعاً في ضلال وهو وحده يعرف الحق ونحو ذلك مما يعدونه فكاهة يتلذذون بحكايته واذا رأوا المؤمنين قالوا ان هؤلاء لضالون لأنهم طرحوا ما عليه العامة وذهبوا يعيبون العقائد والاعمال المتوارثة عن الآباء والاجداد (وما أرسلوا) أى لم يرسل المؤمنون الصادقون الداعون الى الحق لأن يكونوا (حافظين) عليهم أى على الكافرين والمبتدعين المجرمين أى لم يمنحهم الله تلك المزية وهى أن يكونوا رقباء عليهم يعظونهم ويدعونهم الى الخير وهجر الشر فليسوا ملزمين بسماع دعوتهم والاصاحة لادلتهم فجملة وما أرسلوا هى من كلام الذين أجزموا جحد الحق المؤمنين فى وعظهم وارشادهم . ذلك ما كان من معاملة المجرمين للمؤمنين فى الدنيا يهزؤون بهم ويضحكون منهم ويجعلونهم أحاديث لهو ولغو فانظر ما تكون معاملة المؤمنين لهم يوم القيامة (فالיום) أى يوم الدين والجزاء (الذين آمنوا من الكفار يضحكون) لاضحك الجاهل المغرور بل ضحك الموقن المسرور ضحك من وصل به يقينه الى مشاهدة الحق فسر به انكشف لهم بالعيان ما كانوا يرجونه من اكرام الله لهم وخذلانه لا عداهم فسروا بذلك وفرحوا وضحكوا من اولئك المغرورين الجحدة الذين تجلت لهم عاقبه أعمالهم وظهر لهم سفيه عقولهم وفساد أقوالهم فنكست أعناقهم لخزيهم وذلهم فما أعظم نجدة المؤمنين فى ذلك اليوم (على الارائك ينظرون) الى صنع الله بأعدائهم وتذليله لمن كان يفخر عليهم وتنكيله بمن كان يهزأ بهم جزاء وفاقاً لجملة

سورة الانشقاق مكية وهي خمس وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ

«هل ثوب» متعلقة بينظرون ليه تحققوا هل جوزى الكفار بما كانوا يفعلونه بهم في الدنيا وثوب مثل أثاب بمعنى جازى يقع في الخير وفي الشر وان كان قد غلب الثواب في الخير أى هل جوزى الكفار الخ ويجوز أن يكون استئنافاً واستفهاماً تقريرياً كأنه خطاب للمؤمنين أى هل رأيتم كيف جازى الله الكافرين بأعمالهم أى أنه فعل وجازاهم شر الجزاء وأنتم تعلمون ذلك والأول أظهر كما لا يخفى

انشقاق السماء مثل انفطارها الذى مر تفسيره في سورة اذا السماء انفطرت وهو فساد تركيبها واختلال نظامها عند ما يريد الله خراب هذا العالم الذى نحن فيه وهو يكون بمحاذة من الحوادث التى قد ينجر اليها سير العالم كان يمر كوكب في سيره بالقرب من آخر فيتجاذبا فيتصادما فيضطرب نظام الشمس بأسره ويحدث من ذلك غمام وأى غمام يظهر في مواضع متفرقة من الجو والفضاء الواسع فتكون السماء قد تشققت بالغمام واختل نظامها حال ظهوره (وأذنت لربها) أى استمعت لأمر ربها وفعلت حين أراد انشقاقها فعل المطواع الذى اذا أورد عليه الأمر من جهة أمره أنصت له وأذعن فكأنه قال امتثلت له (وحقت) أى حق لها أن تمتثل أى يجدر بها ذاك وهي حقيقة بأن تنقاد ولا تمتنع لأنها مخلوقة له وهي في قبضته وهو الذى يمسكها أن تزول فاذا أراد تهديد نظامها بدده وما يكون لها أن تعصى ارادته ومتى فسد نظام السماء فتساقط من كواكبها بعضها على بعض أصاب الارض من ذلك أشد ما يصيبها من الاضطراب فتدك جبالها وتتقطع أوصالها وتفقد التماسك بينها فلا يبقى لها هذا الاندماج الذى هي عليه الآن فتمد مد الأديم العكاظى كما روى عن ابن عباس ولا تكون الا كتلة مائة تتساوى

وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا
وَحَقَّتْ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ

أعاليها وأسافلها وعظمت بهذا الانتفاش وزادت أقطار حجمها فهذا قوله تعالى (واذا الأرض مدت) ولا ريب أن هذا الممد يتبعه أن جميع ما في جوف الأرض ينقذف الى خارج وربما قذفته الحركة العنيفة الى ما يبعد عن سطحها فتخلو الأرض منه حتى لا يبقى له أثر في باطنها وهذا هو قوله تعالى (وألقت ما فيها وتخلت) وهي في ذلك كله تحت سلطان الجلال الالهى وقهره خاضعة لاوامره منقادة لمشيئته كما قال (وأذنت لربها وحقت) ولا يخفى أن الاستماع والطاعة من السماء والأرض تمثيل لكونهما في قبضة القدرة الالهية تصرفهما في الفناء كما تصرفت فيهما بالابتداء كما قال «ثم استوى الى السماء وهي دخان فقال لها وللارض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين» أى أنه خلقهما على الوجه الذى أراد بدون أن يكون منه جهد أوكد أو يصيبه عناء أو نصب كما يتوهم ضعفاء العقول اذا سمعوا بأن واحداً وحده يخلق هذا الخلق العظيم أو يدمر هذا الكون الجسيم وكما زعم اليهود أن الله ابتداءً الخلق يوم الاحد واستراح يوم السبت واستلقى على العرش قال الله فى آية أخرى لافادة المعنى على الحقيقة بدون تمثيل «ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام وما مسنا من لغوب» وكل قول أو فعل ينسب الى من لا يصدر عنه فى المعروف فنسبته اليه على طريق التمثيل الا أن يكون هناك سبب يسوغ النسبة فى عرف الخطاب .

جاء فى هذه السورة بشرطين أحدهما يتعلق بالسماء والآخر يتعلق بالأرض وفى ضمن كل منهما ما هو من لوازمه ولم يأت بجواب للشرطين بل أعقب قوله وإذا الأرض مدت الخ بقوله (يا أيها الانسان انك كادح الى ربك كدحاً فملاقية) وهو من عجائب ايجاز القرآن حيث يظن لزوم الاطناب فيأتى الایجاز بما لا يأتى به الاطناب فان الله تعالى قد بين فى سور آخر كثيراً مما يكون يوم القيامة من الاهوال والشدائد وحضور الاعمال وشهود الجزاء والوقوع فى ورطة الحساب

فَأَمَّا مَنْ أَوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا

وما يأتي بعد ذلك من شقاء ونعيم فذكر الله بداية ذلك اليوم في هذين الشرطين انشقاق السماء وتصدع الارض وانتفاشها وقذفها لما في جوفها وترك الجواب يذهب فيه السامع ماشاء من المذاهب حتى يمر بذهنه جميع ما ورد من حوادث ذلك اليوم وفي هذا من التهويل ما ربما لا يفيد التطويل وقد يقال أن الجواب محذوف يدل عليه ما يفهم من قوله يا أيها الانسان انك كادح الخ . كأنه قال اذا السماء انشقت الخ واذا الارض مدت الخ لاقى الانسان ربه فوفاه حسابه (كادح) من الكدح وهو العمل والسعي والكسب والجد والكدح عمل الانسان لنفسه من خير أو شر ووصل الوصف بالي اذ قال كادح الى ربك ولم يقل لربك ليدل على أنه أراد من الكدح معنى فيه سير وانتهاء كأنه يقول والله أعلم يا أيها الانسان السادر في غلوائه الصادر في عمله عن أهوائه الغافل عن مصيره الجائر عن جادة الحق في مسيره لا تظن أنك خالد وأنك مقيم فيما أنت له جاهد ، أنك ان آذيت الخلق وازدريت الحق واغتررت بالحول والقوة وساءت عنانك لاشهوة ضمنت لنفسك التمتع بما تكسب والبقاء فيما فيه تتعب وتنصب كلا انك مجد في السير الى ربك وان كنت لا تشعر بمجدك أو ان شعرت به لهوت عنه وكل خطوة في عملك فهي في الحقيقة خطوة الى أجلك فكل جهد وتعب يحدث في القوى أثر ضعف ولا يزال الضعف يتبع بعضه بعضاً حتى ينتهي الى الموت الذي لا محيد عنه وهناك لقاء الله فان الموت يكشف عن الروح غطاء الغفلة ويجلو لها وجه الحق فتعرف من الله ما كانت تنكره فقد لقيته كما يلاقي الغائب من يقدم هو عليه وما بعد الموت من رجعة الا يوم البعث يوم يقوم الناس للعرض على ملك يوم الدين كما قال « يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية » وهناك يرتفع الالتماس ويعرف كل عامل ما جر اليه عمله (فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً) والذين يؤتون كتبهم بأيمانهم هم الصالحون أهل البر وفعله الخير ممن ذكر الله أوصافهم وأعمالهم في الآيات الأخر (وينقلب الى أهله مسروراً) أي يرجع

وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا وَيَصْلى
سَعِيرًا إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْدُورًا

الى من هم من قبيله من المؤمنين الصادقين العاملين مسروراً بما لاقاه من
سهولة الحساب والنجاة من العقاب . أما الذى يؤتى كتابه وراء ظهره فسوف
يدعو ثبوراً أى يقول واثبوراه أى واهلاكاه فهو يتمنى أن يهلك بأن يموت ويفقد
الشعور بما يلقاه كقوله ياليتنى كنت تراباً (ويصلى سعيراً) يقاسى حر نار شديدة
اللدغ والاحراق (انه كان فى أهله) وقبيله من أمثاله (مسروراً) بما كان فيه
من الترف والنعيم ومعاقرة اللذات ومداعبة الشهوات فاليوم ينعكس عليه حاله
ويسوء مآله ويجد حزناً بدل سرور وألماً مكان لذة والحساب اليسير السهل
أن تعرض عليه أعماله فيعرف منها مايسر نسبته اليه وما قد يؤاخذ عليه ثم
لا يناقش ولا يعترض بما يسوء ويشق عليه . أما الكلام فى ايتاء الكتاب باليمين
أو وراء الظهر فاليك مايليق منه بكتاب الله وحكمته الباهرة اليمين تذكر فى
كتاب الله عبارة عن القوة أو اليمين والخير قال الله تعالى فى سورة الصافات « وأقبل
بعضهم على بعض يتساءلون قالوا أنكم كنتم تأتوننا عن اليمين قالوا بل لم تكونوا
مؤمنين » قال صاحب الكشف بعد أن ذكر شرف اليمين وما ينافيها من
الاعمال « واستعيرت لجهة الخير وجانبه فقيل أتاه عن اليمين أى من قبل الخير
وناحيته فصده عنه وأصله » وقال البيضاوى « عن أقوى الوجوه وأيمنها أو عن
الدين أو الخير » وجاء فى الكشف أيضاً « وجاء فى بعض التفاسير من أتاه
الشيطان من جهة اليمين أتاه من قبل الدين فلبس عليه الحق ومن أتاه من جهة
الشمال أتاه من قبل الشهوات ومن أتاه من بين يديه أتاه من قبل التكذيب
بالقيامة وبالثواب والعقاب ومن أتاه من خلفه خوفه الفقر على نفسه وعلى من
يخلف بعده فلم يصل رحماً ولم يؤد زكاة » وقال فى سورة الحاقة « ولو تقول علينا
بعض الاقاويل لاخذنا منه باليمين » أى لو ادعى علينا شيئاً لم نقله لقتلناه صبراً قال
البيضاوى « وهو تصوير لاهلاكه بأفطع مايفعله الملوك بمن يغضبون عليه وقيل اليمين
بمعنى القوة » وقال البيضاوى فى تفسير قوله فراغ عليهم ضرباً باليمين « تقييده

إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ

بالمبين للدلالة على قوته لأن قوة الآلة تستدعى قوة الفعل « فاذا استعملت المبين لتمثيل القوة قابلتها اليسار أو الشمال في تصوير الضعف وكذلك يقال في الخير أو الشر وما يقابلها ثم مما لا يحتاج الى بيان أن المبين هنا آلة الأخذ لا آلة الاعطاء لأنها مضافة الى ضمير العبد فيكون المعنى فأما من أوتي كتابه فأخذه أو تناوله بيمينه فكأنه يقول فأما من عرض عليه كتابه وقدم اليه سجل أعماله فتناوله بيمينه فأمره كيت وكيت ومن يتناول شيئاً بيمينه يكون قد توجه اليه بعزمه واندفع نحوه بقوة نفسه بخلاف من يتناول ما يعطاه ويأخذه بيساره فإن مد اليسار اليه دليل كراهته له وأظهر في الدلالة على الكراهة والنفور مما يعرض عليه أن يستدبره ويعرض عنه فيكون وراء ظهره فمعنى آية الحاقة والاية التي نحن بصددھا فأما من عرض عليه كتابه وقدم اليه ليأخذه فاندفع اليه بعزيمة نفسه لشعوره بانه مستودع الصالحات وسجل البر والمكرمات فشأنه كذا وأما من قدم اليه كتابه وعرض عليه عمله فحزيت نفسه وخارت عزيمته فمد اليه يساره لعله لا يستطيع ضبطه فيسقط منه فلا يرى ما فيه أو يعرض عنه فيؤليه ظهره لشعوره بانه ديوان السيئات وسجين المخازي فأمره كيت وكيت ويرشد الى ذلك ماورد من التفصيل في سورة الحاقة فانه قال « فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرؤا كتابيه انى ظننت انى ملاق حساييه » ودعوة الناس الى القراءة دليل الفرح والنشاط وقوة العزيمة « وأما من أوتي كتابه بشماله فيقول ياليتنى لم أوت كتابيه ولم أدر ما حساييه يليتھا كانت القاضية ما أغنى عنى ماله هلك عنى سلطانيه » وهذا قول المخذول الكاره لما عرض عليه فايئاء الكتاب بالمبين أو باليسار أو وراء الظهر تمثيل وتصوير لحالة المطلع على أعماله في ذلك اليوم فمن الناس من اذا كشف له عمله ابتهج واستبشر وهو التناول بالمبين ومنهم من اذا تكشفت له سوابق أعماله عبس وبسر وأعرض عنها وأدبر وتغنى لو لم تكشف له وهذا هو التناول باليسار أو وراء الظهر وبهذا اتفق المعنيان في الآيتين ولم تبق حاجة الى الجمع بين الشمال ووراء الظهر باختراع معنى لا يليق بكتاب الله كما جرى عليه كثير من المفسرين (انه ظن أن لن يحور) أى رجح في حكمه أنه لن يرجع الى ربه فيحاسبه على ما يقترب

بَلَىٰ إِنْ رَبُّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ

من ذنبه أو يثبته على الأفضل من كسبه وفي الآية شهادة بأن المسخرين لشهواتهم وأهوائهم في أعمالهم لا يمكن أن يكونوا ظانين فضلا عن كونهم موقنين بأنهم يرجعون إلى الله ليحاسبهم بل الراجح عندهم أنهم لا يحاسبون أو أن الله مخلف وعده وهذا هو الذي ينسيهم ذكره عند كل جرم يجرمونه فهم وإن كانوا يزعمون الإيمان بالله وبوعده ووعيده يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم ويبتلون دائماً بسوء الخاتمة والعياذ بالله (بلى) إيجاب لما بعد النفي في لن يحور أى بلى ليحورن وليرجعن إلى ربه وليحاسبن على عمله فيجزى عليه الخير بالخير والشر بالشر ثم علل ذلك بقوله (إن ربه كان به بصيراً) والبصر بالشيء تمام العلم به نشأة وغاية والذي يخلق الإنسان مستعداً لما لا يتناهى من الكمال بما وهبه من العقل الذي لا يقف عند حد في العلم وارسال أشعة الفهم إلى أسرار الكائنات ودقائق الموجودات لا ينشئه هذه النشأة الرفيعة لتكون غايته غاية سائر الحيوان ممن لم يعط استعداد هذه ولم يمد أمداده بل تقضى حكمته في هذا الخلق العظيم أن يجعل له حياة بعد هذه الحياة يستثمر فيها أعماله ويوافي فيها كماله ولو أنه أسدى إلى الإنسان من المواهب ما أسدى ثم تركه بعد ذلك سدى لم يكن ذلك إلا من عمل الجزاف الخالى من البصر والحكمة بل من العدل والانصاف وهذا الذي فسرنا به هو الأليق بنسق الكلام دون الذي سبقنا إليه بعض قصار الافهام ولتأكيد ذلك أقسم الله بآيات له في الكائنات ظاهرات باهرات ليدل على عظم شأنه في وضع الكون عليها وقد تقدم أن « لا أقسم » عبارة من عبارات القسم والشفق النهار في رأى الزجاج وبقية ضوء الشمس والحرمة من غروب الشمس إلى وقت العشاء الآخرة عند غيره والنهار زمان يسعى فيه الكاسبون لتحصيل أرزاقهم والأبرار يشغلونه بإصلاح أحوالهم وأحوال غيرهم وتكديلاً وعمولهم وأخلاقهم ففيه الشفق وهو الخوف من الاخفاق فيجدر أن يسمى شفقاً وما يبقى في الافق من الحرمة وقليل من البياض يندرك بليل لا تدرى ما يكون فيه فله من مسمى الشفق وهو الخوف نصيب ووسق أى ضم وجمع ولا يخفى عليك أن ما انتشر بالنهار يجتمع بالليل حتى

وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ لَتَرَكَبْنِ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ قَالَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ
وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ

ان جناحيك اللذين تمدهما الى العمل بياض النهار تضمهما الى جنبك للراحة سواد الليل والغادون في النهار يروحون بالليل والليل يضم الامهات الى أفرأخها ويرد الساعات الى مناخها وبالجملة كل مانشره النهار بالحركة يضمه الليل ويجمعه بالسكون « وجعل الليل سكناً » واتساق القمر تمامه واجتماع نوره ليلة أربع عشرة أو ليلة ثلاث عشرة وأربع عشرة وخمس عشرة ولا يخفى ما للناس من المنافع في هذه الامور الثلاثة التي اقسام الله بها وما فيها من الايات الناطقة بحكمة واضع نظامها فهي جدرة أن يتسم الله بها لينبه الغافلين الى ما أودع فيها (لتركبن) قرئ بفتح الباء خطاب للانسان وبضمها خطاب للناس (والطبق) عند ابن الاعرابي الحال على اختلافها وقال الزجاج في معنى الآية لتركبن حالا بعد حال حتى تصيروا الى الله والاحوال هي الاحياء الاول ثم الاماتة ثم البعث وقد قارب الزجاج في تفسيره وأصل المادة « طبق » فيها المطابقة والمساواة والمعنى الذي يعول عليه لتركبن حالة بعد حالة على أن الحالة الثانية تطابق الحالة الاولى أى لتكونن في حياة أخرى تماثل هذه الحياة التي أنتم فيها وتطابقها من حيث الحس والادراك والألم واللذة على الاطلاق أى أنها حياة حقيقية وان خالفت في بعض شؤونها هذه الحياة الاولى (١) فاذا كان الله قد خلق الانسان على أن تكون له حياتان وقد أقام الدليل على ذلك من طريقة تكوينه ثم أقسم عليه في صادق كلامه (فما لهم لا يؤمنون واذا قرئ عليهم القرآن) وهو المنبه لسماع حديث الفطرة الصارف الى داعي الفريضة (لايسجدون) لا يستكينون ولا يخضعون لا تظن أن قرع القرآن لم يكسر أغلاق قلوبهم ولم يبلغ صوته أعماق ضمائرهم بلى قد بلغ وأقنع فيما بلغ ولكن العناد هو الذي يمنعهم عن الايمان ويصددهم عن الاذعان فليس منشأ التكذيب قصور الدليل وانما هو تقصير المستدل

(١) هذا دخول على قوله تعالى فما لهم لا يؤمنون وهو بمنزلة التفسير لمضى الفاء اه منه

بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْذِبُونَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ فَبَشِّرْهُمْ
بِعَذَابٍ أَلِيمٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ
مَمْنُونٍ

سورة البروج مكية وهي ثمان وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ

واعراضه عن هدايته فالاضراب في قوله (بل الذين كفروا يكذبون) يرمى الى محذوف من القول يدل عليه السابق واللاحق (والله أعلم بما يوعون) أى بما يجمعون في صدورهم من الاعراض والجحود والحسد والبغى (فبشرهم بعذاب أليم) جزاء لهم على اعراضهم عن الأدلة القائمة لهم من أنفسهم ومن بين أيديهم واصرارهم على سبى العمل وفاسد الاعتقاد أما الذين أصلحوا اعتقادهم بالايان الصادق القدام على الدليل الصحيح المستمد من الوجدان الفطرى واستقاموا في عملهم على النهج الواضح في العمل الصالح فلهم أجر لا ينقطع فلاستثناء في (الا الذين آمنوا) منقطع كأنه قال لكن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر الخ ولهذا جاء قوله لهم أجر بغير فاء وغير ممنون أى غير مقطوع والله أعلم

(البروج) جمع برج يطلق في اللغة على الحصن وعلى القصر وعلى البروج الاثني عشر التي ترى صورها في الاشكال الحاصلة من اجتماع بعض الكواكب على نسب خاصة وتنتقل فيها الشمس في ظاهر الرؤية رهى ستة في شمال خط الاستواء وستة أخرى في جنوبه فأما التي في شماله فهى الحمل والثور والجوزاء وهذه الثلاثة تقطعها الشمس في ثلاثة أشهر وهى فصل الربيع أوله عند ما تكون الشمس في الحمل في ٢٠ مارث أو ٢١ مارث أو ١٢ برمهات أو ١٣ برمهات وتنتهى عند ما تكون في آخر الجوزاء في ٢٠ أو ٢٢ يونيه و ١٤ بؤنه ثم تبتدىء أشهر الصيف

وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ

من ٢١ أو ٢٢ يونيه عند ما تدخل الشمس في برج السرطان ثم تنتقل الى الأسد ومن الأسد الى السنبلة وتكون في نهاية هذا البرج في ٢٢ سبتمبر وهو آخر فصل الصيف وبالسنبلة تم الستة الشمالية وأول الستة الجنوبية برج الميزان وبحلول الشمس فيه يبتدىء الخريف في ٢٣ أو ٢٤ سبتمبر و١٤ توت ثم تنتقل منه الى العقرب ومن العقرب الى القوس وفي نهايته ينتهي الخريف ويبتدىء الشتاء عند حلول الشمس في برج الجدى في ٢٢ أو ٢٣ ديسمبر و١٣ أو ١٤ كيهك ثم تصعد منه الى الدلو ومن الدلو الى الحوت وهو آخر البروج الجنوبية وفي نهايته ينتهي الشتاء ويبتدىء الربيع الثاني عند حلول الشمس في الحمل مرة ثانية وهكذا وقد فسرت البروج في الآية بالنجوم وبالبروج المذكورة وبالتصور على التشبيه ولا ريب في أن النجوم أبنية فخيمة عظيمة فيصح إطلاق البروج عليها تشبيهاً لها بما يبني من الحصون والقصور في الارض (واليوم الموعود) هو يوم القيامة لأن الله وعده به ولما نصل اليه والشاهد والمشهود كل ماله حس يشهد به وكل محس يشهد بالحس كما هو حقيقة معنى اللفظ أقسم سبحانه أولاً بما فيه غيب وشهود وهو السماء ذات البروج فان كواكبها مشهود نورها مرئي ضوءها معروفة حركاتها في طلوعها ومغيبها بحس البصر والسماء ماعلاك مما تسميه بهذا الاسم وفيه البروج تشاهدها ولكن فيها غيب لا تعرفه بالحس وهو حقيقة الكواكب وما أودع الله فيها من القوى وما أسكنها من الملك أو غيره كل ذلك غيب لا تدركه حواسنا وان وصل الى الاعتقاد بشيء منه عقلنا ثم أقسم جل شأنه بما هو غيب صرف وهو اليوم الموعود لأنه أخبرنا بأنه سيكون وعمما يكون فيه من حوادث البعث والحساب والعقاب والثواب ولكن شيئاً من ذلك لا يمكن أن نشهده في حياتنا هذه وبعد ذلك أقسم بما هو شهادة صرفة وهو الشاهد أي صاحب الحس فانه مرئي والمشهود وهو ما وقع عليه الحس فكانه جل شأنه أقسم بالعوالم كلها مع هذا التقسيم البديع ليلفتك الى ما فيها من العظم والفخامة لتعتبر بما حضرك وتبذل الوسع في درك ما استتر عنك وتستعد لما يستقبلك روى عن الحسن في تفسير قوله وشاهد ومشهود أنه قال « مامن يوم الا وينادي اني يوم جديدواني على ما يعمل في شهيد

قَتَلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ النَّارِذَاتِ الْوَقُودِ إِنَّهُمْ عَلَيْهَا قُودٌ
وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ
يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ

فاغتنمني فلو غابت شمسى لم تدركنى الى يوم القيامة» أما المقسم عليه فمحذوف دل عليه ما يذكره في قوله (قتل أصحاب الاخدود الح) وحذفه لطوله مع تبادره للذهن عند أهل اللسان فكانه قال أقسم بهذا الكون العظيم وبذلك اليوم الذى يهلك فيه ما يهلك ويقوم الناس لرب العالمين لقد ابتلى من قبلكم من المؤمنين الموحدين ببطش أعدائهم واشتدادهم فى ايدائهم حتى خدشوا لهم الاخايد وملؤها بالنيران وقذفوهم فيها ولم تأخذهم بهم رافة بل كانوا يتشفون برؤية ما يحل بالمؤمنين وأقسم لقد صبروا ولقد انتقم الله ممن أوقع بهم وأخذه بذنبه أخذ العزيز المقتدر ولئن صبرتم ليوفينكم أجركم وليأخذن الله أعداءكم ولينزلن بهم من بطشه ما لا قبل لهم به فهذا كله قد فهم من الآيات الآتية جواباً للقسم وقد أقام مقام الجواب حكاية مثل الماضين ووعيده للكافرين ووعده للصالحين وما بعد ذلك تثبيتاً لقلوب المؤمنين وحملات لهم على الصبر والمجاهدة فى سبيله (الأخدود) الخد فى الارض وهو الشق وقتل أصحابه أى أخذوا بذنوبهم ونزل بهم نكال الدنيا وعذاب الآخرة وأصحاب الأخدود قوم كفرون ذوو بأس وقوة أصابوا قوماً مؤمنين غاظهم إيمانهم فحملوهم على الكفر واكروهوهم أن يرتدوا اليه فأبوا فشقوا لهم شقاً فى الارض وحشوه بالنار وجاءوا بالمؤمنين واحداً واحداً والقوهم فى النار وهؤلاء القساة قعود على جوانب الشق حول النار يشاهدون احتراق الاجساد الحية وما تفعل بها النيران فقوله (النار) بدل من الاخدود أى أن أصحاب الاخدود هم أصحاب النار ذات الوقود أى الشديدة لها من الحطب الكثير ما يشتد به لهبها (والقعود) جمع قاعد أى قاعدون حولها ينظرون الى ما يصلاهم المؤمنون لا يغمضون جفناً ولا يصرفون نظراً حتى كأنهم يريدون أن يستثبتوا فى أذهانهم أطوار العذاب ووقائعه ليؤدا به شهادة وذلك منتهى القسوة (وما نقموا منهم) أى ما عابوا

الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ

عليهم ولا كان للمؤمنين ذنب اليهم سوى أنهم آمنوا بالله (العزیز) الذي لا تغلب قوته ولا يفلت أحد من قدرته (الحميد) الذي يحمي على كل حال وكل فعالة حسان حتى لو أصابك وأنت مؤمن به ما ظاهره النعمة فهو اما تهذيب لك ليربيك بالصبر أو ابتلاء لقلبك ليعظم لك فيه الأجر أما تعيين أصحاب الا حدود وأنى كانوا ومن هم أولئك المؤمنون وأين كان منزلهم من الارض فقد كثرت فيه الروايات والا شهر أن المؤمنين كانوا نصارى نجران عند ما كان دينهم دين توحيد ليس فيه حدث ولا بدعة وأن الكافرين كانوا أمراء اليمن أو اليهود الذين لا يبعدون عن هؤلاء في حقيقة الوثنية غير أن المؤمن لا يحتاج في الاعتبار واشعار الموعظة قلبه الى أن يعرف القوم والجهة وخاصة الدين الذين كان عليه أولئك أو هؤلاء حتى يطير وراء القصص المشحونة بالمبالغات والاساطير المحشوة بالخرافات وانما الذي عليه هو أن يعرف من القصة ما ذكرناه أولا ولوعلم الله خيراً في اكثر من ذلك لتفضل علينا به وقال (الذي له ملك السموات والارض) ليدل على أنه لا مفر لأولئك الظالمين من سلطانه وقوله (والله على كل شيء شهيد) ليقرر أنه عليم بكل ما يكون من خلقه فلا تخفى عليه خافية من أفعالهم وهو مجازيهم عليها (فتنوا المؤمنين) أى بلوهم بالاذى وامتنحنوهم بالتعذيب ليردوهم عن دينهم (ولهم عذاب الحريق) معطوف على قوله فلهم عذاب جهنم عطف التفسير والتوضيح مع التأكيذ وزيادة التهويل كما تقول لمن قرف ذنباً ستلقى ما يستحقه جرمك وستلقى حبساً في السجن وغلا بالحديد فالعذاب الذي أعد لهم في جهنم هو عذاب الحريق والذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يكفوا عن ايدائهم وثبتوا على كفرهم وعنادهم حتى أخذهم الموت وأوعدهم الله أن يعذبهم في جهنم بالحريق هم الضالون من كل قوم الذين يؤذون أهل الحق والدعاة اليه من كل أمة حرصاً على ما ألفوا من الباطل

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ إِنَّهُ هُوَ
يُبْدِي وَيُعِيدُ وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ فَقَالَ لِمَا
يُرِيدُ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ فِرْعَوْنُ وَثَمُودُ

وتشيعاً للذي وجدوا عليه أنفسهم وآباءهم الأقرين على غير بصيرة ولا استشارة
للعقل الصحيح . البطش الأخذ بالعنف وقوله ان بطش ربك الخ تعظيم لأمر الله
جل ذكره بما فيه وعيد لأعدائه وتعزية لأوليائه فذكر شدة بطشه ليرهب
قريشاً ومن معها ويعزى النبي صلى الله عليه وسلم ومن معه وبرهن على سعة
القدرة بقوله انه هو الذي بدأ الخلق وهو الذي يعيده وهو في كل يوم يبدى خلقاً من
نبات وحيوان وغيرهما ثم اذا هلك أعاد الله خلقه مرة أخرى ثم هو يعيد الناس
في اليوم الآخر على النحو الذي يعلمه ثم هو الغفور لمن يرجع اليه بالتوبة وهو
الودود لمن خلصت نفسه له بالمحبة وذو العرش أى صاحب العظمة والسلطان
والمجيد السامى الرفيع وأصل المجد فى كلام العرب الشرف الواسع (فعال) خبر
لمبتدا محذوف وهو من صيغ المبالغة أى أنه كثير الفعل لما يريد فلا يريد شيئاً
الا فعله طبق ارادته فاذا أراد اهلاك الجاحدين الماحكين ونصر أهل الحق
الصادقين لم يعجزه ذلك وأين هؤلاء ممن سبقهم ممن كانوا أضل منهم وأشد قوة
(هل أتاك حديث الجنود) أى هل بلغك قصص أولئك الجنود وأولى البأس من
الاشداء الاقوياء مثل فرعون وقومه وثمود وأبطالها فقد كانوا أشد بأساً وأعظم
قوة من قومك ومع ذلك فقد أخذهم الله بذنوبهم وهكذا كل من تعلق بالباطل سقط
به الباطل فى الدمار وثمود قبيلة عظيمة من بائدة العرب لا يعرف من أخبارها على
الحقيقة الا ما قص الله علينا منها وقد أرسل الله اليها نبيه صالحاً فكفرت به
واستمرت فى تمردها على الحق والعدل حتى أهلكتها الله بظلمها فقوله هل أتاك
حديث الجنود استئناف قول فى ذكر عبر ماضية لو نظر فيها العاقل لاهتدى الى
سنن الله فى خلقه فهل نظر منكرو أمره عليه الصلاة والسلام فى سير من قبلهم

بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبِ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ

والتفتوا ببصائرهم الى حال من تقدمهم ثم أقبلوا على ما يذكركم به فان وجدوا خيراً قبلوه وان وجدوا شراً نبذوه . لا . لم يكن منهم شيء من ذلك بل انحصر أمر أولئك الذين كفروا في التكذيب أى أنهم غرقوا في شهوة التكذيب فغمروا التكذيب والولوع به حتى لم يدع لعقلهم مجالاً انظر أو متسعاً للتدبر ولا يزالون في تلك الغمرة حتى يؤخذوا على غرة (والله من ورائهم محيط) تمثيل لحالهم مع القهر الالهى وأنهم في قبضة العزة لا يفلتون منها ولا يفوتون الله ولا يعجزونه كما لا يفوت الشيء ما يحيط به (بل هو قرآن مجيد) أى شريف رفعه على غيره علو أسلوبه وخلوص ما فيه للحق الذى لا يشوبه باطل واتيانه بالجملة مصحوبة بحرف الاضراب يشير الى ما أشعر به استغراقهم في التكذيب من التماسهم العذر في عدم الايمان به من أنه أساطير الاولين وان ماجاء به بدعة في الدين لم يعرفها آباؤهم السابقون فدفع ذلك بقوله بل هو الخ واللوح المحفوظ شيء أخبر الله به وأنه أودعه كتابه ولم يعرفنا حقيقته فعلينا أن نؤمن بأنه شيء موجود وأن الله قد حفظ فيه كتابه ايماناً بالغيب وأما دعوى أنه جرم مخصوص في سماء معينة ووصفه بما جاء في روايات مختلفة فهو مما لم يثبت عن المعصوم صلى الله عليه وسلم بالتواتر فلا ينبغي أن يدخل في عقائد أهل اليقين من المؤمنين وما أجدرنا لو أردنا التأويل بأن نأخذ بما قيل من أن اللوح المحفوظ هو لوح الوجود الحق ومعانى القرآن وقضاياه الشريفة لما كانت لا يأتيناها الباطل ولا يدانيها الخطأ كانت ثابتة في لوح الواقع المحفوظ الذى لاحق الا ما وافقه ولا باطل الا ما خالفه ولا باقى الا مارسم خيه ولا ضائع الا ما لم ينطبق عليه

سورة الطارق مكتة وهي سبع عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ النِّجْمُ الثَّاقِبُ
إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَنَا عَلَيْهَا حَافِظٌ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ

(والسما والطارق وما أدراك ما الطارق النجم الثاقب) يقسم سبحانه بالسما وقد قانا أنها كل ماءلانا فهو قسم بالعالم العلوى وما فيه ثم خصص بعض ما فى ذلك العالم السماوى وأقسم بالطارق والطارق عندهم كل ماأناك ليلا ولما كان اللفظ عاماً والمقسم به كائن معين وشىء خاص مما يصدق عليه الطارق أراد أن يبين ما قصد منه بما يدل على تفخيم أمره وتعظيم شأنه فقال (وما أدراك ما الطارق) وهو استفهام يقصد به فى عرف خطابهم تعظيم المستفهم عنه كأنه فى نخامة شأنه مما لا يمكن احاطة الادراك به فيقال وما الذى يدريك ما هو كذا والنجم الثاقب جنس النجم الذى يثقب ضوءه الظلماء كأن الظلام جلد أسود والنجم يثقبه وانما عظم الله أمره لما فيه من الهداية الحسية والمعنوية والشؤون الأخرى التى يلمها الله ويعلمها الراسخون فى علوم أسرارهِ فى خايقته وانما سمي النجم الثاقب بالطارق لأنه لا يظهر الا ليلا وضوء الشمس فى النهار يخفيه (ان كل نفس لما عاها حافظ) قرئ لما بالتشديد ولما بالتخفيف والمشددة بمعنى الا وان معها تكون نافية والمخففة مركبة من اللام وما الزائدة فى الاعراب ان كانت لمعنى التأكيد وتكون ان مخففة من ان وعلى كلتا القراءتين فالمعنى أن كل نفس عاها حافظ ورقب يراقها فى جميع أطوار وجودها حتى تنتهى الى أجلها وذلك الحافظ الرقيب هو الله وهذا هو المقسم عليه فالله جل شأنه يقسم لنا أن كل نفس من الا نفس عاها رقيب وليس فى النفوس نفس أهملت من رعاية ذلك الرقيب المدبر لشؤونها فاذا ارتاب مرتاب فى ذلك (فلينظر الانسان مم خلق الخ) فقله فلينظر الانسان بمنزلة الدليل على الدعوى المقسم عاها زياده فى التأكيد ووجه ذلك أن الماء الدافق

خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ

من المائع الذي لا تصوير فيه ولا تقدير للآلات التي يظهر فيها عمل الحياة كالأعضاء ونحوها ثم أن هذا السائل ينشأ خلقاً كاملاً كالإنسان مملوءاً بالحياة والعقل والادراك قادراً على القيام بخلافته في الأرض فهذا التصوير والتقدير وإنشاء الأعضاء والآلات البدنية وإيداع كل عضو من القوة ما به يتمكن من تأدية عمله في البدن ثم منح قوة الادراك والعقل كل هذا لا يمكن أن يكون بدون حافظ يراقب ذلك كله ويدبره وهو الله جل شأنه ويجوز أن يكون قوله فليُنظر الإنسان مم خلق من قبيل التفريع على ما ثبت في القضية الأولى كأنه يقول فاذا عرفت أن كل نفس عليها رقيب فمن الواجب على الإنسان أن لا يهمل نفسه وأن يتفكر في خلقه وكيف كان ابتداء نشوئه ليصل بذلك إلى أن الذي أنشأه أول مرة قادر على أن يعيده فيأخذ نفسه بصالح الأعمال والاخلاق ويعدل بها عن سبل الشر فان عين الرقيب لا تغفل عنها في حال من الأحوال والصلب هو كل عظم من الظهر فيه فقار ويعبر عنه في كلام العامة بسلسلة الظهر وقد يطلق بمعنى الظهر نفسه إطلاقاً لاسم الجزء على الكل والترائب موضع القلادة من الصدر وكنى بالصلب عن الرجل وبالترائب عن المرأة أي أن ذلك الماء الدافق إنما يكون مادة لخلق الإنسان إذا خرج من بين الرجل والمرأة ووقع في المحل الذي جرت عادة الله أن يخلقه فيه وهو رحم المرأة فقوله (يخرج من بين الصلب والترائب) وصف لا بد من ذكره لبيان أن الإنسان إنما خلق من الماء الدافق المستوفي شرائط صحة الخلق منه .

بعد ما لفت الإنسان ووجه نظره إلى بدء نشأته ليعلم أنه في أطوار خلقته ومدة بقائه في قبضة مدبر حفيظ عليه ساقه إلى نتيجة أخرى لذلك النظر يسهل الوصول إليها بعد أحكامه وهي أن الذي قدر على خلقه من الماء الدافق الذي لا صورة فيه ولا تقدير ولا مثال فيه للشخص المخلوق قادر على أن يرجع هذا الشخص بعد موته بل هذا أسهل وأيسر لسبق مثال الشخص وتقدم صورته في الخلق الأول فقال سبحانه

إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ يَوْمَ تَبْلَى السَّرَائِرُ فَمَالَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ
وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ إِنَّهُ لَقَوْلُ فَضْلٍ
وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ

(انه على رجعه لقادر يوم تبلى السرائر) فهذه الآية استئناف كلام لبيان نتيجة من نتائج النظر السابق أى اعلم بعد ما أحكت نظرك أن الله قادر على ارجاعك واعادتك الى الحياة فى ذلك اليوم يوم القيامة وهو اليوم الذى تبلى فيه السرائر وتتصفح الضمائر ويظهر الطيب والخبث فلا يبقى فى سريرة سر بل تنقلب كل خفية الى الجهر فلا يكون جدال ولا حجاج ولا يستطيع المسمى أن يقول قد كنت محسناً ولا يبقى لذوى الاعمال الا انتظار الجزاء على ما قدموا فأما حلول عتاب واما مصير الى حسن ثواب ولا تكون لأحد قوة على الافلات مما قدر له جزاء لعمله ان كان مسيئاً ولا ناصر ينصره فيحميه مما حتم عليه أن يقع فيه وهذا هو معنى ترتيب قوله (فماله من قوة ولا ناصر) على قوله يوم تبلى السرائر .

بعد أن أكد سبحانه بالقسم الاول أن على النفس رقيباً واستدل عليه وذلك اثباتاً للألوهية وتقريراً لاحاطة علم الله وقدرته بالأنفس فى جميع أطوارها وهو الركن الاول من أركان عقائد الدين وبعد أن بين قدرته على إعادة الانسان بعد موته وهو اثبات لليوم الآخر الذى هو الركن الثانى جاء بنا الى الركن الثالث من أركان عقائد الدين وهو رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فابتدأ الكلام فيه بقسم أيضاً لشدة نزاع الجاحدين فيها حيث قال (والسماء ذات الرجوع الخ)

ان الله يقسم بالامر له مزية يعرفها المخاطب اعظماً لتلك المزية لهذا قال والسماء ذات الرجوع الرجوع فى لسان العرب هو الماء وأمتع شئ ينتظره المخاطبون من السماء هو الماء ماء المطر ومن فسر الرجوع بالمطر لم يبعد عن المعنى والصدع النبات لأنه يصدع الارض أى يشققها وأفضل ما تميل اليه الأنفس من الارض نباتها . أقسم بالسماء التى تفيض عليكم بمائها والارض التى تقيم معاشكم

إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا وَأَكِيدُ كَيْدًا فَمَهْلِكَا كَافِرِينَ أَمْهَلُهُمْ ذُرُودًا

بنباتها ان هذا القول الذى جاءكم به محمد صلى الله عليه وسلم لقول فصل أى حق واضح لا مجال للريب فيه فلا تشتبك فيه الظنون ولا تتلاحم الأوهام ولا يعود اليه نقض وهو لذلك جد الجد فلا يكون هزلاً

بعد أن بين الأركان الثلاثة لعقائد الدين وهى الألوهية والمعاد والرسالة أخذ يذكرنا بحال الجاحدين للحق المحاربين له بقوله (إنهم يكيدون كيداً) الكيد المكر فاذا اسند الى الله للمشاكلة كما فى هذه الآية أريد منه لازمه وهو الوصول بالعامل الى عاقبة عمله من حيث لا يشعر بها وقد يكون المكر والكيد ايقاع المكره على غرة وأخذ الممكور به من حيث لا يعلم كيف اخذ فيكون استعماله فى جانب الحق على الحقيقة لأن الله يمهل الحائدين عن أمره الصادين عن سبيله ثم يأخذهم وهم نائمون على فراش الأمن وهذا هو ما يعبر عنه فى اللغة بالمكر وان كان فى جانب الخلق يحتاج الى حيلة لأنه لا قوة له على مثل هذا الاحيلة وفى جانب الخالق يتبرأ من الحيلة لأنه جل شأنه له الحول كله والقوة جميعها يقول والله أعلم ان الذين يحرضون على ما كانوا عليه ولا يستمعون قولك فيما تدعوهم اليه ويزينون للناس مشايعتهم على أهوائهم ويموهون الأباطيل ليخدعوا بها عقولهم أولئك قوم ما كرون خادعون لا يريدون بك ولا بمن ينخدع لهم الا السوء غير أنى قد قضيت بأن لا مفر لهم من عاقبة أمرهم ولا محيد لهم عما تؤدى اليه سيئات أعمالهم فيصيبهم العقاب من حيث لا يشعرون فلا يحزنك ما ترى منهم ولا تستبطئ حلول النكال بهم بل مهلم أى لا تستعجل عقابهم وأمهلم بمعنى مهلم فهو بدل منه للتأكيد أو تكرير بلفظ آخر للتأكيد كذلك رويده أى قليلا وفى ذلك وعيد شديد لهم بأن ما يصيبهم قريب سواء كان فى الحياة الدنيا أو فيما بعد الموت ثم فيه الوعد للنبي صلى الله عليه وسلم بل لكل داع الى الحق الذى جاء به أنه سيبلى من النجاح ما يستحقه عمله وان المناوئين له هم الخاسرون

سورة الأعلى كيت وهى تسع عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى
 وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى

(سبح اسم ربك الأعلى) اسم الله فى مثل هذه الآية هو ما يعرف به والله انما يعرف لنا بصفاته فلا تعرفه أذهاننا الا بأنه العالم القادر الحكيم الى آخر ما دلنا عليه النظر فى خلقه وهدانا اليه الوجدان السليم فى وصفه وهذا هو الاسم الذى يوصف بأنه ذو الجلال والاكرام فى قراءة من قرأ فى سورة الرحمن (تبارك اسم ربك ذو الجلال والاكرام) والاسم بهذا المعنى «ما يعرف به المسمى» هو الوجه فى قوله تعالى «ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام» فان الوجه يعرف به صاحبه بل لا يكاد يعرف صاحب الوجه الا بوجهه والاسم بهذا المعنى هو المذكور فى قوله تعالى «وعلم آدم الأسماء كلها» أى رسوم الاشياء وما تعرف الاشياء به فاسم الله هو ما يمكن لأذهاننا أن تتوجه اليه به والله يأمرنا بتسبيح هذا الاسم أى تنزيهه عن أن يكون فيه ما لا يليق به من شبه المخلوقات أو ظهوره فى واحد منها بعينه أو اتخاذه شريكاً أو ولداً أو ما ينحو هذا النحو فلا نوجه عقوانا اليه الا بأنه خالق كل شئ المحيط علمه بدقائق الموجودات كما قال (الذى خلق فسوى) فعليما أن نعرفه بأنه خلق الكائنات وأوجدناها وسواها أى وضع خلقها على نظام كامل لا تفاوت فيه ولا اضطراب كما تراه فيما يظهر لك من خلق السموات والارض وأنه الذى قدر فهدى أى قدر لكل حى ما يصلحه مدة بقائه وهداه اليه وعرفه وجه الاتفاع بما فيه منفعة له ووجه الهرب مما يخشى غائلته وأنه الذى أخرج المرعى أى أنبت النبات جميعه وما من نبت ينبت الا وهو يصلح أن يكون مرعى لحىوان ما من الاجناس الحية ثم بعد ان أنبت النبات جعله غناء أحوى والغناء هو الهشيم

أو الهالك البالي والاحوى الذى يميل لونه الى السواد . ذكر بعد اخلق التسوية
وبعد تقدير المصالح وتحديد هداية والتسوية والهداية كمالان للخلق والتقدير
وأُتبع اخراج المرعى بجعله غشاء أحوى وجعله غشاء انما هو افناؤه واماتته وازالة
الحياة عنه وكان يلوح للذهن أن يعقب اخراج النبات بذكر كمال من كمالات
وجوده كالنضرة والخضرة والترعرع وما أشبه ذلك جاء الاسلوب على هذا الوجه
لان اخلق الاول عام فى الاجسام الفانية وفى العوالم الباقية كعوالم ما وراء هذه
الخليقة الدنيا فكله من خلقه وكاه قد سواه ووضع على أكمل نظام فى الدنيا
وفيما وراءها والتقدير لمصالح الأحياء عام شامل لما للانسان بل ولما لغيره من
عالم الملك ونحوه فملك العوالم الروحية حياة وحياتها شؤون مقدرة قدرها
مبدعها وهداية الانسان انما هى لروحه الباقية التى لا تقنى وكذلك هداية
الارواح العالية من سكان تلك العوالم التى لا نعرف منها الا ما هداها اليه الوحي
وقد لا مما أرشدنا اليه العقل هداية باق الى شؤون باقية الى أن يشاء الله فحق
أن يتبع اخلق بالتسوية التى لا تفارقه ولا نهاية لها وتقدير المصالح اكل حى
بالهداية التى منها ما لا نهاية له كهداية الانسان وما يشبهه أما النبات فانما يعقب
نموه وبلوغه الغاية منه اليبس والجفاف وصيرورته هشياً بالياً وهو فى هذه الحالة
لا يخلو من المنفعة فانه قد يكون طعاماً لكثير من انواع الحيوان وهو هشيم
متغير اللون فكانه قال الذى أحكم كل شىء صنعه ما يبقى وما يفنى

فنحن مأمورون أن نعرف الله جل شأنه بانه القادر العالم الحكيم الذى شهدت
بصفاته هذه آثاره فى خلقه التى ذكرها فى وصف نفسه فى قوله الذى خلق
فسوى الخ وأن لا ندخل فى هذه الصفات معنى مما لا يلىق به كما أدخل الملحدون
الذين اتخذوا من دونه شركاء له أو عرفوه بما يشبه به خلقه وانما توجه الينا
الامر بتسبيح الاسم دون تسبيح الذات ليرشدنا الى أن مبلغ جهدنا ومنتهى ما اتصل
اليه عقولنا أن نعرف الصفات بما يدل عليها أما الذات فهى أعلى وأرفع من أن
تتوجه عقولنا اليها الا بما نلاحظ من هذه الصفات التى تقوم عليها الدلائل وترشد
اليها الآيات لهذا أمرنا بتسبيح اسمه تكليفاً لنا بما يسهه طوقنا والله أعلم
بعد ان أمر الله نبيه بتسبيح اسمه وعلم أمته المأمورة بأمر الله له كيف يمكنها أن
تعرف الاسم الذى تسبحه على نحو ما ذكرنا وعد نبيه صلى الله عليه وسلم بانه

سُنْقَرُكَ فَلَا تَنْسَى إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى

سَيَقْرَأُ مِنْ كِتَابِهِ مَا فِيهِ تَنْزِيهِ اللَّهِ وَتَبْيِينُ مَا أَوْجَبَ أَنْ يَعْرِفَ مِنْ صِفَاتِهِ وَمَا فِيهِ تَشْرِيعٌ لِأَحْكَامِهِ وَوَعْدُهُ بِأَنْ مَا يَقْرَأُ إِيَّاهُ لَا يَنْسَاهُ فَقَالَ (سُنْقَرُكَ فَلَا تَنْسَى) أَيْ سَنَنْزِلُ عَلَيْكَ كِتَابًا تَقْرَأُ وَلَا تَنْسَى مِنْهُ شَيْئًا بَعْدَ نَزُولِهِ عَلَيْكَ وَلَمَّا كَانَ الْوَعْدُ عَلَى وَجْهِ التَّأْيِيدِ وَاللِّزُومِ رَبَّمَا يُوْهِمُ أَنْ قُدْرَةَ اللَّهِ لَا تَسْعُ تَغْيِيرَهُ وَأَنْ ذَلِكَ خَارِجٌ عَنْ أَرَادَتِهِ جَلَّ شَأْنُهُ جَاءَ بِالْإِسْتِثْنَاءِ فِي قَوْلِهِ (إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ) فَأَنَّهُ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَنْسِيَكَ شَيْئًا لَمْ يَعْجِزْهُ ذَلِكَ فَالْقَصْدُ هُوَ إِلَى نَفْيِ النِّسْيَانِ رَأْسًا وَقَالُوا إِنْ ذَلِكَ كَمَا يَقُولُ الرَّجُلُ لِصَاحِبِهِ « أَنْتَ سَهِيمِي فِيمَا أَمْلَأُكَ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ » لَا يَقْصِدُ إِسْتِثْنَاءَ شَيْءٍ وَهُوَ مِنْ اسْتِعْمَالِ الْقَلَّةِ فِي مَعْنَى النَّفْيِ وَعَلَى ذَلِكَ جَاءَ الْإِسْتِثْنَاءُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ هُودٍ « وَأَمَّا الَّذِينَ سَعَدُوا فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرُ مَجْذُودٍ » أَيْ غَيْرُ مَقْطُوعٍ فَالْإِسْتِثْنَاءُ فِي مِثْلِ هَذَا لِلتَّنْبِيهِ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ التَّأْيِيدُ وَالتَّخْلِيدُ بِكَرَمٍ مِنَ اللَّهِ وَسَعَةِ جُودِهِ لَا بِتَحْتِيمٍ عَلَيْهِ وَاجِبٍ وَأَنَّهُ لَوْ أَرَادَ أَنْ يَسْلُبَ مَا وَهَبَ لَمْ يَمْنَعَهُ مِنْ ذَلِكَ مَانِعٌ وَمَا وَرَدَ مِنْ أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَسِيَ شَيْئًا كَانَ يَذْكُرُهُ فَذَلِكَ إِنْ صَحَّ فَهُوَ فِي غَيْرِ مَا أُنْزِلَ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَالْأَحْكَامِ الَّتِي أُمِرَ بِتَبْلِيغِهَا وَكُلُّ مَا يَقَالُ غَيْرُ ذَلِكَ فَهُوَ مِنْ مَدْخَلَاتِ الْمُلْحَدِينَ الَّتِي جَازَتْ عَلَى عُقُولِ الْمُغْفَلِينَ فَلَوْثُوا بِهَا مَا ظَهَرَ اللَّهُ فَلَا يَلِيقُ بِمَنْ يَعْرِفُ قَدْرَ صَاحِبِ الشَّرِيعَةِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَيُؤْمِنُ بِكِتَابِ اللَّهِ أَنْ يَتَعَلَّقَ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ وَقَوْلُهُ (أَنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى) تَأْكِيدٌ لِلْوَعْدِ مَعَ الْإِسْتِثْنَاءِ أَيْ إِنْ الَّذِي وَعَدَكَ بِأَنَّهُ سَيَقْرَأُكَ وَأَنَّهُ سَيَحْفَظُكَ مَا تَقْرَأُ فَلَا تَنْسَاهُ عَالِمٌ بِالْجَهْرِ وَالسِّرِّ فَلَا يَفُوتُهُ شَيْءٌ مِمَّا يَكُونُ فِي نَفْسِكَ وَهُوَ مَالِكٌ قَلْبِكَ وَعَقْلِكَ وَخَافِي سِرِّكَ وَفِي قُدْرَتِهِ أَنْ يَحْفَظَ عَلَيْكَ مَا وَهَبَكَ وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ مِنْ خَفِيَّاتِ رُوحِكَ وَلَوْ شَاءَ لَسَلَبَهُ وَلَنْ تَسْتَطِيعَ دَفْعُهُ لِأَنَّكَ لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَخْفَى عَنْهُ شَيْئًا

وَلَمَّا كَانَ فِي الْوَعْدِ بِالْإِقْرَاءِ الْوَعْدُ بِتَشْرِيعِ الْأَحْكَامِ كَمَا ذَكَرْنَا وَقَدْ يَكُونُ فِي الْأَحْكَامِ مَا يَصْعَبُ عَلَى الْمُخَاطَبِينَ احْتِمَالُهُ أَرْدَفَ ذَلِكَ الْوَعْدَ بِمَا يَزِيدُهُ حِلَاوَةً فِي ذَوْقِ النَّفْسِ

وَنُيْسِرُكَ لِلْيُسْرَىٰ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ سَيَذَكِّرُ مَنْ يَخْشَىٰ
وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى الَّذِي يَصْلِي النَّارَ الْكُبْرَىٰ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا
وَلَا يَخْيَىٰ

فقال (و نيسرك لليسرى) أى نوفقك للشريعة السمحة التى يسهل على النفوس قبولها ولا يصعب على العقول فهمها

بعد ما وعده بذلك الفضل العظيم أخذ يأمره بتذكير عباده وتنبيههم من غفلاتهم وتوجيههم الى ما هو خير لهم من تنزيه اسم الله تعالى والاستعداد لامثال أوامره والتزام أحكامه فقال (فذكر ان نفعت الذكرى) وأشار بقوله ان نفعت الذكرى الى ما عليه حال أهل الباطل القائمين على ما ورثوا عن آبائهم والى جمودهم وصلابة جهلهم وان الذكرى ربما لا تنجح فيهم قالوا « وذلك كما تقول للوا عظم المكاسين ان سمعوا منك » وليس الشرط قيذاً فى الأمر فقد أجمع أهل الدين سلفهم وخلفهم على أن الامر بالتذكير عام نفعت الذكرى أم لم تنفع وعمله صلى الله عليه وسلم شاهد على ذلك ولذلك أردف هذا الأمر بقوله (سيدكر من يخشى) فالذكرى نافعة حتماً فى فريق من الناس وهو الذى يخشى الله ويخشى عاقبة الجحود والعناد مع ظهور الدليل ووضوح وجه الحق وانما يتجنب الذكرى ولا ينتفع بها الاشقى الذى غلبه شقاؤه وحق عليه الخذلان باعراضه عن النور الساطع والبرهان القاطع وهذا الفريق الذى لا يخلو منه زمن سيلقى من الله جزاءه كما قال (الذى يصلى النار الكبرى) وصف النار بالكبرى لأنها نار تلك الدار الآخرة وهى أشد ايلاماً لمن يعذبون بها من هذه النار التى نعرفها فتلك أكبر من هذه ثم ان من شقى ولقى عذابه بتلك النار يخلد فيها لا ينقطع عذابه عند غاية ولا يجد لآلامه نهاية فهو لا يموت فيستريح ولا يحيا حياة طيبة فيسعد فننى الحياة لا يناقض نفى الموت لأن الحياة المنفية هى الحياة التى يرغب فيها ويتمنى صاحبها أن تدوم وحياة المعذب بتلك النار الكبرى ممقوتة عند صاحبها يتمنى لو فقدها فى كل لحظة تمر عليه فكانها ليست بحياة. اياك أن تنخدع بما يقوله أولئك الذين يلبسون لباس العلماء ويزعمون مزاعم

قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ
وَمُوسَى

السفهاء من أنه لا يجب عليهم التذكير ولا النصح العام لعامة المسلمين لأن التذكير لا ينفع والنصح لا ينفع ويحتجون بقوله تعالى فذكر ان نفعت الذكرى فقيده الأمر بالنفع فان ذلك منهم ضلال وتضليل لأن الشرط انما ذكر لما بيناه ولوصح قولهم لما وجب التذكير في وقت من الأوقات لأنه لا يخلو زمان من معاندين ولا يسلم قائل من جاحدين وقد يعرف بعضهم انه انما ينطق عن هوى ولكنه يدافع عن جهله ويحتج لكسله وجبنه ويجب أن يزين نفسه في أعين الناس وان وقعها في سخط الله . بعد أن وصل وعيد الاشقياء بذكرهم عاد الى وعد أهل الخشية بالفلاح فقال (قد أفلح من تزكى) وتزكى تطهر من دنس الرذائل ورأسها جحود الحق وقسوة القلب والفلاح الفوز بالسعادة في الدارين وانما يناله من طهرت نفسه وزكاه سره وصفا قلبه (وذكر اسم ربه فصلي) أى لاحظ بسره ما يعرف من ربه بأن يحضر في قلبه صفاته العلية نخشع فصلي ههنا بمعنى خشع ولجأ الى الله فهو كقوله تعالى « انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم » وقد يكون مع الخشوع صلاة من الصلوات المكتوبة أو جميعها وانما عبر عن الخشوع بالصلاة لانه لبها والمقصود منها وهي بدون شبح بلاروح

يقول السامعون لهذا الوعد الكريم ممن قست قلوبهم ولم يأخذوا من العبادات الا بصورها وظنوا أن ذلك غاية ما يطالب الله به عباده نحن المتطهرون ونحن اذا كررنا ونحن المصلون فنحن المفلحون فيرد الله قولهم وينفي زعمهم باثبات أنهم كاذبون وفي زعمهم واهمون ويحتج عليهم بقوله (بل تؤثرون الحياة الدنيا) ولوصح قولكم لا ترم الآخرة وهي خير وأبقى وايتار الحياة الدنيا تقديم ملاذها والاستغفال بها والاتفاق فيها مع الانصراف عما يعد للسعادة في الدار الآخرة أراد الله أن يؤيد الحق الذي يوحيه الى نبيه باثبات أنه هو بعينه الحق الذي ذكر في صحف ابراهيم وموسى فدين الله واحد وأمره واحد ووعدده ووعيدده واحد

نورة الغاشية ملكة وهي نت وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ وَجْوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ
 تَصْلِي نَارًا حَامِيَةً تُنْفِقُ مِنْ عَيْنِ أَيْبَةٍ

وانما تختلف صورته وتتعدد مظاهره فاذا كان المخاطبون قد آمنوا بآبراهيم أو بموسى
 فعملهم أن يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم لأنه لم يأت الا بما جاء في صحفهم وانما
 هو مذكور أو محي لما مات من شرعهم . والاشارة في هذا الى ما تضمنه قوله قد
 أفلح من تذكى وذكر اسم ربه فصلی

الغاشية هي الداهية التي تغشى الناس بشدائدها وتغمرهم أهوالها والمراد منها
 هنا يوم القيمة أى هل سمعت قصة يوم القيمة وما يقع فيه وهو استفهام لتعظيم
 الامر مع تقريره (وجوه يومئذ خاشعة) أى يظهر عليها الذل والخزي النازل
 بأصحابها وهكذا يقال فيما بعد أو عبر بالوجوه عن الأشخاص فالذل لهم أى أناس
 يوم تغشى الغاشية أذلاء (عاملة ناصبة) وقع منها عمل في الدنيا وأصابها فيه نصب
 أى تعب ولم تستفد من عملها سوى نصبها فأثر الخيبة وحبوط العمل ظاهر عليها
 ولا حاجة للقول بأنها عاملة ناصبة في ذلك اليوم نفسه فان عاملة ناصبة بمنزلة قوله
 حابطة أعمالها أو جعلت أعمالها هباء منثوراً وهذا هو الذي يقع يومئذ وانما يجب
 اختيار هذا المعنى لاتفاقه مع بقية الآيات في غير هذه السورة ولأن هذه الآية تقابل قوله
 في أهل الجنة لسعيها راضية وذلك السعي هو الذي كان في الدنيا (تصلي ناراً حامية)
 صلى النار قاسى حرها وهذه الوجوه تعذب بتلك النار لأن أعمالها في الدنيا كانت
 خاسرة غلب عليها الشر وجانبها أو قل فيها الخير وتلك النار الحامية الحارة لا تعرف
 كنهها ولا كيفية ايقادها ولكننا نؤمن بها وبأن عمال السوء وحلفاء الباطل يصلونها
 (العين) ينبوع الماء (والآية) الشديدة الحرارة من آتى الماء يأتى اذا سخن وبلغ

لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ لَا يَسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ وَجُوعُهُ يَوْمَئِذٍ

في الحرارة غايتها فاذا عطش أهل النار عطشهم الخاص بهم في تلك الدار وطلبوا ما يطفى لهب ظمئهم جىء لهم بماء من ينبوع بلغ مأوه من الحرارة غايتها فهو لا يطفى لهباً ولا ينقع غلة فاذا خوت بطونهم وأحسوا من الجوع ما يدفعهم الى طلب الطعام ف (ليس لهم طعام الا من ضريع) قال الفراء الضريع هو نبات يقال له الشبرق وأهل الحجاز يسمونه الضريع اذا يبس قالوا وهو مرعى سوء لا تعقد عليه السائمة شجماً ولا لحماً وان لم تقارقه الى غيرد ساءت حالها والضريع أيضاً القشر الذى على العظم تحت اللحم وقيل هو جلد على الضلع وعلى كل حال فهو طعام ردىء (لا يسمن ولا يغنى من جوع) أى اذا طلب أهل النار الطعام ليدفعوا به ما يصيبهم من ألم الجوع الذى يلائم عالمهم الأخرى وحياتهم في تلك الدار الباقية قدم اليهم من الطعام ما لا يدفع جوعاً ولا يفيد سمناً أى ما ليس له أثر من آثار الطعام وسمى الله ذلك الطعام بالضريع تشبيهاً له به والا فذلك العالم عالم الآخرة ليس فيه نمواً وبدان ولا تحمل مواد على نحو ما يكون للحياء في هذه الحياة الدنيا بل ذلك عالم خلود وبقاء والذائد فيه لذائد سعادة والآلام فيه آلام شقاء فكل ما يقع في ذلك العالم فأنما بينه وبين ما يقع في عالمنا وجوه مشابهة لا وحدة مجانسة وقد جاء في الكتاب الكريم في الحاقة «ولا طعام من غسلين» والغسلين ما شأنه أن يغسل عن الابدان كالقيح والصدید ونحوهما وفي سورة الواقعة «ثم أنكم أيها الضالون المكذبون لا تكون من شجر من زقوم» الى آخر الآيات وفي الدخان «ان شجرة الزقوم طعام الأثيم» وفي الصافات «أذلك خير نزل أم شجرة الزقوم انا جعلناها فتنة للظالمين انها شجرة تخرج في أصل الجحيم طلوعها كأنه رؤوس الشياطين فانهم لا تكون منها فالثون منها البطون» فهذا كله يدل على أن طعام أهل النار شيء يوافق النشأة الآخرة وقد عبر الله عنه بالعبارات المختلفة وكلها مما يصور في أذهاننا بشاعته وخبثه لتنفّر منه نفوسنا وتطلب كل وسيلة للفرار منه فتبعد بذلك عن العقائد الفاسدة والأعمال الخاسرة. ولما وفى المكذبين حقهم

نَاعِمَةٌ لِّسَعِيهَا رَاضِيَةٌ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَافِيَةً فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ

من الوصف أقبل على أهل الاخلاص والصدق يقر أعينهم بما سيلقون ذلك اليوم من فضله (ناعمة) ذات بهجة وحسن كما قال « تعرف في وجوههم نضرة النعيم » ولا تكون كذلك الا اذا كانت متنعة فرحة بما لاقت من جزاء سعيها في الدنيا فهي لسعيها راضية على ضد ما عليه تلك العاملة الناصبة والجنة هي دار النعيم في الآخرة وسميت بهذا الاسم من الاجتماع وهو الستر لتكاثف أشجارها وتظليلها بالتفاف أغصانها ووصفها بالعلو لأن خير الأماكن ما كان رفيعاً أو هي عالية رفيعة في أوصافها ومزاياها كما سيذكر ذلك في قوله (لا تسمع فيها لافية) أى لا تسمع تلك الوجوه أى أوائك المخلصون الذين عبر عنهم بالوجوه أو لا تسمع أنت أيها المخاطب في تلك الجنة لغواً أى كلاماً لا يعتد به ولا شتماً ولا سباً ولا خشاً ولا باطلاً كل ذلك مما يصح أن يطلق عليه اسم اللغو لأنه قول لا فائدة فيه وإنما عجل بهذا الوصف الشريف عقب ذكر الجنة قبل ذكر بقية أنواع النعيم لدفع ما يسبق الى الاذهان عند ذكر الجنة ونعيمها من أحوال أهل الترف والمولعين بالشهوات من تمضية الاوقات في اللهو والقول اللغو واطلاق الألسن عن قيد الادب فيجعلون من متهمة النعيم قذائف الهجر والفحش فقد سارع الى تنزيه نعيم أهل الجنة عما هو من لوازم نعيم غيرهم في الدنيا وفي ذلك تنبيه للمؤمنين الى أنه لا يليق بهم أن يكونوا من أهل اللغو مهما فاض عليهم النعيم واتسعت لهم النعمة بل ذلك مما ينزهون عنه حتى اذا رفعت عنهم التكاليف ووصلوا الى فضاء الرحمة الذى لا سيخط فيه ولا نقمة فنعيمهم ينبغى أن يكون نعيم أهل الفضل والجد لا نعيم أهل الجهل والحمق فاعتبر بهذه الحكمة ثم انظر كيف قدم من الأوصاف للجنة وضروب نعيمها ما هو روحانى يليق بأرباب النفوس العالية والمقامات الرفيعة فى العرفان وكمال الوجدان فذكر الرضا بالسمى ولذته فوق اللذائذ فانه لا لذة تفوق عند العامل لذة سروره بعمله ثم أتبعه بالتنزه عن اللغو وما لا فائدة فيه وهو أسمى ما يطلب الكامل أن يحيا به ثم جاء بعد ذلك بما له شبه بالذائذ الجسمانية المعهودة لنا فى هذه الحياة فقال (فيها عين جارية) أى ينبوع ماء جار والماء الجارى اذا

فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ وَزَرَائِيُ مَبْثُوثَةٌ

كان من الينايع يكون في العادة بارداً صافياً لهذا وصف العين بالجارية ثم في منظر الماء الجاري من مسرة النفس ما هو معلوم . والسرر جمع سرير وهو معروف ما يجلس أو ينام عليه وأفضل السرر ما كان مرفوعاً عن الأرض كما هو معروف فكان تلك السرر توضع لأهل النعيم على مقربة من العين الجارية فيجلسون عليها وبجانبيهم (أكواب موضوعة) على جانب العين فإذا أرادوا التمتع بلذيق الشراب تناولوا بها من الماء والأكواب جمع كوب وهو الكوز الذي لا عروة له « ما يعرف في لسان العامة بالكباية » ثم في الجنة غير السرر التي توضع على جوانب العيون (نمارق مصفوفة) والنمارق جمع نمرة بضم النون وكسر ها وهي الوسادة « المسماة في عرف العامة مسنداً ومخدة » وسواء كانت هذه النمارق مصفوفة فوق الأسرة أو في جوانب المساكن (وزرائي ماثورة) الزرائي البسط وقيل البسط التي فيها خمل وروى عن المؤرج أنه قال في هذه الآية « أو زرائي النبت إذا اصفر واحمر وفيه خضرة وقد ازرى » فلما رأوا الألوان في البسط والفرش شبهوها بزرائي النبت ومبثورة أي مبسوطة أو مفرقة هنا وهناك كما تراه في بيوت أهل النعمة كل ذلك لتصوير النعمة والرفاهة واللاذة والافنعم تلك الدار الآخرة مما لا يشبهه في هذه الدار نعيم . فهل آن لهؤلاء الذين يزعمون أنهم مؤمنون بالله ووعدده ووعدده أن يعتبروا بهذا الترتيب الإلهي وأن يقدموا الإحسان في العمل حتى يبلغوا فيه غاية يرضون سعيهم عندها وأن يبدؤوا بتنزيه أقوالهم عن اللغو وأنفسهم عن اللهو بما تلهو به الحيوانات من طعام وشراب ثم بعد أن يلبسوا من الفضائل أفضل حللها يتناولون من نعمة الله ما يرفههم ويطيب عيشهم ويتمتعون بذلك المتاع الحسن . هل آن لهم أن يتدبروا كتابهم وأن يرجعوا إلى سيرة نبيهم فينهضوا إلى طلب ما أعد الله لهم ولا يرتكسوا فيما أركس الله فيه الأمم قبلهم عرفت أن الكلام مسوق من أوله لتقرير أمور الآخرة وما يكون من شأن الناس يوم القيامة وفي المخاطبين منكرون جاحدون أو مقرون غافلون لا ينظرون في

أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ
وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ

عملهم الى ما هم عليه هاجون فأراد الله اقامة الحجة على أولئك وتنبيه هؤلاء بتوجيه نظرهم الى آثار قدرته فيما بين أيديهم وما يقع تحت بصرتهم من الخلق فقال (أفلا ينظرون الى الابل الى الابل الى الابل) وانما خص الابل لأنها أفضل دواب العرب وأعمها نفعا ولأنها على الحقيقة خلق عجيب فانها على شدتها وعظم قوتها تنقاد للضعيف ولا تمنع الصغير ثم في تركيبها ما أعدها لحمل الاثقال ونقلها الى البلاد الشاحطة ثم هي تبرك لتحمل عن قرب ويسر ثم تهض بما تحمل مع صبر على السير والعطش والجوع واكتفاءها من المرعى بما لا يكاد يرعاه سائر البهائم وفيها غير ذلك من المزايا التي لا يماثلها فيها حيوان آخر وليس اختصاص الابل لعظم جثتها حتى يرد النقيض والنقيض وان كان فيه بعض مزايا الابل فهو لا يدر اللبن ولا يؤكل لحمه ولا يسهل قياده سهولة قياد الابل . ورفع السماء امساك ما فوقك من شمس وأقمار ونجوم كل منها في مداره لا يختل سيره ولا يفسد نظامه . ونصب الجبال اقامتها علماء السائر وملجأ من الجائر وهي في الأغلب نزهة للناظر . وسطح الارض تمهيدا وتوطئتها ليتيسر للناس أن يقيموا عليها ويمشوا في منابكها وانما حسن ذكر الجمال مع السماء والجبال والارض لان هذه الجملة من المخلوقات هي ما يقع تحت نظر العرب في أوديتهم وبواديهم فحسن أن ينتظمها الذكر كما انتظمها النظر فلو نظر الجاحدون والغافلون فيما تحت نظرهم من هذه الأشياء وكيف قامت كل على حاله التي هو عليها لعلموا أنها صنعة لا توجد ولا تحفظ الا بموجد لها وحافظ وهو الله جل شأنه وأن القادر على خلق هذه الكائنات وحفظها ووضعها على قواعد الحكمة قادر على أن يرجع الناس الى يوم يوفى فيه كل عامل جزاء عمله وكما أن الله خلق ذلك كله والناس لا يعلمون طريقة خلقه وانما يعرفون منه ما شاهدوه كذلك ينشئ الله ما ينشئ في ذلك اليوم وهم لا يعرفون طريقة انشائه وانما يرون ما يرون فيه كما يرون اليوم ما يرون في هذه المخلوقات فاذا كان الأمر ظاهراً جلياً وما هي الا نظرة

فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ
فَيُعَذِّبُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ

فتم حسم عليهم العبرة (فذكر انما أنت مذكر) ان الفطرة سائقة بنفسها الى الاعتقاد بصانع قادر وهي ميسرة بذاتها الى الاذعان بأنه قادر على انشاءها في خالق آخر ترى فيه شقاء أو نعيمًا وانما قد تتحكم الغفلات وتغلب الأهواء فتحسب النفوس الى مذكر يردها الى ما كان عساه تنساق اليه غرائزها لهذا سمي الله هذا النوع من الاستدلال تذكيراً وقوله انما أنت مذكر تحديد للأمر الذي بعث الله لأجله نبيه صلى الله عليه وسلم وهو تذكير الناس بما نسوه من أمر ربهم وليس في سلطانه عليه السلام أن يخلق الاعتقاد فيهم ولا من المفروض عليه أن يقوم رقيباً على قلوبهم كما قال (لست عليهم بمسيطر) وقال وما أنت عليهم بجبار والمسيطر المتسلط قال بعض المولعين بالنسخ والتغيير ان هذه الآية نسخت بآيات الجهاد كأن الجهاد شرع في الاسلام لقهر النفوس على الاعتقاد وخفى على القائل أن القهر لا يحدث ايماناً وأن الاكراه لا أثر له في الدين وأن الجهاد ينقطع وجوبه متى خضع المحارب لأداء الجزية مع بقاءه على دينه ان كان يهودياً أو نصرانياً أو مجوسياً في رأى الأكثر ومن البديهي أنه لا حاجة الى القول بالنسخ فان النبي عليه السلام ليس بمسيطر على قلوب الناس سواء كان محارباً لهم أو مسالماً . وقد يشعر نفي السيطرة بأن الناس جميعاً مختارون وهم سواء فيما هم به مجزيون فخل كل على غاربه يذهب الى حيث شاء من المذاهب ومع ماشاء من الأهواء فقال الله رفعاً لخاطر السوء (الا من تولى الح) أى انك وان كنت داعياً وليس لك سلطان على ماتعقد قلوبهم فالله هو المسيطر عليهم وصاحب السلطان على سرائرهم فمن تولى منهم وأعرض عن الذكرى المسوقة اليه (وكفر) أى جحد الحق المعروف عليه فالله تعالى يعذب العذاب الاكبر في الآخرة وقد يضم الى عذاب الآخرة عذاب الدنيا فكلمة الا بمعنى لكن وفيها الاستثناء من عموم الاحوال التي افادها نفي السيطرة ثم اكد ذلك الحكم وهو تعذيب الله لمن تولى وكفر بقوله (ان إلينا إيابهم ثم ان علينا حسابهم) أى لا مفر للمعرضين ولا خلاص لهم من الويل الذي

سورة الفجر مكية وهي ثلاثون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَالْفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشْرٍ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ

أُوعدوا به فانهم راجعون الينا وقد حق القول منا في عقابهم فنحن نحاسبهم على ما كسبت قلوبهم والاياب الرجوع كما رأيت والله أعلم

كثر خلاف المفسرين والرواة في معنى كل من الفجر وليال عشر الى آخر ما أقسم به وقد يفسر الواحد منهم الفجر بمعنى ثم يأتي في الليالي العشر بمالا يلائمه وغالب ذلك يجري على خلاف ما عودنا الله في نسق كتابه الكريم وقد جرت سنة الكتاب بانه اذا أريد تعيين يوم أو وقت ذكره بعينه كيوم القيامة في لا أقسم بيوم القيامة وكاليوم الموعود في سورة والسماء ذات البروج وكليلة القدر في سورتها فاذا أطلق الزمن ولم يقيد كان المراد ما يعمله معنى الاسم كما سبق في قوله والليل اذا عسعس والصبح اذا تنفس فالفجر ههنا على هذا هو جنس ذلك الوقت المعروف الذي يظهر فيه بياض النهار في جلد الليل الاسود وينبعث الضياء لمطاردة الظلام وهو وقت تنفس الصبح وهو معهود في كل يوم فصيح أن يعرف بالالف واللام والمراد والله أعلم من ليال عشر ليال يتشابه حالها مع حال الفجر وهي ما يكون ضوء القمر فيها مطاردا لظلام الليل الى أن تغلبه الظامة فكأنه وضع التناسب على شيء من التقابل فضوء الصبح يهزم ظامة الليل ثم يسطع النهار ولا يزال الضوء الى الليل وضوء الالهة في عشر ليال من أول كل شهر يشق الظلام ثم لا يزال الظلام يغلبه الى أن يغلبه فيسدل على السكون حجبته ولما كانت هذه الليالي العشر غير متعينة في كل شهر ذكرها منكورة وذلك أن ضوء الهلال قد يظهر حتى يغلب أول الظامة في أول ليلة من الشهر وقد يكون ضئيلا يغيب ضوءه في الشفق فلا يعد شيئا فالليالي العشر تبتدىء تارة من أول ليلة وأخرى من الليلة الثانية لذلك نكرها على أنها ليال عشر من كل شهر (والشفع والوتر) أي الزوج والفرد من هذه الليالي أيضا

وَاللَّيْلِ إِذَا يَأْسَرُ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حَجْرِ بِعَادِ إِرَمَ

فهو يقسم بها على الجملة ثم يقسم بما حوته من زوج وفرد . ثم بعد أن أقسم بضروب من أوقات الضياء أقسم بالليل مراداً منه الظلمة وكثيراً ما يطلق اسم الليل وتراد ظلمته وسريان الظلمة ودخولها على المبصرات حتى تسترها أمر معروف عند المخاطبين . ولما كان ظلام الليل واختلاط قطعة عظيمة منه بضوء القمر في الدلة الواحدة مقصوداً الى تفخيم أمره بالقسم خص الليالي التي يظهر فيها ضوء القمر مع تغلب الظلام فيها بعشر فقط والا فقد يكون ظلام في أكثر من عشر من الشهر لكن زمنه قليل لا يليق ذكره بمقام التفخيم . وفي الفجر وتفريجه كربة الليل من جهة وتنبيه العامل الى استقبال عمله بالنهار من جهة أخرى وفي ليالي القمر واستمالتها لانفس للسمر وتيسير السير في السفر خصوصاً أيام الحر وهي أغلب أيام الحياة في بلاد العرب ثم في قصر مدة بقاء القمر وانتظار هجوم الظلمة وابتغاء الغنيمة مع الاستعداد للسكون عند ما يرخي الظلام ستاره في كل ذلك رغبات للانفس ورهبات وللهواجس غدوات وروحات وللأمان في فيها ديب ووثبات فهو جدير أن يقسم به كما قال (هل في ذلك قسم لذي حجر) الحجر بكسر الحاء العقل والاستفهام للتقرير وتفخيم أمر المقسم به وليس في هذه السورة قسم بالضوء الخالص كيباض النهار وما يكون في ليالي القمر عند امتلائه بل ذلك سيجيء في قوله « والشمس وضحاها والقمر اذا تلاها » فليتنبه الى هذه الدقائق حتى لا يفوت العقل ما فيها من الحقائق وقد وقع هذا القسم في هذه السورة بعد قوله في آخر السورة السابقة ان الينا اياهم ثم ان علينا حسابهم وقبل قوله في هذه السورة (ألم تركف فعل ربك بعاد الخ) فكان جوابه مفهوماً لا يحتاج الى ذكر وفي تركه ارسال لنفس القارئ في تأمل ما مضى وما يتبع ليجد الجواب بينهما فيمكن المعنى منه فضل تمكن والجواب ان ناصية المكذبين ليدي ولئن أمهاتهم فلن أهملهم ولا آخذنهم أخذى الامم قبلهم . عاد جيل من العرب العاربة أو البائدة يقول النسابون انه من ولد عوص بن ارم بن سام بن نوح عليه السلام وسواء صح النسب أم لم يصح فقد كان ذلك الجيل معروفاً باسم عاد ويلقب أيضاً بارم وبقى

ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ وَثُمُودَ الَّذِينَ جَابُوا
الصَّخْرَ بِالْوَادِ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ

مشهورا عند العرب بذلك و (ذات العماد) وصف لارم التي هي قبيلة عاد نفسها
ومعنى ذات العماد سكان الخيام حلا وارتحالا أو ذات العماد الرفيعة والقوة
المنبوعة عبر بالعماد عن العلو والشرف والقوة وكانت منازلهم بالرمال والاحقاف الى
حضر موت وقد بلغت عاد من الشدة والقوة مبلغاً لم يصل اليه سواها في عهدها
ولذلك قال (التي لم يخلق مثلها في البلاد) والاستفهام في ألم تركيف فعل ربك بعاد
للتذكير والتقرير وقد بين الله كيف فعل بهم في سور أخرى من القرآن فقد
جاء في سورة الحاقة « وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية سخرها عليهم
سبع ليال وثمانية أيام حسوما » والصرصر الباردة والعاتية الشديدة الهبوب
لأبركة فيها والحسوم المتتابعات المشائم وقد يروى المفسرون هنا حكايات
في تصوير ارم ذات العماد كان يجب أن ينزه عنها كتاب الله فاذا وقع اليك شيء من
كتبهم ونظرت في هذا الموضع منها فتخط ببصرك ما تجده في وصف ارم واياك
أن تنظر فيه وثمود قبيلة من العرب البائدة كذلك من ولد كافر « وهو المسمى
في التوراة جاث » بن ارم بن سام وارم هو المعروف في التوراة بآرام هكذا يذكر
النسابون وسواء صح النسب أم لم يصح فثمود معروفة عند العرب باسمها ومنزلها
بالحجر بين الشام والحجاز (الذين جابوا الصخر بالواد) أي قطعوا الصخر ونحتوه كما
قال تعالى « وتمنحون من الجبال بيوتا فارهين) فقد أنعم الله عليهم بالقوة
والعقل حتى صنعوا لانفسهم بيوتا من الصخر بذلك الوادي الذي كانوا يقيمون فيه
وقد يصح ما قال بعضهم ان معنى جابوا الصخر بالواد أنهم قطعوا الصخر واتخذوا
منه واديا يخزنون فيه الماء لمنافعهم ولا يفعل ذلك الا أهل القوة والفهم من الامم
(وفرعون) هو حاكم مصر الذي كان في عهد موسى عليه السلام وللمفسرين
في الاوتاد اختلاف كبير وأظهر اقوالهم ملاءمة للحقيقة أن الاوتاد المباني العظيمة
الثابتة وما اجل التعبير عما ترك المصريون من الابنية الباقية بالاوتاد فانها هي
الاهرام ومنظرها في عين الرائي منظر الودد الضخم المغروز في الارض بل ان شكل

الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ

هيا كلمهم العظيمة في أقسامها شكل الاوتاد المقلوبة يبتدىء القسم عريضا وينتهى بأدق مما ابتداء وهذه هي الاوتاد التي يصح نسبتها الى فرعون على أنها معهودة للمخاطبين (الذين طغوا في البلاد) صفة للمذكورين جميعا من عاد وما بعدها ومعنى طغيانهم في البلاد ان كل قوم من هذه الاقوام طغوا في بلادهم والطغيان تجاوز القدر المعروف في العمل أو غيره وهو هنا سوء استعمال السلطان والقوة والخروج بها عن حد القصد والمعدلة والاسراف في هضم الحقوق اغترارا بعظم القدرة . من أوتى القوة فسخرها لسلطان الشهوة فتناول ما ليس له ومنع الحق أهله فقد عمل على تبديد نظام الجماعة وتقطيع روابط الالفه بينهم وحمل كل نفس على اتخاذ الاثرة قاعدة عملها ومصدر سيرها في سعيها فيكثر الفساد اذ لا معنى للفساد في شيء الا اختلال نظامه وهلاك قوامه ومتى تحكمت الاثرة في أنفس قوم وغفل كل واحد منهم عن ارتباط وجوده بوجود الآخر عمل بعضهم لاهلاك بعض وانتهى الامر بهم الى الانحفاء من سجل الامم القائمة لهذا قال (فأكثروا فيها الفساد) بعد ان قال الذين طغوا في البلاد ثم جاء بعد ذكر كثرة الفساد بعاقبتها التي لا منفر للامم منها فقال (فصب عليهم ربك سوط عذاب) والسوط لفظ شاع استعماله في الجلد المضفور الذي يضرب به وان كان في الاصل اسما للخلط والمزج وقد شبه الله ما يصبه عليهم من ضروب العذاب التي ذكرها في كتابه في مواضع آخر بالسوط لأن السوط يضرب به في العقوبات والله تعالى انما ينزل العذاب بالامم عقوبة لها على ما ينمرط منها وصب السوط انزاله بشدة مع توالي ضرباته بلا انقطاع . المرصاد المكان الذي يقوم به الرصد وهو القوم الذين يرصدون أي يرقبون بالخير أو الشر والكلام على التمثيل أي ان ربك القائم بتدبير أمرك رقيب على عبادك لا يفوته من شؤونهم شيء ثم هو مجازي كل عامل بعمله فلا ينمته أحد فلا يظن أهل الطغيان الذين يكثرون في الارض الفساد أن يتفلتوا من الله وعقابه والجملة تأكيد لجواب القسم المفهوم من سابق الكلام ولا حقه على ما سبق تقديره

فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ
وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ

أو هي تعليل لتعذيب الله من ذكر من الأمم بسبب طغيانهم وفسادهم في أمورهم .
هذا شأن ربك لا يفوته من شؤون عباده تقير ولا قطمير ولا يهمل أمة تعدت
في أعمالها حدود شرائعه القويمة بل يأخذها بذنوبها أخذ العزيز المقتدر كما أن
الراصد القائم على الطريق ليأخذ من يمر به بما يريد من خير أو شر لا يفرط فيما
رصد له فإذا أردت أن تعرف شأن الانسان وغفلته وسوء ظنه بربه فهو ما يتلى عليك
وبهذا البيان تعرف موقع الفاء في قوله (فأما الانسان) الخ كأنه قال هذا شأن
ربك وسيتلى عليك شأن الانسان عقب ما تلوت من شأن ربك . الابتلاء الاختبار
ويقال بلاه يبلوه وابتلاه يبتليه بالخير والشر ليظهر ماله من شكر وكفر وقوله
(فأكرمه ونعمه) بيان لأثر الابتلاء كما أن قوله فيما بعد فقدّر عليه رزقه أى ضيقه
عليه بيان لأثر الابتلاء في الآية الآتية وبقية الألفاظ مفهومة المعنى . وحاصل
ما ذكر الله من شأن الانسان في هاتين الآيتين أنه إذا أنعم الله عليه وأوسع له
في الرزق ظن أن الله قد اصطفاه لذلك ورفعته على من سواه وجنبه منازل العقوبة
فيذهب مع هواه فيفعل ما يشتهي ولا يبالي أكان ما يصنع خيراً أم شراً فيطغى
 ويفسد في الأرض وقد عبر عن هذا الظن الفاسد والغرور المهلك بقوله (فيقول
ربى أكرمن) أى أن الله أكرمنى بنعمته ومن يكرمه الله لا يؤاخذ به على عمل
يعمله وإذا امتحنه الله بالفقر فضيق عليه الرزق وربما كان ذلك من الله لاعتنا
به ولا ارادة لاذلاله بل ليحصى قلبه بالاخلاص له وليظهر قوة صبره بل لتزهتلك
القوى الجليلة التي قد تكون كامنة فيه كما تظهر آيات ذلك في كثير من أرباب
العزائم وذوى الأعمال العظام فان الفقر لا يزيدهم الا شكراً ولا تزداد قواهم به
الا شجداً فاذا امتحن الله الأغلب من البشر بالفقر لم يستعمل صحيح الفكر ولم
يعتصم بالصبر بل ذهب يقول ان ربى قد أهاننى ومن أهانه الله وصغرت قيمته
عنده لم تكن لله عناية بعمله فكيف يؤاخذ به بما يصدر منه من شر أو يكافئه على

كَلَّا بَلْ لَا تَكْرُمُونَ الْيَتِيمَ وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ

ما يصنع من خير فلا شكره يكافأ باحسان ولا كفره يجازى بعقوبة فينطلق لذلك يكسب عيشه بأية وسيلة عنت له لا يقف عند حد ولا تحجزه شريعة فيلتقي مع الجبارين في سبيل واحدة سبيل الفجور وبخس الحقوق وافساد نظام العامة وانت ترى أن أحوال الناس الى اليوم لا تزال كما ذكر الله في هذه الآية الكريمة فان أرباب السلطة والقوة يظنون أنهم في أمن من عقاب الله ولا يعرفون شيئاً من شرعه يمنعم عملاً مما تسوق اليه شهواتهم وانما يذكرون الله بالسنتهم ولا يعرفون له سلطاناً على قلوبهم والفقراء الأذلاء قد صغرت نفوسهم عند أنفسهم فهم لا يبالون بما يفعلون واذا ذكروا الله فانما هي حروف وأصوات لا تمتاز في منفعتها عن أصوات بقية العجاوات تلك حالة الانسان الذي لم يمتعه الله بعقل سليم ودين صحيح أما الذين أنعم الله عليهم بنعمة العقل والدين فأولئك الذين ترتقى الى مثل حالهم مرتبة الانسان فيفارقون تلك الغرائز الحيوانية الأولى ويعلون الى المقام الذي لا تذهلهم فيه القوة ولا يشغلهم فيه الفقر عن مراعاة الحدود المعروفة فيما هو حق لهم أو عليهم ومعنى هذه الآية يميل الى قوله تعالى « ان الانسان خلق هلوفا اذا مسه الشر جزوعا واذا مسه الخير منوعا الا المصلين »

تعلم أن المخاطبين بهذه الآية كانوا يزعمون أنهم على شيء من دين ابراهيم أو أنهم كانوا يدعون أن لهم ديناً يأمرهم وينهاهم ويقربهم الى الله زلفى فاذا سمعوا هذا التهديد وذلك الوعيد ورأوا في الخطاب ما ينمى عليهم فساد غرائزهم همت نفوسهم بمدافعة ما يجمعهم من ذلك وأخذت توسوس لهم بأن هذا الكلام انما ينطبق على أناس ممن سواهم أما هم فهم لم يزالوا من الشاكرين الزاكرين غير الغافلين فالله يرد عليهم زعمهم ويقيم لهم دليلاً واضحاً على كذب ما تحدثهم به أنفسهم ويقول (كلا بل لا تكرمون اليتيم) الخ أى لو كان غنيكم لم يعمه الطفيلان وفقيركم لم يطمس بصيرته الهوان وكنتم لا تزالون على الحال التي يرتقى اليها الانسان لشعرت نفوسكم بما عسى يقع فيه اليتيم فعنيتم باكرامه فان الذى يفقد أباه معرض لفساد طبيعته اذا أهملت تربيته ولم يعامل بما فيه اكرامه وما فيه رفع نفسه

وَتَأْكُلُونَ التَّرَاثَ أَكْلًا مَكْنًا وَتَحِبُّونَ الْمَالَ حُبَّاجِمًا

عن دنایا الأمور وسفاسفها ولو كنتم على ما تحدثكم به أنفسكم من الصلاح لوجدتم الشفقة تحرك قلوبكم الى التعاون على طعام المسكين الذى لا يجد ما يقتات به مع العجز عن تحصيله . والتحاض تفاعل من الحض وهو الحث والترغيب وربما بسطنا القول فى حكمة الله جل شأنه فى العناية بشأن اليتيم والاكثر فى كتابه الكريم من ذكره والحث على اصلاح أمره فى محل آخر ان شاء الله واذا لم تكرموا اليتيم ولم يوص بعضكم بعضاً بطعام المسكين فقد كذبت مزاعمكم فى أنكم من قوم صالحين وانما ذكر التحاض على الطعام ولم يكتف بالاطعام فيقول ولم تطعموا المسكين ليصرح لك بالبيان الجلى أن أفراد الأمة متكافلون وأنه يجب أن يكون لبعضهم على بعض عطف بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع التزام كل لما يأمر به وابتعاده عما ينهى عنه . ثم أن أهمالكم أمر اليتيم وخلق قلوبكم من الرحمة للمسكين لم يكن عن زهد فى لذائذ الحياة الدنيا كما هو شأن بعض من يسأم الحياة ولا يكون لهم إلا التخلص من متاعها فيعكف على شأن نفسه وينخزل من العالم ولا يهتم بشؤونهم بل انكم مع ذلك (تأكلون التراث أكلاً لما) والتراث الميراث واللم الشديد كما ذهب اليه جمهور اللغويين ولا حاجة الى تفسيره بمعنى الجمع ثم ارتكاب التأويل أى أنكم تأكلون المال الذى يتركه من يتوفى منكم وتستندون فى أكله حتى تحرموا صاحب الحق من حقه (وتحبون المال) مطلقاً ميراثاً أو غيره (حباً جما) أى كثيراً ولو كنتم ممن لم يبال بالدنيا وأهلها لتركتم ما يترك الأموات لا يتامهم وفقراء أهلهم ولما شاركتموهم فى شىء لا كسب لكم فيه ولا دخل لأعمالكم فى تحصيله ولما ازداد حبكم فى المال الى الحد الذى أنتم عليه فشرهكم الى المال وقرمكم الى اللذات وانصرف أنفسكم الى التمتع بها وشعوركم بمقدار الحاجة الى المال فى تقويم شؤونكم ثم قسوة قلوبكم وشلل وجدانكم الى حد لا يألم لحال المسكين ولا ينظر الى ما تجر اليه الاستهانة بشئون اليتامى من فساد أخلاقهم وتعطيل قواهم وانتشار العدوى منهم الى معاشريهم وما يصيب الأمة من ذلك كل هذا منكم دليل على أن ما تزعمونه من اعتقادكم بالله يأمركم وينهاكم وأن

كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا
وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى
يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدًا وَلَا
يُوثِقُ وَثَاقُهُ أَحَدًا

لكم ديناً يعظكم زعم باطل واذا غششتم أنفسكم بدعوى أنكم تتذكرون الزواجر وتراعون الأمر مع بقائكم على ما وصف من حالكم فانما ذلك منكم مقال لا تصدقه فعال .

(الدك) الهدم وكسر الحائط والجبل ودكاً دكاً أى دكاً متتابعاً وصفاً صفاً أى صفوفاً متعددة (وجيء يومئذ بجهنم) هو كقوله تعالى «وبرزت الجحيم لمن يرى» أى كشفت جهنم للناظرين بعد أن كانت غائبة عنهم فكأنها كانت بعيدة وجاءت اليهم أما اسناد المجيء الى الله فى قوله وجاء ربك والملك ففيه رأى السلف رضى الله عنهم وهو أن ذلك مجيء نؤمن به ولا نطلب معناه ولكنه يمثل لنا الهيبة والعظمة وظهور السلطان الالهى فى ذلك اليوم وهو الافضل وفيه مذهب الخلف وهو أنه على تقدير وجاء أمر ربك أو أنه من قبيل التمثيل لتجلى السطوة الالهية على القلوب كما تتجلى أبهة الملك للأعين اذا جاء فى جيوشه ومواكبه والله المثل الاعلى والتذكر استحضار ما كان منسياً والذكرى تطلق ويراد منها العظة والعبرة قال الله تعالى «ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد» ولا يلزم من حضور ما كان منسياً أن تحصل العبرة فان العبرة انما تكون حيث ينفع الاعتبار فلذلك قال (يومئذ يتذكر الانسان) أى عند ذلك تذهب الغفلة ويذكر الانسان الغافل ما كان منه أيام غفلته ولكن لا تكون له ذكرى أى عظة فينتفع بها و (قدمت لحياتى) أى قدمت عملاً ينفعنى فى حياتى الحقيقية وهى الحياة الآخرة .

قرئ يعذب ويوثق مبنيًا للمجهول أى يومئذ لا يصاب أحد بعذاب مثل العذاب الذى يصيب ذلك الانسان الذى ابطره الغنى وأفسده الفقر ولا يحبس أحد حبسه فان الوثاق معناه الشد والربط كما يكون بالسلاسل والاغلال وقرئ

يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ اِزْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً فَادْخُلِي
فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّاتِي

الفعالان بالبناء للفاعل أى لا يقع من المعذنين وصانعى العذاب مثل العذاب الذى يقع على ذلك الانسان فالمعنى واحد فى الوجهين ومعنى الآيات الكريمة أن ما يزعمه الاغنياء الجبارون والفقراء الخاسرون من أنهم لربهم ذاكرون مع فراغ قلوبهم من الرأفة بالضعفاء وامتلائها بحب المال وفيضانها بالميل الى الشهوات زعم لا حقيقة له وانما يتذكرون ربهم على الحقيقة فى ذلك اليوم العظيم عند ما يشهدون الهول ويعوزهم الحول ويظهر لهم مكانهم من العذاب والنكال ولكن ليس فى هذا التذكر موعظة تحمل على العمل النافع فان تلك الدار دار جزاء لادار أعمال وانما يبقى لأولئك الخاسرين الحسرة والندامة يقول قائلهم ياليتنى قدمت لحياتى وتكرر ذكر اليوم فى قوله أولا اذا دكت الارض وقوله وجئ يومئذ بجهنم وقوله يومئذ يتذكر الانسان وقوله فيومئذ لا يعذب الخ ليقوى عندك استحضاردك الارض وظهور الجلال الالهى ثم ان التنوين فى يومئذ الاولى نائب عن دكت الارض ومحى ربك والملك وفى يومئذ يتذكر نائب عن ذلك وعن محى جهنم وفى يومئذ الثالثة (فيومئذ لا يعذب الخ) ينوب التنوين عما تقدم وعما تضمنه قوله يقول ياليتنى قدمت لحياتى فكانه قال وجئ يوم تذك الارض ومحى ربك والملك صفا صفا بجهنم يوم تذك الارض ويأتى ربك ويحجاء بجهنم يتذكر الانسان الخ . فيوم تهدم الارض ويأتى ربك ويحجاء بجهنم ويتذكر الانسان ويقول ياليتنى قدمت لحياتى لا يعذب عذابه أحد الخ . ولا يخفى ما فى ذلك من تقوية الذكرى لمن له قلب يذكر ووجدان يشعر .

بعد أن ذكر حال الانسان وقد خلى وطبعه وحرصه وجشعه واستولت عليه رغبات جسمه وخرجت به عن سلطان العقل وحكمه ثم ذكر عاقبته وما يصير اليه فى الحياة الاخرى انتقل بنا الى ذكر الانسان اذا ارتقى عن ذلك الطبع وترفع عن مراتع

الحيوانية وأستعلى برغائه الى المطامح الروحانية فكان في الغنى شاكرا لا يتناول الا الحق ولا يمنع صاحب الحق حقا ويعنى بحال اليتيم ويطعم المسكين ويحمل غيره على الاقتداء به فيما هو خير له ولمن حوله وكان في الفقر صابرا لا يمد يده الى ماليس من حقه ولا يأتى الدنية ولا يطلب لغيره الرزية ولا يغفل مع فقره شأن اليتيم ولا يغفل عما يألم له المسكين فاذا لم تمكنه المعونة بالمال أمكنته المساعدة بالمقال وبهذا يستحق وصف المطمئن فانه راكن الى ربه في جميع أمره واقف عند شرعه ثابت القدم بمعرفة الحق والسلوك في سبيله لا تزغزه الشهوات ولا تضطرب به الرغبات ويستحق أن يخاطب باسم النفس التي هي روح تنزع الى ما يليق بالروح ولا ينادى باسم الانسان الذي يشير الى ما في تكوينه من النزعة الحيوانية لانه لم يسلطها عليه بل استخدمها لتكميل نفسه وارجاعها الى معبدها المقدس فكانت جديرة بجوار ربها وهي راضية بعملها في الدنيا وبعرجعها في الآخرة لانها لم تكن قط ساخطة لاهي تسخط عملها في غناها ولا تسخط حالها في فقرها ولا تسخط صنيع ربها بها وهي مرضية لان من كانوا معها في الدنيا راضون عنها لحسن صنعها والله راض عنها لصلاح عملها فقال سبحانه (يأتيها النفس مطمئنة) ومفاجأة السامع بهذا النداء ضرب من ضروب ايجاز القرآن التي لا تخطر لبشر على بال فان التقى الخائف الذي يخاف مقام ربه اذا سمع ذلك الوعيد المتقدم أخذت الرهبة نفسه وأفعمت الخشية قلبه فبينما هو كذلك اذ ينقذه هذا النداء ويصعد به الى أكرم فناء ويصنعه بالطمئن ليذهب عنه الخوف وبالراضي المرضي ليبعد عنه خشية الغضب أما الشقي فقد يلهو بأنه ليس وحده في الشقاء بل الناس في كل ما يوعد به سواء فينجمه نداء الابرار بأوصاف الخيار الى قرب الجوار فتبغته الدهشة وتمزغه الوحشة

الرجوع الى الله تمثيل للكرامة عنده والا فالله معنا حيث كنا والدخول في عبادته أن تكون منهم والعباد الذين يستحقون نسبة الاختصاص به هم العباد المكرمون والجنة معروفة

سورة البلدكية وهي عشرون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ

(لا أقسم) عبارة من عبارات القسم والتأكيد في لسان العرب كما تقدم ذكره في تفسير قوله تعالى فلا أقسم بالخنس في سورة كورت (والبلد) المشار اليه هو مكة لان السورة مكية ولما يدل عليه قوله (وأنت حل بهذا البلد) والحل هو الحلال والخطاب للنبي عليه السلام ومعنى كونه حلاً أنه قد استحل لاهل مكة استحوا بايذاء واعنائه ومطاردته واستباحوا منه حرمة الأمن في ذلك البلد الامين حتى اضطروه الى الهجرة (وبوالد وما ولد) عطف على هذا البلد داخل في المقسم به والمراد منه أى والد وأى مولود من الانسان والحيوان والنبات كما يرشد اليه التنكير وكما هو مختار ابن جرير وجمع من المحققين (لقد خلقنا الانسان في كبد) هذا هو الخبر المقصود تأكيده بالقسم المتقدم والكبد المشقة والتعب قال لبيد ياعين هل بكيت أربد اذ * قمنا وقام الخصوم في كبد

أى في شدة الامر وعظم الخطب ومنه المكابدة لمقاساة الشدائد أقسم بمكة لتفخيم شأنها وصرح بذكرها على طريق الإشارة اليها مرتين لزيادة التفخيم وأتى بجملة وأنت حل بهذا البلد واعترض بها بين العاطف والمعطوف ليفيد أن مكة عظيم شأنها جليل قدرها في جميع الاحوال حتى في هذه الحالة التى لم يرع أهلها في معاملتك تلك الحرمة التى خصها الله بها وفى هذا من تنبيههم وإيقاظهم من غفلتهم وتقريعهم على ماخطوا من منزلة بلدهم ما فيه ثم أقسم بوالد ما وما ولد ليلفت نظرنا الى رفعة قدر هذا الطور من أطوار الوجود

وهو طور التوالد والى ما فيه من بالغ الحكمة واتقان الصنع والى ما يعاينه الوالد والمولود فى ابداء النشء وتكميل الناشئ وابلاغه حده من النمو المقدر له فاذا تصور فى النبات كم تعاني البزرة فى أطوار النمو من مقاومة فواعل الجو ومحاولة امتصاص الغذاء مما حولها من العناصر الى أن تستقيم شجرة ذات فروع وأغصان وتستعد الى أن تلد برة أو يزورا أخرى تعمل عملها وتزين الوجود بجمال منظرها اذا أحضرت ذلك فى ذهنك والتفت الى ما فوق النبات من الحيوان والانسان حضر لك من أمر الوالد والمولود فيهما ما هو أعظم ووجدت من المكابدة والعناء الذى يلاقيه كل منهما فى سبيل حفظ الانواع واستبقاء جمال الكون بصورها ما هو أشد وأجسم . انظر كيف أشار سبحانه فى القسم الى التمهيد الى المقسم عليه فكان القسم توكيدا للخبر بصيغته وتأكيذا له وبرهانا عليه بإشارته فان الانسان نوع من أنواع الوالد والمولود خلق له أن يخلق فى كبد وكبد ونصب لا تغفل عن موضع قوله وأنت حل بهذا البلد فانه مع ما فيه من تقرير المستحيلين لحرمة صلى الله عليه وسلم يشتمل على بيان أن ما يصيبه من ذلك فهو من شأن الانسان وقدر قدر على كل مولود منه وفيه من تسليته صلى الله عليه وسلم عن ذلك الايذاء ما هو ظاهر ثم انه جمع بين البلد المعظم والوالد والولد مع الاعتراض بتلك الجملة ليشير الى أن مكة على ما بها من عمل أهلها ستلد من الامر العظيم ما يكون اكليلا لمجد النوع الانسانى وهو دين الاسلام الذى جاء به عليه الصلاة والسلام وأن العناء الذى يلاقيه من اختصاصه الله بوحيه انما هو العناء الذى يصيب الوالد فى تربية ولده والمولود فى بلوغ الغاية من سير نموه وفيه من الوعد بتمام نوره ما فيه . ربما تقول ان كون الانسان مخلوقا فى كبد وتعب أمر مشهود وشئ معروف معهود فما الحاجة الى تأكيده الاخبار به فنقول لك فى الجواب ان هذا الخبر انما ورد لتسليته الناصب وحمله على الصبر كما يدل عليه قوله بعد ذلك وتواصوا بالصبر وتنبيهه المغرور الجاهل أما الاول فانه اذا غلبه التعب وقهرته المشقة فى القصد الذى وجهه عزيمته اليه أحاطت به الآلام فيتمثل له بين عينيه شخص من شقائه يخيل له وهو فى حمى الضجر أن هذا العدو يطارده وحده فيتمنى أن يكون له حظ غيره ممن سبقه أو ممن هم معه فهو على هذه الحالة

أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ يَقُولُ أَهْلَكَ مَا لَأَلْبَدًا أَيَحْسَبُ
أَنْ لَمْ يَسِرْهُ أَحَدٌ

في أشد الحاجة الى تأكيد الخبر بأن الانسان في أى فرد من أفراد خلق في كبد
وانما يتفاوت الناس فيما ينصبون له

وطعم الموت في شئ حقير * كطعم الموت في شئ عظيم

وأما الثانى فهو الذى يشعر بقوة في بدنه يستطيع أن يصارع بها الاقران ويقارع
بها الانداد أو يحس بعزة في سلطانه ورفعة في مكانه وبسطة في جاهه أو ينظر الى
مالديه من وفرة المال وغزارة الغنى فيشمخ بأنفه ويظن أنه واحد في صنفه وان
الناس من دونه ليسوا منه الا كما يكون العابد من معبوده فكبيرهم يجب عنده أن
يستذل وصغيرهم يستعبد ويسترذل ويخيل له في حاله هذه أنه أعلى من أن تتناوله
يد القدر أو تدنو منه عادية الدهر فهذا المفتون بقوته أو السكران بسلطته أو
الماخوذ بثروته في أشد مايكون من الحاجة الى تأكيد الخبر بأن الانسان خلق
في كبد فاذا رجع الى نفسه ورأى أنه في عناء من تصريف قواه في عمله بل وفي
أكله وشربه وحماية أهله في سربه تمثلت له الحقيقة من ضعفه ورجع الى الحق
اذا ذكر به من أهله ولما كان هذا القسم الاخير وهو قسم المفتونين بما أصابوا
من النعم هو الاجدر بأن يقصد بالخطاب ويعنى بالتذكير قال الله عقب الخبر
(أيحسب أن لن يقدر عليه أحد) أى أيظن مع ما هو فيه من العناء من ميلاده
الى ساعة عناده أنه قد بلغ من القوة أو العزة أو المنعة الى حيث لا يقدر عليه
فالضمير فى أيحسب عائد على الانسان باعتبار تحققه فى بعض أفراد من هذا
الصنف الذى ذكرناه ما أجهله لوطن ذلك فان الذى نشأ فى وجوده ضعيفا يحتاج
فى أصغر أمره الى المعين وتملك ناصيته تلك اليد التى أنشأته وتأخذ تلك القدرة
التي أبدعته (يقول) أى الانسان و (أهلك) أى أتفتت (مالا لبدا) أى
كثيرا أعاد الضمير على الانسان باعتبار صنف آخر من أفرادهم وأولئك الاغنياء
البخلاء المراءون الذين يكتزون اموالهم ولا ينفقونها الا على شهواتهم وفى توفير لذاتهم
ثم اذا حملوا على عمل من أعمال الخير قالوا اننا ننفق كثيرا من أموالنا فى أعمال

أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ
فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ فَكُ رَقَبَةً أَوْ
إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ أَوْ مِنْ كِنَا ذَا مَسْرَبَةٍ

غير التي تدعوننا اليها أفحسب هؤلاء الاغنياء أن لم يرهم أحد وأن سرائرهم تخفى على المتصرف في ضمائرهم (ألم نجعل له عينين) فهو اذا أبصر فانما يبصر بنعمتنا عليه فيهما (ولسانا وشفتين) فهو اذا تكلم فانما يتكلم بما وهبناه من لدنا حتى قوله الذي يرأى فيه اذ يقول أهلك ما لا لبدا (وهديناه النجدين) النجد مشهور في الطريق المرتفعة والمراد بهما هنا طريقا الخير والشر وانما سماهما نجدين ليشير الى أن في كل منهما وعورة وصعوبة مسلك فليس الشر بأهون من الخير كما يظن والى أنهما واضحان جليان لا يخفى واحد منهما على سالك أى أودعنا في فطرته التمييز بين الخير والشر وأقمنا له من وجدانه وعقله اعلاما تدله عليهما ثم وهبناه الاختيار فاليه أن يختار أى الطريقين شاء وقد ورد في الحديث ما يشير الى ما ترمى اليه هذه الآية من أن الله تعالى لم يجعل الشر أحب الى أنفسنا من الخير كما يزعمه بعض أهل النظر في الاخلاق الانسانية فالذى وهب الانسان هذه الآلات وأودع باطنه تلك القوى لا يمكن للانسان أن يفلت من قدرته ولا يجوز أن يخفى عليه شئ من سريره . اقتحم الامر دخل فيه بشدة والعقبة الطريق الوعرة في الجبل يصعب سلوكها لكن الله تعالى فسر لنا المراد بالعقبة هنا حيث قال (وما أدريك ما العقبة فك رقة الخ) فأراد منها الطريق التي يصعب سلوكها الى حيث تنال سعادة الدنيا والآخرة وانما كانت صعبة السلوك لمعارضة الهوى ومغالبة الشهوة لسالكها وفك الرقبة عتقها أو المعاونة عليه وقد ورد في فضل العتق ما بلغ معناه حد التواتر فضلا عما ورد في الكتاب وهو يرشد الى ميل الاسلام الى الحرية وجفوته للاسرو والعبودية . والمسغبة المجاعة والسغب هو الجوع وفسره أبو حيان بالجوع العام والمقربة القرابة في النسب يقال هو ذو قرابتي وذو مقربتي بمعنى أن نسبي يتصل بنسبه والمسكين ذو المتربة هو الفقير الشديد الفقر اللاصق بالتراب يقال ترب أى افتقر ويقال فقر مدقع أو فقير مدقع بمعنى لاصق بالدقعاء وهى التراب

ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ

والذين تَوَاصَوْا بالصبر هم الصابرون على ما يصيبهم وعما يفوتهم في سبيل الله الذين مع صبرهم ينصح بعضهم بعضاً بالتزام الصبر فهم صابرون وأعوان لاخوانهم على الصبر والمرحمة وجدان الرحمة بالناس مع ظهور أثر ذلك في مساعدتهم وفي معاونة المحتاجين منهم

بعد أن أخبر الله جل شأنه بأن الانسان قد خلق في كبد لام الجاهل المغرور على استغراقه في غروره حتى كأنه يظن أن لن يقدر عليه أحد مع أن ما هو فيه من المكابدة كان كافياً لا يقاظه من غفلته واعترافه بعجزه وبعد أن وُجِّح المرائين الذين ينفقون أموالهم طلباً للشهرة وحباً في الاحدثة وقرعهم على افتخارهم بما يصنعون مع خلق بواطنهم من حسن النية أراد أن يبين لهؤلاء أولئك أنه سبحانه مصدر لا فضل ما يتمتعون به من البصر والنطق والعقل المميز بين الخير والشر والنفع والضرر فهو مهدي ذلك اليهم وهو القادر على سلبه منهم وما أعجز من يفقد بصره ونطقه وعقله ثم أن واهب هذه القوى لا تخفى عليه أعمالها وهو الحافظ لكونها فمحاوله الظهور بخلاف ما تكنه السرائر ضرب من الغفلة والعبث بالنفس على الحقيقة ثم هو قد أدرج في ذلك البيان وجه المنة بهذه النعمة وكان على الانسان بعد ما وهب التمييز بين الحسن والقبيح والخير والشر وبعد ما منح من تلك القوى التي سبق ذكرها أن يشكر تلك النعم ويختار طريق الخير ويرجع سبيل السعادة فيصعد فيها الى حيث يلقي غايتها وكان عليه أن يندفع في تلك السبيل ويهجم عليها بكل قوته وذلك بأن يفيض على الناس بشيء مما أفاض الله عليه وأفضل ذلك أن يعين على تحرير الارقاء من البشر أو يواسي اليتام من أقاربه في أيام العوز وعزة الطعام أو يطعم المساكين الذين لا وسيلة لهم الى كسب ما يقيمون به حياتهم من الضعفاء والعجزة وأولبيان أنواع الخير والقصد انما هو الى التحلى بالخلق الذي يصدر عنه أحد هذه الافعال ثم مع ذلك يكون صحيح الايمان صادق السر مع ربه صبوراً على أذى الناس وما يصيبه من المكاره في سبيل الدعوة الى الحق وأو المحافظة عليه رحيماً بعباد الله مواسياً لهم مساعداً لهم عند نزول الشدائد بهم

أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمِئْمَنَةِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ

ثم يكون مع هذا حريصاً على أن يكونوا مثله في الصبر والمرحمة فيحملهم على ذلك بقوله وفعله هذه هي الطريقة التي كان من حق العقل أن يرشد اليها لكن الانسان قد خدعه غروره فلم يقتحم هذه العقبة كما قال سبحانه فلا اقتحم العقبة الخ بل اقتحم تلك العقبة الاخرى عقبة الحرص على المال والتكبر بالقوة والثروة وهي عند أهل الحق أوعر العقبتين فهي مثار الحسد ومزدحم الخصام مع مقاومة العقل الصحيح والذوق السليم غير أن الحيوانية وحضور لذاتها هي التي تسهل سلوكها مع ما فيها من الهلكة .

قال المفسرون أن قوله تعالى أيحسب أن لن يقدر عليه أحد نزل في أبي الأشد أسيد بن كعدة الجمحي وكان مغترّاً بقوته البدنية كما يقولون أن قوله يقول أهلكت مالا لبدا جاء في الحرث بن نوفل وكان يقول أهلكت مالا لبدا في الكفارات منذ أظعت محمداً وقد يجوز أن يكون في الآيات اشارة الى تلك الحوادث الحاضرة وقت النزول غير أن معناها على الحقيقة عام كما رأيت . أما ما قيل من أن لا اذا دخلت على الماضي وجب تكرارها ولم تكرر في الآية فذلك لا يلتفت اليه لان الكتاب نفسه حجة في الفصاحة وقد ورد في كلامهم عدم تكرارها وقال أبو مسلم للتخلص من مخالفة القاعدة في تكرار لا ان لا في الآية مخفف ألا التي للتحضيض كأنه قيل فهلا اقتحم العقبة ولكن ورد عليه أنه لم يعرف تخفيف ألا التحضيضية أيضاً فالحق الرجوع الى ما قلنا وأما التعبير بالماضي في اقتحم وفي ثم كان فلان الكلام فيما وقع من نوع الانسان منذ نشأته وأن الحيوانية غلبته فصرفته الى سبيل غير التي كان يقوده اليها عقله الا من هدى الله وهم الذين ذكرهم بقوله ثم كان من الذين آمنوا الخ أي أن الانسان في ذلك الصنف الأغلب من أفراده لم يكن من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة (أولئك أصحاب الميمنة) الاشارة في أولئك الى الذين آمنوا وتواصوا الى الخ ومعنى أصحاب الميمنة أنهم من أهل اليمين وأهل اليمين في لسان الدين الاسلامي عنوان السعداء (والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة) الذين تمر عليهم آيات الله سواء كانت كونية كالآيات التي ذكرت في هذه السورة من خلقه الانسان في كبد ومن تمتعه بقواه الظاهرة والباطنة أو

عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤَصَّدَةٌ

سُورَةُ الشُّمُسِ مَكِّيَّةٌ وَهِيَ ثَمَانِيَةُ عَشْرَ آيَةٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالشُّمُسِ وَضُحَاهَا وَقَمَرٍ إِذَا تَلَّهَا

سائر الآيات الأخر في خلق الانسان وما بين يديه من سائر الموجودات ولا يعتبرون بها أم كانت آيات قولية واردة على لسان الرسل عليهم الصلاة والسلام كالقرآن الذي هو آية الآيات للدين الاسلامي تمر عليهم هذه الآيات ولا يرتقون من النظر فيها الى معرفة الصراط الذي يجب أن يستقيموا عليه في الاعتقاد والعمل هؤلاء أصحاب المشأمة أى من أهل الشمال وأهل الشمال في لسان الدين هم الأشقياء فكأنه قال والذين كفروا بآياتنا هم الأشقياء وقد تكون الميمنة والمشأمة من اليمن والشؤم فاولئك ميامين على أنفسهم وهؤلاء مشائيم (عليهم نار مؤصدة) أى مطبقة عليهم من آصدت الباب اذا أغلقتة في لغة قريش وقرأ بعض السبعة مؤصدة يدون همز من أوصدته واغلاق النار عليهم عبارة عن تخليد هم فيها وسد سبيل الخلاص منها وهؤلاء الذين وجه اليهم هذا الوعيد هم الذين ذكر حالهم في قوله فلا اقتحم العقبة الخ فان مانسبه اليهم في تلك الآيات السابقة انما هو عارض يلحق الكفر بآيات الله الباهرة وآية من آياته (١)

(والشمس وضحاها) ضحى الشمس ضوءها يقسم بالشمس نفسها سواء ظهرت أو غابت لانها خلق عظيم ويقسم بضوئها لأنه مبعث الحياة ومجلى الهداية في عالمها الفخيم وهل كنت ترى حياً أو تبصر نامياً أو هل كنت تجد نفسك لولا ضياء الشمس جل مبدعه (والقمر اذا تلاها) يقسم بالقمر اذا تلا الشمس وذلك في الليالى البيض من الليلة الثالثة عشرة من الشهر الى السادسة عشرة وهو قسم بالقمر

وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّهَا وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا

عند امتلائه أو قربه من الامتلاء اذ يضيء الليل كله من غروب الشمس الى الفجر وهو قسم في الحقيقة بالضياء في طور آخر من أطواره وهو ظهوره وانتشاره الليل كله وقال الحسن والفراء تلاها تبعها في كل وقت لأنه يستضيء منها فهو يتلوها لذلك ولكن التقييد بقوله اذا تلاها يدل على أن القسم متعلق بالقمر وهو في حالة خاصة فهو مقسم به على طور خاص وهو ما ذكرناه ثم عاد الى القسم بالضياء تحت عنوان آخر فقال (والنهار اذا جلاها) أى والنهار اذا جلى الشمس أى أظهرها ولا يخفى أن النهار هو وقت انتشار ضوء الشمس من وقت شروقها أو قربه الى وقت غروبها كل ذلك للإشارة الى تعظيم أمر الضياء وأعظام قدر النعمة فيه والنفات أذهاننا الى أنه من آيات الله الكبرى ونعمه العظمى وقوله اذا جلاها بيان للحالة التى ينطق فيها النهار بتلك الحكمة الباهرة والآية الظاهرة وهى حالة الصحو أما يوم الغيم الذى لا تظهر فيه الشمس خاله معك أشبه بحال الليل الذى يقسم به فى قوله (والليل اذا يغشاها) بعد أن أقسم بالضياء تحت أسماء مختلفة أقسم بالليل فى حالة واحدة وهى حالة ما يغشى الشمس أى يعرض دون ضوءها فيحجبه عن الابصار وذلك فى ليالى الظلمة الخالكة التى لا أثر لضوء الشمس فيها المباشرة كما فى النهار ولا بالواسطة كضوء القمر المستفاد منها وهذه الليالى هى قليلة كما لا يخفى فان أغلب ليالى الشهر لا تخلو من ضوء القمر فى أول الليل أو فى آخره أو فى جميعه وهو ضوء مستفاد من الشمس وانما هى ليلة أو ليلتان وبعض ليال آخر ولقلة أوقات الظلمة عبر فى جانبها بالمضارع المفيد للحاق الشئ وعروضه متأخر عما هو أصل فى نفسه أما النهار فانه يجلى الشمس دائما من أوله الى آخره وذلك شأن له فى ذاته ولا ينفك عنه الا لعارض كالغيم أو الكسوف قليل العروض ولهذا عبر فى جانبه بالماضى المفيد لوقوع المعنى من فاعله بدون افادة انه مما ينفك عنه وأقسم بالظلمة هنا كما أقسم بها فى سورة والفجر لانه أمر يهولك ويدخل عليك فيه من انقباض النفس عن الحركة واضطرارها للوقوف عن العمل وركونها الى السكون ما لا تجد عنه مفرا فهذا سبيلان من الخوف مبهم لا تحيط بأسبابه

وَالسَّمَاءِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَالْأَرْضِ وَمَا طَحُّهَا

ولا بتفصيل أطواره فهو أشبه بالجلال الالهى يأخذك من جميع أطرافك وأنت لا تدري من أين أخذك وهو مظهر من مظاهره ثم فى هذا السكون من راحة الجسم والعقل وتعويض ما فقده بالتعب بياض النهار ما لا تحصى فوائده فلذلك أقسم الله به ليوجه نظرنا الى ما فيه من ذلك كله (والسما وما بناها) السماء اسم لما علاك وارتفع فوق رأسك وأنت إنما تتصور عند سماعك لفظ السماء هذا الكون الذى فوقك فيه الشمس والقمر وسائر الكواكب تجرى فى مجاريها وتتحرك فى مداراتها هذا هو السماء وقد بناه الله أى رفعه وجعل كل كوكب من الكواكب منه بمنزلة لبنة من بناء سقف أو قبة أو جدران تحيط بك وشدهذه الكواكب بعضها الى بعض برباط الجاذبية العامة كما تربط أجزاء البناء الواحد بما يوضع بينها مما تماسك به والذى بنى السماء هو الله جل شأنه غير أنه لما كان الخطاب موجهاً الى قوم لا يعرفون الله بصفاته الجليلة وكان مرمى الخطاب أن ينظروا فى هذا الكون العظيم نظرة من يطلب للأثر مؤثراً ما وللمسبب سبباً ما لينتقلوا من ذلك الى معرفة الله تعالى عبر عن نفسه جل شأنه بما التى شئ الغاية فى الابهام على أن من وما بالنسبة الى الله سواء لان من للعاقل الذى يعرفه المتخاطبون وما لغير العاقل كذلك والله جل شأنه لا يطلق عليه العاقل ولا غير العاقل بذلك المعنى وإنما هو عالم يعلو تصوره على منال العقول فيعبر عنه بكل لفظ يفيد الذات الموجودة مع مراعاة التنزيه (وطحا الارض) وطأها وجعلها فراشاً كما قال الذى جعل لكم الارض فراشاً والسماء بناء وليس فى ذلك دليل على أن الارض غير كروية كما يزعم بعض الجاهلين والذى طحاها هو الله .

بعد أن أقسم الله بالضياء والظلمة أقسم بالسماء وما فيها من الكواكب جملة وبالذى بناها وجعلها مصدراً للضياء لأن الشمس والقمر وسائر الكواكب من أجزاء ذلك البناء وبالارض والذى جعلها لنا فراشاً وجعلها مصدراً للظلمة فانها هى التى يحجب بعض أجزائها ضوء الشمس عن البعض الآخر فيظهر الظلام فى هذا الآخر ولما لم يذكر فى جانب السماء سوى البناء وهو ربط بعض أجرامها ببعض

وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَنْ
زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا

ولم يذكر إيجاد كل جرم لأن هذا البناء الظاهر هو الذى تفهمه عقول المخاطبين وفيه منافعهم من انتشار الضياء وقيام أعلام الهداية اقتصر فى جانب الارض بذكر الطحو وهو التمهيد وفيه منافع الناس من سكنى الارض والارتفاع بما يوجد على ظهرها من نبات وحيوان

بعد هذا أقسم بالنفس الانسانية والذى (سواها) أى عدلها بأن ركب فيها قواها الباطنة والظاهرة وحدد لكل قوة وظيفة تؤديها وألف لها الجسم الذى تستخدمه من أعضاء قابلة لاستعمال تلك القوى لهذا فرع على التسوية قوله (فألهمها فجورها وتقواها) فان تمام التسوية أن وهبها العقل الذى يميز بين الخير والشر والفجور اتيان ما ينتهى بالنفس الى الخسران والهلكة والتقوى اتيان ما يحفظ النفس من سوء العاقبة والاعمال التى بها تشقى النفوس معروفة لذوى العقول كالاعمال التى بها تسعد فهذه الآية فى معناها كآية وهديناه النجدين فقد منح الله النفوس قوة التمييز كما وهبها قوة الاختيار فمن رجع طريق الخير أفلح ومن رجع طريق الشر خاب ولهذا استطرد عقب ذكر الالهام بقوله (قد أفلح من زكاهها) أى قد ربح وفاز من زكى نفسه ونماها وأعلاها حتى بلغ بها ما هى مستعدة له من كمال القوى العقلية والعملية وأثمرت بذلك ثمراتها الطيبة له ولمن حوله من الناس (وقد خاب من دساها) التدسية النقص والاختفاء ومن سلك سبيل الشر وطاوع داعى الشهوة البهيمية فقد فعل ما يفعل سائر البهائم فلم يظهر عمل القوة العاقلة التى خص بها الانسان فاندرج صاحب تلك النفس فى عداد سائر الحيوان دون الانسان وبذلك يختفى من بين العقلاء ويذهب امتيازها الذى كرم الله به نوعه وهل تكون خيبة أعظم وخسران أكبر من هذا المسخ الذى يجلبه الشخص على نفسه بسوء عمله فما أجمل هذا التعبير وما أحواه للمعانى والرفعة ثم هل الفتى الى ما فى التزكية مما يناسب النور والسماء وما فى التدسية

كَذَبَتْ ثُمُودُ بِطَغْوَاهَا إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا فَقَالَ لَهُمُ رَسُولُ اللَّهِ
نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا فَكَذَّبُوهُ

مما يلائم الظامة والأرض وجواب القسم محذوف مثله في سورة البروج وأقام
الدليل عليه بما جاء في قوله (كذبت ثمود بطغواها) وهذا من ضروب الإيجاز
التي اختص بها القرآن دون سائر الكلام وسند ذكر ذلك الجواب بعد تفسير الدليل
عليه . ثمرد قوم من العرب البائدة بعث الله اليهم نبياً اسمه صالح عليه السلام
ولما سأله قومه آية على صدقه جعل الله آيته في ناقته وقد جاء في كتابنا العزيز
أن هذه الآية هي أن جعل لها شرباً تختص به ولهم شرب يختصون به في يوم
معلوم وأن تأكل في أرض الله ولا يمسه أحد بسوء فإذا مسوها بسوء أخذهم
العذاب فالآية في الحقيقة هي أخذهم بالعذاب إذا مسوها بالسوء قال في سورة
هود « ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء
فيأخذكم عذاب قريب » وقال في سورة الشعراء « قال هذه ناقة لها شرب
ولكم شرب يوم معلوم ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم » وكان على
القوم جميعاً أن يرعوا أمر الله في هذه الناقة فلا يدعوا أحداً يصيبها بالأذى ولكنهم
طغوا وخرجوا عما يرشد اليه العقل الصحيح فكذبوا صالحاً عليه السلام فهذا قوله
كذبت ثمود بطغواها أي كذبت بنبيها بسبب طغيانها وبغيها ثم انبعث واحد من
هذه القبيلة سماه المفسرون ولا حاجة بنا إلى تسميته لأنه يجب علينا أن نتف
عند ما وقف عنده الكتاب وكان ذلك المنبعث أشقى القبيلة لأنه تحرش للشر من
دونهم وانطلق ينحر الناقة فهذا قوله تعالى (إذ انبعث أشقاه) أي أن التكذيب
كان عند ذلك أي كان ذلك علامة التكذيب الظاهرة فإنه كذب صالحاً في وعيده
بالعذاب وانبعث يهلك الناقة ولما سكنت القوم وتركوه يفعل كانوا مكذبين مثله
(فقال لهم رسول الله) صالح احذروا واتقوا (ناقة الله) التي جعلها آية نبيه
(وسقياها) أي شربها الذي اختصها الله به في يومها فلا تؤذوا الناقة ولا تتعدوا
عليها في شربها ويوم شربها (فكذبوه) فيما جاء به ولم يسمع ذلك الشقى ذاك

فَقَرُّوْهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذُنُوبِهِمْ فَفَسَّوْهَا وَلَا يَخَافُ عَذْبَهَا

سورة الليل مكية وهي إحدى وعشرون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى

التحذير ولم يصغ الى الانذار (فعقروها) العاقر لها ذلك المعتدى الذي لقبه بأشقاها ولكنهم لما سكتوا عنه ولم يمنعوه ورضوا بفعله نسب العقور اليهم جميعاً فذلك عمتهم النقمة (فدمدم عليهم ربهم بذنبهم) أى أطبق عليهم العذاب وقال بعضهم الدمدمه اهلاك فى استئصال وقيل الدمدمه التدمير (فسواها) أى سوى القبيلة وهى ثمود فى العقوبة فلم يفلت منها أحد أو المعنى سواها بالارض أى دمر مساكنها على ساكنيها (ولا يخاف عقباها) أى ان الله فى عزته وجبروته أهلك هؤلاء المكذبين ولا يخاف عاقبة اهلاكهم لأنهم لا هو ظالم فيخيفه الحق ولا هو ضعيف فيتناوله المكروه تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً

فى هذا الذى سمعته فى خبر ثمود ما يدلك على جواب القسم كأنه قال والشمس وضحاها الخ لينزل بالمكذبين منكم مثل ما نزل بتمود اذ كذبت نبيها فأصابها العذاب فلستم بأشد بأساً منها ولا شقيكم أشد بطشاً من شقيها ولقد صدق الله وعده فأهلك من أهلك منهم فى واقعة بدر بأيدي المؤمنين ثم لم يزل العذاب والخزى ينزل بالمكذبين من أهل مكة ومن حولهم بالقتل تارة والابعاد أخرى حتى لم يبق فى جزيرة العرب مكذب ولو استمرت الدعوة على ما كانت عليه من نشأتها أيام الصحابة رضى الله عنهم لم يبق فى الارض مكذب والله أعلم

(والليل اذا يغشى) يتبدى فى هذه السورة بأن يقسم بالليل وهو الظلمة لأنها الأنسب بما ختمت به السورة السابقة من الدمدمه واطباق العذاب ولأنها أليق

وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى

بما عليه سعى أغلب الناس الذي سيدكر في قوله ان سعيكم لشتى والتعبير في الغشيان بالمضارع لما سبق من عروض الظلمة لاصل النور الذي هو أكمل مظاهر الوجود حتى عبر به عن الوجود نفسه أما (تجلى النهار) فهو لازم له لهذا عبر عنه بالماضى كما سبق بيانه (وما خلق الذكر والانثى) الذي خلق الذكر والانثى هو الله سبحانه وعبر عنه بما الفانا لنظر المخاطبين اليه من حيث هو سبب موجود فقط حتى لا يبادر منكر الالهية الى الانصراف عن الخطاب بمجرد الشعور بأن المتكلم يذكر له من صفات الله العلية مالا يعتقدده كما أشرنا اليه في تفسير السورة السابقة وانما أقسم بذاته بهذا العنوان لما فيه من الاشعار بصفة العلم المحيط بدقائق المادة وما فيها والاشارة الى الابداع في الصنع اذ لا يعقل أن هذا التخالف بين الذكر والانثى في الحيوان يحصل بمحض الاتفاق من طبيعة لاشعور لها بما تفعل كما يزعم بعض الجاحدين فان الاجزاء الاصلية في المادة متساوية النسبة الى كون الذكر أو كون الانثى فتكوين الولد من عناصر واحدة تارة ذكرا وتارة انثى دليل على أن واضع هذا النظام عالم بما يفعل محكم فيما يضع ويصنع (ان سعيكم لشتى) هذا هو جواب القسم يؤكده بالقسم السابق ما تضمنه هذا الخبر من أن سعى الناس مختلف مفترق في صفته ونوعه فمنه الحسن ومنه القبيح ومنه المفيد ومنه الضار ومنه ما ينقيه الاخلاص ومنه ما يعكره الرياء وطلب المكافأة عليه من الناس ولو بحسن الثناء على فاعله ومنه الاعطاء ومنه المنع ومنه التكذيب بالحسن ومنه التصديق بها ومنه التقوى ومنه الفجور ومفترق في عاقبته فمنه ما يشقى به الساعى ومنه ما يسعد به ثم فصل ذلك التفرق في النوع والعاقبة بقوله فأما من أعطى الخ فان خطر لك سؤال كيف يقسم سبحانه على أن سعى الناس شتى مختلف مع ان هذه القضية بديهية لان جميع من يفهم الخطاب يعلم أن مساعى الناس وأعمالهم مختلفة متنوعة الى هذه الانواع التي ذكرت ومثل هذا الخبر البديهي لا يحتاج الى تأكيد بل الاخبار به غير مفيد فاني أجيبك أولا بأن المقسم عليه هو الاجمال والتفصيل معا ولا شك في أن الوعد

فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى

على الاعطاء والتقوى والتصديق بالحسنى بالتيسير لليسرى والوعيد على البخل والاستغناء والتكذيب بالحسنى بالتيسير للعسرى يحتاج الى تأكيد فيكون التأكيد لمجموع الأخبار لالأول منها فقط . وثانياً ما أشرنا اليه في بيان معنى شتى من ان الافتراق واقع في أنواع الافعال وصفاتها وواقع في عاقبتها وما يعود منها على فاعلها ولما كان فعله الشر إنما اختاروا طريقه لاعتقادهم أن اتيانه أفضل عائدة عليهم من تجنبه وانه لا يفضي بهم الى مايكرهون كانوا كأنهم اعتقدوا بوحدة العاقبة في سعيهم وسعى مخالفهم من أهل الخير فاحتاج الأمر الى أن يؤكدهم الخبر بأن السعى مختلف في الغاية والعاقبة كما هو مختلف في الصفة والنوع وهذا هو الذي يشعر به وصل التفصيل بالفاء فان التفصيل سيق لبيان عاقبة كل قبيل من السعى فوصله بالفاء يفيد أنه كان شيئاً داخلاً فيما سبقه ثم كيف تزعم بداهة الخبر باختلاف الأعمال في الصفة مع أن البخيل مثلاً إنما يمسك الفضل من ماله ولا ينفقه في أعمال البر وهو يعتقد أنه لم يمنع حقاً وأنه وفي حق الحق لانب في توفير المال صون النفس عن الحاجة وتمتعها بالكرامة وعلو المنزلة وهو أمر مطلوب لاهل العقل فهو باعتقاده هذا قد أدخل عمله في جنس أعمال المقتصدين وأهل الوقار والكرامة وكذلك الحاسد مثلاً يرى مايصنعه في طلب الوسائل لازالة نعمة محسوده من باب السعى في ازالة المنكر والدفاع عن حق للنفس أو للعامة وهو بهذه العقيدة يدرج عمله في أعمال المجاهدين في انكار المنكر وحمل الناس على المعروف وهكذا يمكنك أن تخلص بنظرك في باطن كل مقترف لرذيلة فتجده يمثلها بمثال الفضيلة فقد اختلط عليه وصف مساعيه بوصف مساعى غيره وأنت ترى أغلب الناس على هذه الحال فكانوا في أشد الحاجة الى تأكيد الخبر بأن الاعمال والمساعى شتى مختلفة كل الاختلاف أو منزلين منزلة من يحتاج الى ذلك لتبليسهم على أنفسهم (فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى) أعطى المال لسد حاجة المسكين أو اغاثة المعدم الكريم أو للاعانة على النفع العميم (واتقى) أى خاف من الشر واىصال الإذى الى الناس فحصى نفسه من ذلك أو كره

وَصَدَقَ بِالْحُسْنَىٰ فَسَنِيْتِرُهُ لِلْيُسْرَىٰ

الفواحش ما ظهر منها وما بطن فوق نفسه من ارتكاب شيء منها (وصدق بالحسنى) أى بالخلصة التى هى أحسن من غيرها أى صدق بثبوت الفضيلة والعمل الطيب وبالفرق بين الفضيلة والرذيلة وبين العمل الطيب والخبيث واعتقد بأن هناك خيراً وشرّاً وان من مزايا الانسان أن يفعل الخير ويتجنب الشر فان التصديق بذلك هو مصدر الصالحات بلا ريب وهو مقدم فى الترتيب الوجودى على بذل المال فى سبيل الحق والرحمة وعلى اتقاء المفساد والخطايا ولكنه قدم هذين فى الذكر عليه للاهتمام بهما ولانهما الدليلان على تحققه حقيقة ولانهما ثمرته الدانية وكثير من الناس يظن نفسه مصداً بفضل الخير على الشر وأن الخير أولى بالانسان ولكن هذا التصديق قد يكون سراً فى النفس خيله الوهم وصوره التقليد الأعمى ثم لا يصدر عنه الأثر الذى يليق به بل تجد صاحبه ردىء الملكة قسى القلب بعيداً عن الحق قريباً من الباطل بخيلاً فى الخير مسرفاً فى الشر ولا تجد له مع ذلك كلاماً الا فى الفضيلة وحسن جزائها والرذيلة وسوء عاقبتها فهو كما يقول بعض الادباء (يحسن وصف الفضيلة وحروفها تن من لو كها بنمه ووخزها بسن قامه) فالتصديق بالحسنى لا يعد تصديقاً ولا ينظر الله اليه ولا يجود كرمه بالوعد عليه الا اذا صدر عنه أثره الذى لا ينفك عنه وهو بذل المال واتقاء مفسد الاعمال ومن فعل ذلك يسره الله ليسرى أى هياها لأيسر الخطتين وأسهلها فى أصل الفطرة وهى خطة تكميل النفس وانماها بالكمال الى أن تبلغ المقام الذى تجد فيه سعادتها وانما كانت هذه الخطة هى اليسرى والأسهل لتوفر الدواعى اليها وكثرة البواعث عليها فان الانسان انما يمتاز عن غيره من سائر الحيوان الاعجم بالتفكير فى الاعمال وتقدير ثمراتها ووزن نتائجها وحاجة كل انسان الى أن يعينه غيره ظاهرة كذلك بسداجة الفطرة فاحساسه بحاجة غيره واندفاعه الى سدها مما تنبه اليه الفطرة فأولى أن تنبهه الفطرة الى أن لا يلحق الأذى بمن لم يؤذِهِ وأن لا يأتي من القبائح شيئاً لظهور ضررها بالناس فهو مدفوع الى ذلك كله بأصل فطرته الانسانية لئلا يحتاج الى الاستقامة على

وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ

هذه الطريقة الى صحة عقل ينظر بنفسه فيما يختار ويميز بنظره فيما يسمع بين ما ينبغي أن يتبع وما يجب أن يدفع فاذا حصل الشخص ذلك وظهرت آثاره في أعماله سهل الله له ما هو مسوق اليه بأصل فطرته وهو تكميل نفسه لتسعد بمزاياها في الدنيا والاخرة وذلك لجري سنة الله في خلقه بأن كل عمل من أعمال العاقل يفتح له باب بصيرة في نوع ذلك العمل ويكون مبدءاً عادة للنفس تأنس بملاستها ففاعل الخير للخير يذوق لذته ويجد حلاوته فتزيد فيه رغبته وتشتد اليه عزيمته وهذا هو التيسير الالهى (وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى) أى ان من أمسك ماله أو أنفق في شهواته ولذاته ولم ينفقه في الطرق التى بينها فانه يعد باخلا على خلاف ما يعتقد كثير من الناس من أن البخيل هو الذى لا يتمتع بماله فى التلذذ بما كله ومشربه وملبسه فهذا بمجرد لا يعد بخلاً لا شرعاً ولا فى اصطلاح علماء تهذيب الاخلاق وإنما البخيل هو الذى لا يبذل ماله فى سبيل الخير خصت أو عمت وان أتفق جميع أمواله فى لذاته ولذات أمثاله أو هو الذى لا يعطى الحق فيما يطالبه به الحق ومنفعة العامة والمرحمة للخاصة من أعظم أنواع الحق (واستغنى) أى عد نفسه غنيا عن الناس بما لديه من المال فلا يرى له حاجة اليهم فلذلك لا يجد المرحمة فى قلبه لضعفائهم فيبذل ماله لدفع ضرورتهم ولا يحس بأنه عضو من جماعتهم فينفق من ماله فيما يعود بالمنفعة عليهم ولا يبالي بما يصيبهم من فساد أو سلامة فهو لا يتقى شراً يفعل فيه فيكون شريراً فاحشاً فمعنى استغنى يقابل معنى اتقى فى جميع مشتملاته وأمثال هؤلاء المستغنين الذين لا يحسون بوجود الناس الا عند حاجتهم اليهم كثير ونفياً بيننا بل هم الاكثر بل لا تكاد تجد بين المسامين سواهم فان الكلمة العامة فى أفواه جميعهم « نحن مالنا » « انامالى » و « دع الخلق للخالق » ونحو ذلك مما يطول سرده (وكذب بالحسنى) أى كذب بثبوت الفضيلة وبأنها أصل من أصول الإنسانية وركن من أركان وجودها فلا يعرف الا ما يلذ له ويمتعه فى حاضره ولا يبالي بما عدا ذلك ضر غيره أو نفعه وهذا التكذيب هو الاصل فى البخل

وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى

والاستغناء بمعناها السابق لان من صدق بالحسنى ذلك الضرب من التصديق الذى سبق بيانه لا يمكن أن يبخل ولا أن يستغنى بالمعنى الذى سبق ذكره ويدخل فى المكذبين بالحسنى أولئك الذين يتكلمون بها تقليدا لغيرهم ولكن لا يظهر أثرها فى أعمالهم فهم مكذبون رغم أنوفهم والله يعدمهم مكذبين مهما لبسوا على أنفسهم وهذا هو السر فى تقديم ذكر البخل والاستغناء على التكذيب بالحسنى لانهما أثرها وثمرتها فاذا ظهرا فى عمل الانسان ثبت تكذيبه بالحسنى ومن كانت حاله هذه فقد مرتت نفسه على الشر وتعودت على الخبث واستشرى فيها الفساد فيسهل الله له على حسب ما جرت به سنته سبحانه تلك الخطة العسرى وهى الخطة التى يخط فيها الانسان من نفسه ويغض من حقها وينزل بها الى حضيض البهيمية ويغمسها فى أوحال الخطيئة وهى أعسر الخطتين على الانسان لانه لا يجد معينا عليها لا من فطرته ولا من الناس ولو اتفق أن جماعة أو قوما فسدت أخلاقهم جميعا ووجد كل منهم فيمن حوله من يعينه على الشر سلط الله عليهم من غيرهم من ينزل العقاب بهم جميعا فيسلبهم ما آتاهم الله من نعمة ويضعهم تحت نير المذلة كما نشاهده ويقع تحت نظرنا كل يوم فلا ريب أن هذه الخطة هى أعسر الخطتين ولكن كاسب الشر معان عليها لتعود نفسه على مقارفة ما هو منها بسبيل (وما يغنى عنه ماله اذا تردى) ما استفهامية أى وماذا يفيد ماله اذا تردى وهلك سواء كان بالموت الذى يدركه عند أجله فهو يقبل على عذاب أليم أو تردى فى مغبات بخله وسيات أعماله بأن حل الانتقام به فى الحياة الدنيا فانه لا يجد من الناس منجداً ولا من رحمة الله مغيثاً فاذا يفيد ماله ولما كان هنا موضع أن يقول قائل كيف يخلق الله الناس ويكلهم الى أهوائهم ثم يعاقبهم على ما تجرهم اليه أو أن يقول اذا كان الله هو واهب تلك القوى والآلات البدنية فكل ما كان من متناولها وانساق اليه فهى مسيرة اليه بمقتضى غريزتها فكيف يؤاخذ الله على فعل فاعل أطلق الله له الارادة فى عمله وأعطاه القدرة عليه لما كان ذلك مما يقال فى جميع الازمان قال الله (ان علينا للهدى) أى اننا خلقنا الانسان

وَإِنَّا لِلْآخِرَةِ وَالْأُولَى فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى لَا يَصْلُهَا
إِلَّا الْأَشْقَى الَّذِي كَذَبَ وَتَوَلَّى وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى

وجعلنا من جوهر انسانيته العقل والاختيار وألهمناه التمييز بالعقل بين الحق والباطل وبين الخير والشر ثم بعثنا له من كلمة أفراده الانبياء وشرعنا لهم الاحكام وبيننا لهم العقائد تعليما له وارشادا فهذا هو ما يقتضيه خلق الانسان من حيث هو انسان ثم بعد ذلك هو مختار فلما أن يسلك مسلك الخير فيسلم ويسعد وامان يذهب مذهب الشر فيعطب ويشقى ومن هذا نفهم معنى علمنا فليس فيه أن ذلك واجب عليه كما يظنه بعض السفهاء بل معناه اننا حيث أردنا أن نخلق الانسان نوعا ممتازا عن سائر أنواع الحيوان كان لا بد في ارادتنا هذه أن نضع في جوهره ما يميزه وهو العقل وأن نضع له شريعة تعليمية حتى يعد بذلك نوعا ممتازا عن غيره من الانواع (وان لنا الآخرة والأولى) أى نحن المالكون للحياة الدنيا وهى الاولى وللحياة الآخرة وانما قدم الآخرة في الذكر مع أنها الآخرة في الوجود ليلبذر الى تأكيد وجودها اذا كان ملك الحياتين لله كان هديه هو الذى يجب اتباعه فيهما لان المالك لأمر عالم بوجوه التصرف فيه فما ممكنك منه بهداه وأرشدك اليه من ذلك فلا تحد عنه ولهذا المعنى تراه رتب على القضيتين « ان علمنا للهدى وان لنا للآخرة والأولى » قوله (فأندرتكم نارا تَلَظَّى) أى لرحمتنا بكم وعلمنا الكامل بمصالحكم أسدينا اليكم الهدى فأندرتناكم ناراً تلتهب وتلك النار أعدت في الآخرة لمن سيدكره الله بعد وهى نار يجب علينا الايمان بها ولكن لا ينبغي لنا البحث في حقيقتها لانها من أمور الآخرة التى استأثر الله بعلم حقائقها وانما هى عذاب أليم لمن يصلها (لا يصلها الا الاشقى الذى كذب وتولى) يصلها يعذب فيها والاشقى من هو أشد شقاء من غيره ومن كذب من وقع منه تكذيب ما وتولى أعرض عن وجهة الحق وانصرف ولم يعد اليها بالتوبة والندم (وسيجنبها الاتقى) أى ان أشد الناس تقوى هو الذى لا يدخل هذه النار بالمرة ولا يمسه لها* واعلم أن الناس أقسام منهم الابرار الذين منحهم الله من قوة العقل وصفاء اليقين ما بعد

بهم عن الفواحش ظاهرها وباطنها ودفعهم الى محاسن الاعمال جليلها وصغيرها فلم يقارفوا خطيئة ولم يقصروا في خير ومنهم الذين يلون هؤلاء وهم من تغلبهم الشهوة أحياناً فيقعون في الذنب أو يقصرون في الواجب ثم يثوب اليهم رشدهم فيتوبون ويندمون وهذان القسمان يدخلون في الأتقى وهم الذين ذكرهم الله في سورة آل عمران في قوله وسارعوا الى مغفرة الخ ومنهم من يخلط بين الخير والشر فيعتقد بالله مثلاً ويقترب بعض السيئات لكنه يصر عليها ولا يتوب عنها فهذا الاصرار منه يدل على أنه غير مصدق حق التصديق بما جاء فيها من الوعيد كما يرشد اليه العقل لأن البديهة تأبى أن يصدق الشخص بسوء عاقبة أمر تمام التصديق ثم يصر على اتيانه بدون أسف ولا ندم وكما تدل عليه السنة فقد ورد في الصحيح لا يزنى الزانى وهو مؤمن ولا يسرق السارق وهو مؤمن ومعناه أن صورة الوعيد وصورة الامر الالهى تذهب عن ذهن المخالف ويوجد عنده ضروب أخرى من الصور تقاوم أثر هذه في النفس وتغلب عليها فهذا الفاسق المصر يدخل في الاشقى وهو صنف من أصنافه لأنه كذب ضرباً ما من التكذيب وتولى فلم يرجع بالتوبة ومنهم الكافرون الجاحدون وهم صنف آخر من الاشقى فالنار التى وصفها الله يدخلها الفاسقون من المؤمنين تحت عنوان مكذبين متولين ضرباً من التكذيب والتولى تغليظاً عليهم ولكنهم لا يخلدون فيها ويدخلها الكافرون الجاحدون وهم فيها خالدون وينجو منها الأتقى بصنفيه الابرار والخالطين التائبين وانما صح دخول المصر في الاشقى لأن الخالط التائب له شقاء وكفى بالندم ومحاسبة النفس شقاء عظيماً لمن يعرف قدره وصح دخول الخالطين التائبين في قسم الأتقى لانهم أعظم تقوى من المصرين وفي المصرين على بعض السيئات شىء من التقوى يصددهم عن بعضها كما هو ظاهر فالخالط التائب والمؤمن المصر على خطيئة اذا لم تحط به خطيئته كل منهما يشارك صاحبه ويفارقه وبذلك أكسب كل صاحبه وصفه. الخالط التائب له شقاء بالندم والاسف فيشارك المصر في ضرب من الشقاء ويكون المصر أشقى منه والمصر فيه شىء من التقوى بالايمان فيشارك التائب في التقوى ولكن التائب أتقى منه وما أجمل مقاله الامام الغزالى في مثل هذا وانا نأتى بعبارة قال « كل علم يراد ليكون باعثاً على عمل فلا يقع التفصى عن عهدته مالم يصر باعثاً عليه فالعلم بضرر الذنوب انما أريد ليكون باعثاً على تركها فمن لم يتركها فهو

الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ

فاقد لهذا الجزء من الايمان وهو المراد بقوله عليه السلام لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن وما أراد به نفي الايمان الذي يرجع الى علوم الكاشفة كالعلم بالله ووحدايته وصفاته وكتبه ورسله فان ذلك لا ينافيه الزنا والمعاصي وانما أراد به نفي الايمان بكون الزنا مبعداً عن الله تعالى موجبا للمقت كما اذا قال الطبيب هذا سم فلا تتناوله فاذا تناوله يقال تناوله وهو غير مؤمن لا بمعنى أنه غير مؤمن بوجود الطبيب وكونه طبيباً وغير مصدق به بل المراد أنه غير مصدق بقوله انه سم مهلك فان العالم بالسم لا يتناوله أصلاً فالعاصي بالضرورة ناقص الايمان وليس الايمان بابا واحداً بل هو نيف وسبعون باباً أعلاها شهادة أن لا اله الا الله وأدناها امانة الاذى عن الطريق ومثاله قول القائل الانسان ليس موجوداً واحداً بل هو نيف وسبعون موجوداً أعلاها القلب والروح وأدناها امانة الاذى عن البشرية بأن يكون مقصوص الشارب مقلوم الاظفار نقي البشرة عن الخبث حتى يتميز عن البهائم المرسله الملوثة بأروائها المستكرهة الصور بطول مخالبتها وأظلافها وهذا مثال مطابق فالايمن كالانسان وفقد شهادة التوحيد يوجب البطلان بالكلية كفقد الروح والذي ليس له الا شهادة التوحيد والرسالة هو كإنسان مقطوع الاطراف مفقوء العينين فاقد لجميع أعضائه الباطنة والظاهرة لا أصل الروح وكما أن من هذا حاله قريب من أن يموت فتزايله الروح الضعيفة المنفردة التي تخلف عنها الاعضاء التي تمدها وتقويها فكذلك من ليس له الا أصل الايمان وهو مقصر في الاعمال قريب من أن تقتلع شجرة ايمانه اذا صدمتها الرياح العاصفة المحركة للايمان في مقدمة قدوم ملك الموت ووروده فكل ايمان لم يثبت في اليقين أصله ولم تنتشر في الاعمال فروعه لم يثبت على عواصف الاهوال عند ظهور ناصية ملك الموت وخيف عليه سوء الخاتمة « اه أفلا يجدر بمثل هذا أن يدخل في الاشقي الذي كذب وتولى هذا النوع من التكذيب والتولى ثم ذكر الاتقي بأفضل مزاياه فقال (الذي يؤتي ماله يتزكى وما لأحد عنده من نعمة تجزى الا ابتغاء وجه ربه

الْأَعْلَى وَلَسَوْفَ يَرْضَى

الأعلى ولسوف يرضى (الأتقى بقسميه سواء كان محسناً باراً أو كان ظالماً لنفسه تائباً يعطى من ماله في سبيل الله ومرحمة الفقراء لا لغرض آخر سوى أنه يريد أن يتزكى وأن تنمو نفسه وتتدرج في قوتها الروحية حتى تبلغ أشدها في الحياة الروحانية فتستوى على عرش الانسانية تستخدم قواها الجسدانية فيما خلقت لأجله فهو لا ينفق شيئاً من ماله رياء الناس يطلب به مدحتهم اللهم الا أن تكون هفوة من غير الأبرار وينفق من ماله وليس لأحد عنده يد سابقة يجب أن يجازيه بها أى ينفق من ماله على شخص وليس لذلك الشخص عنده نعمة يريد مكافأته عليها أما اعطاء المال على وجه المكافأة فهو ضرب من المعاملة والتجارة الدنيوية لا يتفاضل به الناس في الخير وإنما يريد المحسن والخالط بما ينفق وجهه به الأعلى أى يرغب مرضاته والعبارة معروفة في تخاطب العرب يقال فعلت كذا أبتغى وجه فلان أى لم يحملنى على الفعل الا اجلاله وقصد مرضاته وخيفة الوقوع فيما يغضبه ولذلك أتبع الآية بقوله ولسوف يرضى أى سوف يرضى الله عن ذلك الأتقى الطالب بصنعه رضاه . يجوز للأتقى أن يعطى من ماله لمكافأة نعمة عليه لأحد من الناس لكن ذلك لا يكون أثراً من آثار التقوى بل الذى يعد من آثار التقوى هو بذل المال في سبيل الخير كما قدمنا وقد يعرض لبعض الأفراد من قسم الأتقى أن يرأى في اتفاق ما ينفق من ماله لكنه يرجع فيندم ويتوب والتوبة تعود على العمل بالاخلاص وتبعث على العود الى الاتفاق مع خلوص النية فيه الله تعالى فيصدق عليه أنه يؤتى ماله يتزكى الخ والاستثناء في قوله الا ابتغاء وجه ربه الأعلى منقطع كما ترى والتعبير بسوف لأفادة أن الرضا يحتاج الى بذل كثير ولا يكفي القليل من المال لان يبلغ العبد درجة الرضا الالهى .

وبتفسير الأتقى والأشقى على النحو الذى سمعته تبطل تلك الاشكالات التى أوردها المفسرون في الحصر وما أشكل عليهم الا تقيدهم بالعادة في استعمال الفاظ كذب وتولى وتحكيمهم عاداتهم واصطلاحاتهم التى وضعوها من عند أنفسهم لا تقسمهم في كتاب الله تعالى وسنة رسوله . ثم انهم يوردون ههنا أسباباً للنزول وأن الآيات نزلت في سيدنا أبو بكر الصديق رضى الله عنه لأنه اشترى من أرقاء المسامين

سورة الضحى مكتبة وهي إحدى عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَاقَلَى وَلَلْآخِرَةُ
خَيْرُكَ مِنَ الْأُولَى وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى

ضعفاء وأعتقهم من ماله لا يبتغى في ذلك الا وجه الله ورووا غير ذلك وقالوا ان
الأسقى هو أمية بن خلف وقيل غير ذلك ومتى وجد شيء من ذلك في الصحيح
لم يمنعنا من التصديق به مانع ولكن معنى الآيات لا يزال عاماً كما رأيت والله أعلم
(والضحى) هو ضوء الشمس في شباب النهار (والليل اذا سجد) أى سكن
وسكون الليل هو ما تجده من سكون أهله وانقطاع الأحياء عن الحركة فيه ولما
كان السجو أو السجود من لوازم الظلمة جاء فيه بالماضى كالتجلى في النهار بخلاف
الغشيان في الليل فانه مما يعرض له في الاوقات القليلة يغشى فيها الضياء كما
سبق أما الضياء فيملك أغلب أجزاء الزمن (ما ودعك ربك وما قلى) أى ما تركك
ربك وما أبغضك وقرئ ودعك بالتخفيف وهى كذلك بمعنى تركك يقال قلاه يقلاه
وقلاه يقليه كرماء يرميه أى كرهه وأبغضه (وللآخرة خير لك من الأولى) أى
وانهاية أمرك خير لك من بدايته (ولسوف يعطيك ربك) من توارد الوحي عليك
بما فيه ارشاد لك ولقومك ومن ظهور دينك وعلو كلمتك واسعاد قومك بما تشرع
لهم واعلائك واعلائهم على الامم في الدنيا والآخرة (فترضى) بما تراه من تلك
النعم التى ليس وراءها مطلب لطالب . اتفقت الروايات على أن سبب نزول هذه
السورة هو حصول فترة في توالى الوحي على النبي صلى الله عليه وسلم فظن أوتوهم
أو قيل ان الله قد تركه وقلاه ثم اختلفت فيمن ظن أو توهم أو قال ولا حاجة
لنا بذكر ما اختلف فيه فان من المحقق وهو الذى يرشد اليه أسلوب السورة

الشريفة أن الله أراد أن يلتقى الطمأنينة في نفسه عليه السلام بتأكيد تلك الأخبار التي ذكرها واحداً بعد الآخر وأن يستدل له على أن هذه الأخبار لا ريب فيها بما سبق من فضل الله عليه فالذى يعطف عليه بعنايته فيما سبق لا يزال يؤيده بتلك العناية فيما يلحق ثم أنه رتب على سبوغ تلك النعم أمره لشخصه الكريم بتلك الأوامر التي جاءت في قوله فأما اليتيم الخ وليس في نسق السورة ما يشير إلى أن المشركين أو غيرهم بغرض من الخطاب ومن أين كان للمشركين أن يعلموا فترة الوحي فيقولوا أو يطعنوا ولكن ذلك كان شوق النبي صلى الله عليه وسلم إلى مثل ما رأى وما فهم عن الله وما ذاق من حلاوة الاتصال بوحيه وكل شوق يصحبه قلق وكل قلق يشوبه خوف وهو صلى الله عليه وسلم بشر يعلم به عن البشر الوحي وحده كما ذكره الله تعالى في مواضع كثيرة من الكتاب نحو قوله قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى الخ وقد جاء في الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم حزن لفترة الوحي حزناً غداً منه مراراً حتى يتردى من رؤوس شواهق الجبال ولكن كان يمنعه تمثل الملك له وأخباره بأنه رسول الله حقاً كما يأتي ذكره في سورة اقرأ باسم ربك فذلك هو القلق والفرع الذي يحتاج إلى ما به تكون الطمأنينة فاتاه الله ما كان في شوق إليه وثبته بالوحي وبشره أن تلك الفترة لم تكن عن ترك ولا عن قلى وأقسم له على ذلك وأشار في القسم إلى أن ما كان من سطوع الوحي على قلبه أول مرة بمنزلة الضحى تقوى به الحياة وتنمو به الناميات ومعرض بعد ذلك فهو بمنزلة الليل إذا سكن لتستريح فيه القوى وتستعد فيه النفوس لما يستقبلها من العمل ومن المعلوم أن النبي صلى الله عليه وسلم لاقى من الوحي شدة في أول أمره حتى جاء إلى خديجة رضى الله عنها ترجف بوادره كما هو معروف في حديث الصحيحين وغيره فكانت فترة الوحي لتثبته عليه السلام وتقوية نفسه على احتمال ما يتوالى منه حتى تتم به حكمة الله تعالى في إرساله إلى الخلق ولهذا قال له وللآخرة خير لك من الأولى أى أن كرامة الوحي ثانياً سيكمل بها الدين وتتم بها نعمة الله على أهله وأين بداية الوحي من نهايته وأين الاجمال الذي جاء في قوله اقرأ باسم ربك الذى خلق الخ من تفصيل العقائد والاحكام الذى جاء في مثاني القرآن ثم زاد الامر تأكيداً بقوله ولسوف يعطيك ربك فترضى على ما بيناه كأنه عليه السلام كان يجد في نفسه أن الامر تنمة لم تأت بعد

أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى

وكان في الفترة ابطاء بتلك التتمة وهو شغف بحصولها فلم تكن نفسه راضية دون أن يبلغ ما أعده له من اكمال دينه فأكد له الوعد بأنه سيعطيه مما تتطلع نفسه اليه ولا يزال يعطيه حتى يرضى ويعلم عباده المؤمنين بقوله تعالى اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً وقد كان ذلك في أكثر من عشرين سنة فاستعمل حرف التسوييف لذلك

وللمفسرين هنا كلام في الشفاعة وفي تكريم آل بيت النبوة حشروه في التفسير حشراً وأكثره بعيد عن روح الدين الذي جاء به القرآن والأليق به كتب المذاهب التي ساء بها حال المسلمين وتفرقت بسببها كلمتهم

(أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى) التعبير بلم يجدك ووجدك على متعارف الخطاب في لسان العرب أى لم تكن كذلك وكنت كذلك وأصل المعنى في وجدت فلاناً كريماً مثلاً أنى لم أكن أعرف منه الكرم فعرفته وذلك لا يكون في جانب الله تعالى لكنه استعمل في الاخبار بالكرم ونحوه أو المعنى ألم يعلم يتمك وضلالك المح والاسْتِفْهَام على كل حال للتقرير أى انك كنت كذلك وكان صلى الله عليه وسلم يتيم لأن والده توفي في المدينة وهو حمل في بطن أمه فلما وضعت عطف الله عليه قلب جده عبد المطلب وقلب مرضعه حليلة على يتمه وكفله جده خير كفالة ثم مات جده وهو في سن ثمان سنين فكفله عمه أبو طالب بوصية من أبيه عبد المطلب وكان شديد العناية به في صغره عظيم المحبة له في كبره وما زال يحميه وينصره بعد أن أكرمه الله بالنبوة حتى قبض وتجرأت قريش على النبي صلى الله عليه وسلم بعد موت عمه حتى اضطرتة الى الهجرة الى المدينة فذلك ايواء الله لنبيه وهو يتيم (ووجدك ضالاً فهدى) نشأ صلى الله عليه وسلم موحداً لم يسجد لصنم وظاهر الخلق لم يقترب فاحشة حتى عرف بين قومه بالاميز فضلال الشرك وضلال الهوى في العمل كانا بعيدين عن ذاته الكريمة يرهبان الدنو من نفسه القويمة نزهه الله عنهما من أول أمره ليعلى منزلته عند من يرسل اليهم فيسمعوا قوله ويهتدوا بهديه ولكن للضلال أنواع آخر منها اشتباه المآخذ على النفس حتى تأخذها الحيرة فيما

ينبغي أن تختار وقد عرف صلى الله عليه وسلم فساد دين قومه من مشركي العرب ولكن كان بين يديه دين النصرانية على ما كان عليه أهله ودين اليهودية وكلاهما دين توحيد وفي كليهما شريعة لنبي فهل في اختيار أحد الدينين مصلحة له ولقومه وهل في الدعوة إلى ما يختار منهما فلاح لنفسه ولشعبه وهو عليه السلام أمى لا يقرأ الكتب ولا يعرف ما حوته تلك الأديان من الأحكام والشرائع . كيف كان يصلح ذلك وأهل كل من الدينين لم يكونوا في حالهم أرشد من قومه فكان شئ من الشرك يشوب عقائدهم وكثير من السيئات والجرائم تدنس أعمالهم وحججهم على الإقامة عليها ما ينسبونونه إلى دينهم من نص أو تأويل وأعظم أنواع الضلال كانت الحيرة في أمر العرب أنفسهم يراهم صلى الله عليه وسلم في سخافة عقائدهم وضعف بصائرهم باستيلاء الأوهام عليهم وفساد أعمالهم وشؤم تلك الأعمال في أحوالهم وتفرق كلمتهم وتفانيهم بتسافك الدماء واشرافهم على الهلاك باستعباد الغرباء لهم وتحكم الأجانب فيهم الحبشة ثم الفرس من جانب والرومان من جانب آخر ثم هم في غفلة عن مصيرهم ينفرون من الذل ويمدون أيديهم إلى أسبابه وينفرون من الموت وهم يتدافعون على أبوابه فما العمل في تقويم عقائدهم وتخليصهم من تحكم عاداتهم فيهم وأى طريق ينبغي أن تسلك في إيقاظهم من سباتهم ومن أى الأبواب يمكن أن يدخل إلى قلوبهم ما أشدها حيرة على الصديقين وما أعظمها ظلمة تغشى السالكين من أهل الصدق واليقين إلى أن يكشفها الله بالنور المبين وهي حيرة لم يكمل الحظ من شرفها إلا للنبیین والمرسلين صلوات الله عليهم أجمعين فهذا هو الذى عناه الله بالضلال فى هذه الآية الكريمة وما أعظم الهداية فى ذلك الضلال وما أجدره بالكل من الرجال وبعد هذا وهذا من اهتدى إلى الله وعرف أنه خالق الخلق كلهم وأنه وحده المستحق للعبادة دون أحد منهم هل يدرى بنفسه بغير وحى الهى كيف يعبده وبأى وصف يصفه ويمجده والناس من حوله قد شبهوه بخلقه وقاسوه على ما يعرفون من صنعه أفلا يحار الموحّد كيف يصف ربه وبأى الوسائل يطلب قربه كل هذه الضروب من الحيرة كانت من حظه عليه الصلاة والسلام قبل أن تطلع عليه شمس النبوة وللخلاص منها كان يطلب الخلوة بغار حراء ويتلمس هداية ربه فى جوانب قلبه إلى أن سطع عليه نور الوحي فانتشله من هذا كله واختار له ديناً قويمًا وعلمه كيف يرشد قومه وسن له الطريق

وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ

في تخليصهم وتخليص العالم مما كان فيه من فساد العقل وسوء العمل وهداه الى وصف ذاته بما يليق بذاته وأى نعمة أكبر وأجل من هذه النعمة هذا هو معنى قوله ووجدك ضالاً فهدى وهو معنى قوله في سورة الشورى « وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى الى صراط مستقيم صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الارض الا الى الله تصير الامور » وليس فى وصف النبى عليه السلام بالضال على هذا المعنى شين له أو حط من شأنه بل هذا هو فخره عليه السلام واكليل مجده لم يكن عالماً فعلمه الله ولم يكن مطلعاً الى الغيب فأطلعه الله وبهذا التفسير تستغنى عن خلط المفسرين فى التأويل (ووجدك عائلاً فأغنى) العائل الفقير وقد كان صلى الله عليه وسلم فقيراً لم يترك له والده من الميراث الا ناقة وجارية فأغناه الله بما ربحه فى التجارة وبما وهبته خديجة من مالها فمن آواك فى يتمك وهداك من ضلالك وأغناك من فقرك لا يتركك فى مستقبل أمرك .

من ذاق مرارة الضيق فى نفسه فأجدر به أن يستشعرها فى غيره فيمنحه ما كان هو بصدد أن يستمنحه كان صلى الله عليه وسلم يتيماً فباعده الله عنه ذل اليتيم وآواه فما أجدره عليه السلام بأن يكرم كل يتيم شكراً لله على نعمته لهذا قال الله (فأما اليتيم فلا تقهر) أى فلا تذله بل ارفع نفسه بالأدب وهدبه بمكارم الاخلاق ليكون عضواً فى جماعتك ينفعها وتنتفع به ولا يفسده التذليل والهوان فيكون جرثومة فساد يتعدى أذاها الى كل من يخالطها من أمتك ولو علم الناس ما فى اهمال تربية الأيتام من الفساد فى الامة لقدروا عناية الله بأمرهم فى كتابه قدرها ولبدلوا من سعيهم ومن ما لهم فى اصلاح حال الايتام كل ما استطاعوا ولو أحس كل واحد بأن الموت قريب منه وأنه هدف انبله لا يدري متى يأخذه عن ولده فيتركه اما غنياً يأكل ماله الأوصياء أو فقيراً يستذله الأدياء لتسابقوا الى تقويم أمر اليتيم تسابقهم الى اللذة والنعيم كان صلى الله عليه وسلم حيراناً

وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ

فأنتقذه الله من حيرته فمن حق رعاية هذه النعمة أن يرأف بالخائرين لهذا قال الله له (وأما السائل فلا تنهر) والسائل هو المستفهم عما لا يعلم وليس هو طالب الصدقة فإن هذا اللفظ لم يرد في كتاب الله عنواناً للفقير والمسكين بل جرت سنة الكتاب المبين على ذكرهما بوصفهما ثم انه لا معنى لجمعه مقابلاً لقوله ووجدك ضالاً بل كان من حقه أن يكون مقابلاً لقوله ووجدك عائلاً على أنه لا يصحح أن يكون مقابلاً لهذا أيضاً لأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن سائلاً قط ومعنى لا تنهر لا تزجر أى لا تزجر سائلاً مستفهماً مسترشداً وإن ضعف عقله وعظم جهله فقد ذقت من ألم الحيرة ما يعطفك على المنحيرين طلاب الارشاد في العلم والدين وقد اخترعوا أحاديث في السائل لا أصل لها ويتنزه صلى الله عليه وسلم عن أن تنسب اليه .

من عادة البخلاء أن يكتموا ما لهم لتقوم لهم الحجة في قبض أيديهم عن البذل فلا تجدهم الا شاكين من القل اما الكرماء فلا يزالون يظهرون بالبذل ما آتاهم الله من فضله ويجهرون بالحمد لما أفاض عليهم من رزقه فلم هذا صح أن يجعل التحديث بالنعمة كناية عن البذل واطعام الفقراء واعانة المحتاجين فهذا هو قوله (وأما بنعمة ربك فحدث) أى أنك لما عرفت بنفسك ما يكون فيه الفقير فأوسع في البذل على الفقراء وليس القصد هو مجرد ذكر الثروة فإن هذا من التفتخنة التي يتنزه عنها النبي صلى الله عليه وسلم ولم يعرف عنه في امثال هذا الأمر أنه كان يذكر ما عنده من نقود وعروض ولكن الذي عرف عنه أنه كان ينفق ما عنده ويبيت طاوياً وقد يقال أن المراد من النعمة النبوة ولكن سياق الآيات يدل على أن هذه الآية مقابلة لقوله ووجدك عائلاً فتكون النعمة بمعنى الغنى ولو كانت بمعنى النبوة لكانت مقابلة لقوله ووجدك ضالاً وقد علمت الحق في مقابله والله أعلم

سورة الانشراح مكية وهي ثمان آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ
الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ) الشرح التوسعة والبسط وعظم الصدر من الجسم كان عند العرب دليل القوة وعظم المنة وكثيراً ما يفتخر مفتخرهم بعظم صدره ولهم الحق لأنه يعطى الاحشاء فسحة للنمو مع الراحة والقوى قاهر لما ينتابه فهو في مسرة وحضور رأى دائماً لا يضيق ذرعه بأمر، ولذلك كنوا بشرح الصدر عن المسرة وانبساط النفس الى الفعل والقول وقد شرح الله صدر نبيه باخراجه من تلك الحيرة التي كان يضيق لها صدره بما كان يلاقيه في سبيله من جمود قومه وعنادهم فكان يلتمس الطريق لهدايتهم فعلمه الله كيف يسلك الى نفوسهم وهداهم بالوحى الى الدين الذى ينقذهم به من الهلكة التي كانوا أشرفوا عليها وقد كان ما بهم من أمرهم حملاً ثقيلاً عليه فوضعه الله عنه وأراحه من ثقله بقيادة الله له في سبيل نجاتهم وتعهدوا بالوحى كلما التبس عليه أمر أو ضاق عليه مذهب فهذه الهداية التي تكفل له بها قد وضع عنه ذلك العبء الثقيل كما قال (ووضعنا عنك وزرك الذى أنقض ظهرك) والوزر هو الحمل وانتقاض الظهر ان يحدث فيه صوت الانتقاض والانتفكاك ونقيض الظهر الصوت الذى يحدث فيه لثقل الحمل وهو معروف والكلام على التمثيل فان ما كان يحمله عليه السلام من ثقل الاهتمام بشأن قومه وضيق المذاهب بين يديه قبل تواتر الوحى عليه بالارشاد لم يكن ثقلًا حسيًا ينقض منه الظهر ولكنه كان هماً نفسياً يفوق ألمه ألم ذلك الثقل الحسى الممثل به فعبر عن الهم الذى تبخع به النفوس بالحمل الذى تقصم له الظهر .

وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا

هداه الله الى اتقاد أمة بل أم كثيرة من رق الاوهام وفساد الاحلام ورجع بهم الى الفطرة السليمة حرية العقل والارادة والاصابة في معرفة الحق ومعرفة من يقصد بالعبادة فاتحدت كلمتهم في الاعتقاد بالاله الواحد فاستخلصوا حياة كانت في مخالاب الموت كما قال وكنتم على شفا حفرة من النار فأتقذكم منها فمن كان هذا عمله فأى ذكر أرفع من ذكره وأى شأن أعلى من شأنه هذا الى ما فرض الله من الاقرار بنبوته والاعتراف برسالته بعد بلوغ دعوته وجعلها شرطاً في دخول جنته فهذا هو قوله تعالى (ورفعنا لك ذكرك) والاتيان بالجاء والمجرور «لك وعنك» وتقديمه على المفعول فى الآيات الثلاث لزيادة التقرير والاسراع بالتبشير .

هذا الذى منحناه من شرح الصدر ووضع الوزر ورفع الذكر بعد ضيق الأمر واستحكام حلقات الكرب فى أول السير كان على ما جرت به سنتنا فى هذا النوع من خليقتنا وهو أن مع العسر يسراً ولهذا وصل العبارة بالفاء التى لبيان السبب فى قوله (فان مع العسر يسراً) أل فى العسر للاستغراق ولكنه استغراق المعهود عند المخاطبين من أفراد أو أنواعه فهو العسر الذى يعرض من الفقر والضعف وجهل الصديق وقوة العدو وقلة الوسائل الى المطلوب ونحو ذلك مما هو معهود ومعروف فهذه الانواع من العسر مهما اشتدت وكانت النفس حريصة على الخروج منها طالبة لكشف شدتها واستعملت من وسائل الفكر والنظر والعمل ما من شأنه أن يعد لذلك فى معروف العقل واعتصمت بعد ذلك بالتوكل على الله حتى لا تضعفها الخيبة لأول مرة ولا يفسخ عزيمتها ما تلاقيه عند الصدمة الاولى فلا ريب فى أن النفس تخرج منها ظافرة وقد كان هذا حال النبي صلى الله عليه وسلم فان ضيق الامر عليه كان يحمله على الفكر والنظر حتى آتاه الله ما هو أكبر من ذلك وهو الوحي والنبوة ثم لم تكسر مقاومات قومه شيا من عزمه بل مازال يلتمس الغنى فى الفقر والقوة فى الضعف حتى أوتى من ذلك ما زعزع أركان الاكاسرة والقياسرة وترك منه لا أمته ما تمتعت به أعصاراً طويلاً وما كان أحقها بأن تتمتع بهذا الميراث الكريم لو بقيت أمة له حقيقة كما هى أمة له أسماً ولكنها قطعت النسب

إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا

بينها وبين مورثها فسلبها الله مترك لها من ميراث وأعطاه أعداءها شأن الله مع من لا يشعر بشرف بيته ومكانه من حسبه وانما بقيت لها ألقاب وأسماء كما يبقى للسفهاء من آبائهم الاغنياء وكان في هذه الآية عبرة لهذه الأمة وكان عليها أن تعرف أن مع العسر يسراً وأن وعد الله في ذلك حق وأن تقتدى بنبيها في طلب الوسائل للخلاص مما هي فيه وعندها كتاب الله وحده هداية للمهتدى وقودة للمقتدى .

ولما كانت القضية موضعاً للريب خصوصاً عند من أخذ الضيق بخناقه أكدت بأن ولما كان الشك يزداد بل قد ينتهي الى الانكار في بعض أنواع العسر استأنف القضية نفسها وأعادها بلفظها فقال (ان مع العسر يسراً) ولكن على أن يكون معناها أعم من معنى سابقها .

قد تقع أُمُّ أو أشخاص في ضرب من ضروب العسر من نوع ماسبق ثم يجدون الضعف من همهم عن الخلاص مما أطبق عليهم منه فيدوم لهم العسر وقد يموتون وتنشأ فيه أعقابهم فأين اليسر الذي يصحب العسر عندهؤلاء ومن ضروب العسر ما يختلف نوعه عن المعهود كالمرض الطويل المفضي الى الموت وكالزمانة التي تصحب الزمن من أول حياته الى مماته فأى يسر جاء مع عسرها فجاءت هذه الآية المستأنفة لرفع هذا الاشتباه في عموم السنة الالهية وذلك أن أولئك الذين استعملوا ما وهبهم الله من القوى للخلاص مما ينزل بهم اذا كان مما يمكن كشفه لاريب في كشف العسر عنهم بنوع من أنواع اليسر كما وقع للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه أما الآخرون الذين لا بصيرة عندهم في تصريف تلك المواهب الالهية بل يطلبون أن ينتهوا الى الغايات بغير بدايات وأن يصلوا الى المقصد بغير وسيلة فلا يستعملون عقولهم ولا عزائمهم في دفع ما يحل بهم وليس لهم ثقة بربهم فيعملوا معتمدين عليه هؤلاء يحسون بالألم حيناً ثم تخنس نفوسهم وتقع في حجر من الاستكانة وتستقر فيها طمأنينة الرضى بما غمرها من الضر فتسلب الاحساس به ثم اذا طال بها الزمن فيه تحول الألم الى لذة بالمعتاد ولا عجب من تحول الألم الى لذة فانك تراه في شارب الدخان مثلاً يألم لأول مرة بل قد يأخذه الدوار وأشد آلام الصداغ ثم لا يلبث أن يكون

فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ

عادة مرغوبة يألم أشد الألم لتركها ومن هذا تجد الألم التي تعودت على عسر الاستبداد والظلم قد ألقت ذلك حتى صار يصعب عليها أن تحتمل غيره ولا تزال تحن اليه وكلما طلب إبعادها عنه اندفعت بالاقبال عليه فهذا نوع من اليسر وإن كان أشأم من العسر ولكن أليست النفس راضية به مطمئنة اليه أما المرض الطويل الممتد الى الموت والزمانة مما لا يمكن كشفه فلك أن تقول أنه لا يدخل في أنواع العسر التي شملها استغراق العهد فإن الاستغراق للعسر والضيق للمعهودين وهما ما يمر بالخاطر اذا وقع الحديث على العسر أو الضيق وذلك هو الأنواع التي ذكرناها في تفسير الآية السابقة « فإن مع العسر يسراً » وبالجملة فالعسر الداخل في الاستغراق هو كل ما تجد النفس ألم الوقوع فيه وتنزع الى طاب الخلاص منه بالوسائل التي سنها الله لذلك الخلاص ولا ريب في أن كل عسر من هذا القبيل فعه يسر يسوقه الله الى العامل الآمل العاقل جزاء عمله لتحقيق أمله واستعماله لموهبة عقله أما مثل الزمانة والمرض الطويل فيدخلان في نحو قوله فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون وكذلك يقال في عارض يعرض للأمة اذا حم هلاكها كزلازل ونحوه والله أعلم وتنكير اليسر لأن الذي يأتي بعد العسر أي نوع من أنواعه لا يختص بيسر معين والتعبير بالمعية لتوثيق الأمل بأنه لا بد منه كأنه معه اذا علمت أن مع العسر يسراً فاعلم أن مع التعب في العمل النافع راحة (فإذا فرغت) من عمل من أعمالك النافعة لك ولأمتك (فانصب) أي خذ في عمل آخر واتعب فيه فانك تجد لذة الراحة عقب النصب بما تجنيه من ثمرة العمل (وإلى ربك فارغب) أي لا ترغب الى أحد في استثمار أعمالك الا الى الله وحده والسورة مكية عند الجمهور بل زعم بعضهم أنها تنمة لسورة الضحى وعلى هذا تكون المنة بشرح الصدر مبنية على عود الوحي والتبشير بما جاء في سورة الضحى وقال البقاعي انها مدنية بناء على ما يفهم من التقرير بشرح الصدر وما بعده وهذا انما كان بعد ظهور القوة وبعد أن فتح الله على المسلمين مفتح عليهم وأكمل لهم النعمة بغلبة حقهم على باطل عدوهم والله أعلم

سورة التين مكتوبة وهي ثمان آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونِ وَطُورِ سَيْنِينَ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ

(هذا البلد الأمين) هو مكة المشرفة ولقبه بالأمين لأن الله حرم فيه القتل والاعدام حتى للأشجار والنبات ما عدا بعض أنواع منه استثنيت لحاجة الناس إليها فهو بلد مأمون الغائلة لا يخافه من يحله والقسم به للتنويه بقدره خصوصاً وهو مبعث نور الاسلام (وطور سينين) هو الجبل الذي كلم الله موسى صلى الله عليه وسلم عليه ويقال له طور سيناء بفتح السين وكسرهما وقرى سينين بفتح السين وهي لغة بكر وتميم ويقال ان سينين والياسين والفلسين وأمثال هذا الوزن من لغة أهل اليمن وعرب الجنوب وسينين قيل اسم للبقعة التي بجوار الجبل وقال الاخفش سينين جمع بمعنى شجر واحدة سينة وقيل غير ذلك والقسم به لرفع ذكره والتذكير بما كان عند ذلك الجبل من الآيات الباهرات التي ظهرت لموسى ولقومه وما كان بعد ذلك من سن الشريعة الموسوية وازال التوراة (والتين) قيل جبل في دمشق ويسمى طور تينا لأنه منبت التين وقيل أن التين هو مسجد دمشق وقيل هو مسجد نوح عليه السلام الذي بناه على الجودي وقيل موضع الكوفة لأنه كان منزلاً لنوح عليه السلام وقيل جبل ما بين حلوان وههذان والقسم به للتذكير بأمر نوح وما أهلك الله به أهل الفجور والفساد وأنجى الله المؤمنين الصالحين وأما على أنه جبل في دمشق أو مسجد هاهنا فلا تفهم للاقسام به حكمة بل يكون مما لا يعلمه الا الله (والزيتون) قيل هو طور زيتا وهو جبل ببית المقدس وقيل هو بيت المقدس نفسه وسماه بالزيتون لكثرة شجر الزيتون فيما حوله وبالجملة فعلى هذه الأقوال يكون التين والزيتون كناية عن مواضع وليس المقصود هو الاقسام بالأشجار نفسها وإنما كنى بها عن مغارسها وقال قليل

لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ

من المفسرين ان الاقسام هو بالنوعين لذاتهما التين والزيتون قالوا لكثرة فوائدهما ولكن تبقى المناسبة بينهما وبين طور سينين والبلد الأمين وحكمة جمعهما معهما في نسق واحد غير مفهومة ولهذا رجح أنها موضعان وقد يرجح أنها النوعان من الشجر ولكن لالفوائد هما كما ذكرنا بل لما يذكرا في به من الحوادث العظيمة التي لها الآثار الباقية في أحوال البشر قال صاحب هذا القول ان الله تعالى أراد أن يذكرنا بأربعة فصول من كتاب الانسان الطويل من أول نشأته الى يوم بعثة النبي صلى الله عليه وسلم فالتين اشارة الى عهد الانسان الاول فانه كان يستظل في تلك الجنة التي كان فيها بورك التين وعند ما بدت له ولزوجته سوءاتهما طفقاً يخفضان عليهما من ورق التين . والزيتون اشارة الى عهد نوح عليه السلام وذريته وذلك لأنه بعد أن فسد البشر وأهلك الله من أهلك منه بالطوفان ونجى نوحاً في سفينته واستقرت السفينة نظر نوح الى ماحوله فرأى المياه لا تزال تغطي وجه الارض فأرسل بعض الطيور لعله يأتي اليه بخبر انكشاف الماء عن بعض الارض فغاب ولم يأت بخبر فأرسل طيراً آخر فرجع اليه يحمل ورقة من شجر الزيتون فاستبشر وسر وعرف أن غضب الله قد سكن وقد أذن للأرض أن تعمر ثم كان منه ومن أولاده تجديد القبائل البشرية العظيمة في الارض التي محى عمرانها بالطوفان فعبّر عن ذلك الزمن بزمن الزيتون والاقسام هنا بالزيتون للتذكير بتلك الحادثة وهي من أكبر ما يذكّر به من الحوادث . وطور سينين اشارة الى عهد الشريعة الموسوية وظهر نور التوحيد في العالم بعد ما تدنست جوانب الأرض بالوثنية وقد استمر الأنبياء بعد موسى يدعون قومهم الى التمسك بتلك الشريعة الى ان كان آخرهم عيسى صلى الله عليه وسلم جاء مخلصاً لروحها مما عرض عليه من البدع ثم طال الأمد على قومه فأصابهم ما أصاب من قبلهم من الاختلاف في الدين وحجب نوره بالبدع واخفاء معناه بالتأويل واحداث ما ليس منه بسبيل فمن الله على البشر ببداية تاريخ ينسخ جميع تلك التواريخ ويفصل بين ما سبق من أطوار الانسانية وبين ما يلحق وهو عهد ظهور النور المحمدي من مكة المكرمة واليه أشار بذكر البلد الامين وعلى هذا القول الذي فصلنا بيانه يتناسب القسم والمقسم عليه كما ستري (لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم) التقويم

ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ

التعديل وكثيراً ما يطلق المصدر ويراد منه أثره أى فى أحسن اعتدال وأفضل قوام فيقسم جل شأنه أنه قوم الانسان أفضل تقويم وركبه أحسن تركيب وأكده ذلك لأن الناس بغفلتهم عما كرمهم الله به من العقل كأنهم ظنوا أنفسهم كسائر أنواع العجاوات يفعلون كما تفعل لا يمنعمهم حياء ولا تردهم حشمة خصوصاً وقد قال بعضهم أن الانسان خلق ميلاً الى الشر فيقول الله سبحانه تبدينا لفساد هذه المزايم أنه فطر الانسان أحسن فطرة نفساً وبدناً وكرمه بالعقل الذى ساد به على العوالم الارضية واطلع به على ماشاء الله من العوالم السماوية وقد كان الانسان فى سداخته بعيداً عن الأثرة حتى القلب بالتراحم كما تراه فى حال الاطفال فعاش سعيداً وعاش أفراداً فى نعيم الطمأنينة كان ذلك زمننا وهو العهد الاول وما شبهه بشمرة التين تؤكل كلها ولا يرمى منها شيء والانسان كان صلاحاً كله لم يشذ عن الجماعة منه فرد تلك كانت أيام القناعة بما تيسر من العيش وشدة الاحساس بحاجة كل فرد الى الآخر فى تحصيله وفى دفع العوادي عن النفس . تنبهت الشهوات بعد ذلك وتخالفت الرغبات فبذت الحسد والحقد وتبعه التقاطع والتقاتل واستشرى الفساد بالانفس حتى صارت الامانة عند بعض الحيوان أفضل منها عند الانسان فانحطت بذلك نفسه عن مقامها الذى كان لها بمقتضى الفطرة وقد كان ذلك ولا يزال حال أكثر الناس فهذا قوله (ثم رددناه اسفل سافلين) أى صيرناه اسفل من كثير من الحيوانات التى كانت اسفل منه لأن الحيوان المفترس مثلاً انما يصدر فى عمله عن فطرته التى فطر عليها لم ينزل عن مقامه ولم ينحط عن منزلته فى الوجود أما الانسان فانه باهماله عقله وجهله بما ينبغى أن يعمل لتوفير سعادته وسعادة اخوانه ينقلب أرذل من سائر أنواع الحي ولكثر ما قلت « اذا فسد الانسان فلا تسلم عما يصدر عنه من هذيان أو عدوان » ثم أن الذين ارتدوا الى اسفل سافلين منهم من هلك فى زمن نوح أو فى أزمان آخر ومنهم من سيهلك وهم فى تلك المنزلة من الخسة فتدوم لهم كذلك فى الحياة الأخرى وللسافلين فيها منازل العذاب والحزى والهون

إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ فَمَا
يُكَذِّبُكَ بَعْدَ بِالذِّينِ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ

(الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون) استثنى الله المؤمنين الذين يؤمنون بموجد الكائنات وبأن الله قد وضع شريعة للخير والشر وميز بينهم وأنه يجزى القائم على الشريعة باتيان الخير وتجنب الشر بالسعادة فلذلك يدلون على ايمانهم بالأعمال الصالحة وهى معروفة عند عامة البشر وجماعها العدل والاحسان فهؤلاء قد حفظوا منزلتهم من الانسانية واستبقوا لأنفسهم ذلك الاعتدال الفطرى فلهم أجر الكرامة فى الدنيا فاذا جاءهم الموت امتد بهم النعيم الى الآخرة فأجرهم غير ممنون أى غير مقطوع هؤلاء المؤمنون هم الانبياء وأتباع الانبياء ومن هداهم الله الى دين الحق من كل أمة وهم الذين أكرم الله بهم النوع البشرى واستبقى بهم منزلته السامية فى عالمه وما تراه فى الاثم من آثار باقية فانما هو من آثار همهم فاذا كنت ترى ذلك أيها الانسان (فما يكذبك بعد بالدين) الدين ههنا هو خلوص السريرة للحق وقيام النفس بصالح العمل وهو ما كان يدعو اليه صلى الله عليه وسلم وسائر اخوانه الانبياء وهو استفهام انكارى أى لا يوجد سبب يملك على التكذيب بالدين بعد أن عرفت أن الانسان قد خلق كريماً وان الذى يحفظ كرامته انما هم المؤمنون الصالحون وهم أهل الدين الصحيح (أليس الله بأحكم الحاكمين) أى هل تنكر أن الله أحكم من حكم ودبر وهو استفهام انكارى ما كنهه أن الله أعلى المدبرين حكمة ولهذا وضع الدين لهذا النوع الانسانى ليحفظ له منزلته من الكرامة التى أعدها الله له بأصل خلقته ثم هو ينحدر عنها الى المنازل السفلى بجهله وسوء تصرفه لهواه لذلك أرسل الانبياء عليهم السلام من نوح ومن بعده الى محمد صلى الله عليه وسلم وبهذا يكون التفريع بالفاء ظاهراً وقد فسر الدين بالجزاء يوم القيامة وبينوا معنى الفاء بأنه اذا كان الله خلق الانسان وابتدأ خلقه بلا مثال أفلا يقدر على اعادته وأنت تراه بعيداً من المعنى بعداً سحيقاً واسلوب السورة ظاهر فى المعنى الذى بيناه والله أعلم

سورة البقرة مكية وهي تسع عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ

صح في الأخبار أن النبي صلى الله وسلم أول ما تمثل له الملك الذي يتلقى عنه الوحي قال له الملك اقرأ قال رسول الله فقلت ما أنا بقارى قال فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال اقرأ فقلت ما أنا بقارى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال اقرأ فقلت ما أنا بقارى فغطنى الثالثة حتى بلغ منى الجهد فقال اقرأ باسم ربك الذى خلق حتى بلغ « ما لم يعلم » قال الراوى فرجع بها ترجف بوادره حتى دخل على خديجة والحديث طويل وفيه أن الوحي قد فتر فترة بعد ذلك حزن لها النبي صلى الله عليه وسلم حزناً غداً منه مراراً حتى يتردى من رؤوس شواهق الجبال ولكن كان يمنعه تمثل الملك له وأخبره بأنه رسول الله حقاً وفي هذا دلالة على أن (اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم) هو أول خطاب الهى وجه الى النبي صلى الله عليه وسلم أما بقية السورة فهو متأخر النزول قطعاً وما فيه من ذكر أحوال المكذبين يدل على أنه انما نزل بعد شيوخ خبر البعثة وظهور أمر النبوة وتحرش قريش لا يذائه عليه السلام ثم هذا لا ينافى أن أول سورة نزلت كاملة بعد ذلك هى أم الكتاب كما بيناه فى تفسيرها

ترى من سياق القصة التى قدمناها أن المتبادر من معنى الآية الأولى كن قارئاً باسم الله من قبيل الأمر التكويني فإن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن قارئاً ولا كاتباً ولذلك كرر القول مراراً « ما أنا بقارى » وبعد ذلك جاء الأمر الهى بأن يكون قارئاً وإن لم يكن كاتباً فإنه سينزل عليه كتاب يقرؤه وإن كان لا يكتبه ولذلك وصف الرب بالذى خلق أى الذى أوجد الكائنات فالمتصف بالصفات التى يظهر أثر المتصف بها فى ابداع الكائنات التى لا يحيط بها الوصف قادر أن يوجد خيك القراءة وإن لم يسبق لك تعلمها لأنك لم تكن تدري ما الكتاب فكان الله

اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ

يقول كن قارئاً بقدرتي وبارادتي وانما عبر بالاسم لأنه كما سبق في سورة سبوح دال على ما تعرف به الذات وخلق القراءة يلفتك الى الذات وصفاتها جميعاً لأن القراءة علم في نفس حية فهي تخطر ببالك من الله وجوده وعلمه وقدرته وارادته أما اذا حملنا الأمر على التكليف وقلنا ان المعنى أنك مأمور اذا قرأت أن تقرأ باسم الله وهو خلاف المتبادر فيكون معنى ذلك هو ما بيناه في معنى باسم الله الرحمن الرحيم في تفسير الفاتحة أى اذا قرأت فاقراً دائماً على أن تكون قراءتك عملاً تنفذه الله لا لغيره فلو فرض أنه قرأ وجعل قراءته لله لا لأحد سواه ولم يذكر الاسم فهو قارئ باسم الله وانما طلبت التسمية باللسان لتكون منبهة للضمير في بداية كل عمل الى أن يرجع الى الله في ذلك العمل ويلاحظ أنه يعمل لاسمه لا لاسم غيره سبحانه والعلق الدم الجامد وهي حالة الجنين في الأيام الاولى لخلقه ومن كان قادراً على أن يخلق من الدم الجامد انساناً وهو الحى الناطق الذى يسود بعلمه على سائر المخلوقات الأرضية ويسخرها لخدمته يقدر أن يجعل من الانسان الكامل مثل النبي صلى الله عليه وسلم قارئاً وأن لم يسبق له تعلم القراءة . جاء بهذه الآية بعد سابقتها ليزيد المعنى تأكيداً كأنه يقول لمن كرر القول أنه ليس بقارئ أيقن أنك قد صرت قارئاً باذن ربك الذى أوجد الكائنات وما القراءة الا واحدة منها (١) والذى أنشأ الانسان خلقاً كاملاً من دم جامد لا شكل فيه ولا صورة وانما القراءة صفة عارضة على ذلك الانسان الكامل فهي اولى بسهولة اليجاد ولما كانت بالقراءة من الملكات التى لا تكسبها النفس الا بالتكرار والتعود على ما جرت به العادة في الناس ناب تكرر الأمر الالهى عن تكرار المقروء في تصييرها ملكة للنبي صلى الله عليه وسلم فلماذا كرر الأمر بقوله (اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ) وجملة وربك الخ استئنافية لبيان أن الله أكرم من كل من يرتجى منه الاعطاء فيسير عليه أن يفيض عليك هذه النعمة نعمة القراءة من بحر كرمه ثم أراد أن يزيده اطمئناناً بهذه الموهبة الجديدة فوصف مانحها بأنه (الذى علم بالقلم) أى أفهم الناس بواسطة القلم

عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيْطَغَى أَنْ رَأَاهُ اسْتَفْنَى

كما أفهمهم بواسطة اللسان والقلم آلة جامدة لا حياة فيها ولا من شأنها في ذاتها
 الأفهام فالذي جعل من الجماد الميت الصامت آلة للفهم والبيان الا يجعل منك
 قارئاً مبيناً وتالياً معلماً وأنت انسان كامل ثم أراد أن يقطع الشبهة من نفسه
 ويبعد عنه استغراب أن يقرأ ولم يكن قارئاً فقال (علم الانسان ما لم يعلم) أى أن
 الذى صدر أمره بأن تكون قارئاً واوجد فيك ملكة القراءة والتلاوة وسيبلغك
 فيها مبلغاً لم يبلغه سواك هو الذى علم الانسان جميع ما هو متمتع به من العلم وكان
 في بدء خلقه لا يعلم شيئاً فهل يستغرب من هذا المعلم الذى ابتداء العلم للانسان ولم
 يكن سبق له علم بالمرة أن يعلمك القراءة وعندك كثير من العلوم سواها وتفسك
 مستعدة بها لقبول غيرها . ثم أنه لا يوجد بيان أبرع ولا دليل أقطع على فضل
 القراءة والكتابة والعلم بجميع أنواعه من افتتاح الله كتابه وابتدائه الوحي بهذه
 الآيات الباهرات فان لم يهتد المسلمون بهذا الهدى ولم ينههم النظر فيه الى الهوض
 الى تمزيق تلك الحجب التى حجبت عن أبصارهم نور العلم وكسرتلك الابواب التى غلقها
 عليهم رؤساؤهم وحبسوهم بها فى ظلمات من الجهل وان لم يسترشدوا بفاتحة هذا
 الكتاب المبين ولم يستضيئوا بهذا الضياء الساطع فلا أرشدهم الله أبداً

هذه الآيات دلت على ان الله خلق العالم وعلى أن لا ينسب الخلق الى غيره كما ترشد
 اليه الآية الاولى وأنه خلق الانسان الحى الناطق مما لا حياة فيه ولا نطق ولا شكل
 ولا صورة وعلمه أفضل علم وهو الكتابة ووهبه العلم ولم يكن يعلم شيئاً فكل
 شيء للانسان فهو منه ومن هباته فما أعجب ما يكون من الانسان بعد ذلك من
 غفلته عن ذلك كله لمجرد أن يحس من نفسه الغنى عن غيره ولهذا ناسب أن
 يؤتى بعد تلك الآيات المتقدمات بما نزل بعدها بسنين كثيرة من قوله (كلا ان
 الانسان ليطغى) كلا كلمة زجر تقيد فى الاغلب أن ما بعدها مخالف لأثر ما قبلها
 أى ما أسخف عقل الانسان فانه مع ظهور أمره وشدة فقره فى نفسه وظهور أن
 الله مالك كل شيء عنده يطغى ويخرج عن الحد الذى يجب عليه أن يقف عنده
 فيستكبر عن الخشوع لربه ويتناول بالاذى على خلقه وذلك (أن رآه استغنى)

إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ أَرَأَيْتَ الَّذِي نَهَىٰ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ أَرَأَيْتَ
 أَن كَانَ عَلَىٰ الْهُدَىٰ أَوْ آمَدًا بِالتَّقْوَىٰ

أى متى أحس من نفسه قدرة وثروة يعد نفسه بهما فوق من دونه من الناس فلا يرى أنه معهم اعضاء جماعة واحدة يحتاج كل الى الآخر فى استدامة الأمن واستكمال السعادة . والاستغناء بهذا المعنى هو الرذيلة وهو المذكور فى قوله وأما من بخل واستغنى فى سورة الليل . أما الغنى والقوة فى أيدى الاتقياء فهما أعظم وسائل الخير وأفضل أسباب السعادة الدنيوية والاخروية ولكن الاتقياء يرشدهم فى تصريف ثروتهم وقوتهم العلم والدين الصحيحان والأغلب من عامة الناس يصرفهم الهوى والشهوة لهذا أطلق الانسان باعتبار الاغلب من أفرادهم والذين يستغنون بالمعنى السابق . ولما كان المغرور يظن أنه فى سوء عمله انما يصنع ما هو من حقه ضاعف له التأكيد فقال انه ليطغى أى انه باستغنائه يخرج عن حده قطعاً ثم بين أنه واهم فى طغيانه كاذب فى زعمه أنه ملك ناصية القوة والقدرة لان ما فى يده عارية وليست نفسه بباقية ولا لها من الله واقية فقال (ان الى ربك الرجعى) أى المرجع أى ان المرجع الى الله وحده دون غيره فهو مالك ومالك ما تملكه وهو الذى ينتزع روحك فتخرج من هذه الحياة الدنيا الى حياة ينكشف عنك فيها غطاء الغرور وتظهر فى مظهر ذلك وتحاسب على ما أتيت به أيام عزك بعد ذلك جاء الله لنا بمثل من أمثلة الطغيان وذكره على طريقة الاستغراب والتبشيع ثم أعقب ذكره بالوعيد والتهديد فقال (ارأيت الذى نهى عبدا اذا صلى) كلمة ارأيت صارت تستعمل فى معنى أخبرنى على أنها لا يقصد بها فى مثل هذه الآية الاستخبار الحقيقى ولكن يقصد بها انكار الحالة المستخبر عنها وتوبيخها كما فى قوله ارأيت الذى يكذب بالدين فذلك الذى يدع اليتيم الخ فكأنه يقول ما أسخف عقل هذا الذى يطغى به الكبر فينهى عبدا من عبيد الله عن صلاته خصوصا وهو فى حالة أدائها أما قوله (ارأيت ان كان على الهدى أو امر بالتقوى) فمعناه أخبرنى عن حاله ان كان ذلك الطاغى على الهدى وعلى صراط الحق أو امر بالتقوى مكان نهيه عن الصلاة أما كان ذلك خيرا له وأفضل

أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَبَ وَتَوَلَّى أَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَرَى كُلَّ لَئِنٍ لَّمْ يَنْتَه
لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ

وقوله (أرأيت ان كذب وتولى) أى نبئنى عن حاله ان كذب وتولى أى كذب بما جاء به النبيون أو كذب بثبوت الفضيلة وأصل الفرق بين الخير والشر والصلاح والطالح وتولى أى أعرض عن العمل الطيب أفلا يخشى أن تحل به قارعة ويصيبه من عذاب الله ما لا قبل له باحتماله فجواب كل من الشرطين محذوف كما رأيت فى تفسير المعنى وهو من الایجاز المحمود بعد ما دل على المحذوف بقوله (ألم يعلم بأن الله يرى) أى أجهل أن الله يطلع على أمره فان كان تقياً على الهدى أحسن جزاءه وان كذب وتولى لم يفلت من عقوبته ثم أن ما يطيل به المفسرون فى المفعول الثانى لفعل أرأيت الأولى ومفعوليهما فى الثانية والثالثة فهو مما لا معنى له لأن القرآن قدوة فى التعبير وقد استعملها بمفعول واحد وبلا مفعول أصلاً بمعنى أخبرنى والجملة المستخبر عن مضمونها تسد مسد المفاعيل (كلا لئن لم ينته لنسفعا بالناصية) كلمة كلا صدىع بالزجر جديد أى لا يستمر به غروره وجهله وطغيانه فإني أقسم لئن لم ينته عن هذا الطغيان وان لم يكف عن نهى المصلى عن صلاته لنسفعا بناصيته أى لناخذن بها والناصية شعر الجبهة أو الجبهة نفسها قال المبرد السفع الجذب يشدة وسفع بناصية فرسه جذبه قال عمرو بن معدى كرب

قوم اذا كثر الصياح رأيتهم * ما بين ملجم مهره أو سافع

والأخذ بالناصية هنا مثل فى القهر والاذلال والتعذيب والنكال (ناصية كاذبة خاطئة) أعاد الناصية على طريق البدل مع وصفها بالوصفين التابعين لها لزيادة التشنيع بها وهى كاذبة لغرورها بقوتها مع أنها فى قبضة خالقها فهى تزعم ما لا حقيقة له وخاطئة لأنها طغت عن حدها وعنت عن أمر ربها وأساءت الى الصالحين من قومها ونسبة الكذب والخطيئة الى الناصية مع أن الكاذب والمخطئ صاحبها لان الناصية مظهر الغرور والكبرياء كما هو معروف (فليدع ناديه) النادى المجلس الذى يجتمع فيه القوم ويطلق على القوم أنفسهم أى فليجمع أمثاله ممن ينتدى معهم لينع المصلين المخلصين ويؤذى أهل الحق الصادقين فان فعل فقد

سَنَدُعُ الزَّبَانِيَةَ كَلَّا لَا تَطْعُهُ وَابْجُذْ وَاقْتَرِبْ

تعرض لقهرنا وتمكيلنا (سندع الزبانية) الزبانية في أصل اللغة الشرط وأعوان الولاية قيل أنه جمع لا واحد له وقال أبو عبيدة واحده زبانية بكسر فسكون كعفريه وقال الكسائي واحده زبني بالكسر كانسي وقال عيسى بن عمر واحده زابن وقد تطلق العرب هذا الاسم على من اشتد بطشه وان لم يكن من أعوان الولاية قال

مطاعيم في القصوى مطاعين في الوغى * زبانية غلب عظام حلومها أي سندعو له من جنودنا القوى المتين الذي لا قبل له بمغالبتة فيهلكه في الدنيا أو يرديه في النار في الآخرة وهو صاغر (كلا لا تطعه واسجد واقترب) كلا زجر عن الاصغاء لقول الطاغى فلا تطع الطاغى اذناه الك عن عبادة ربك واسجد له واقترب أي تقرب اليه بالعبادة ولا تبعد عنه بتركها .

ذكر الصلاة في السورة لا يدل على أن بقيتها نزل بعد فرض الصلاة فقد كان للنبي وأصحابه صلاة قبل أن تفرض الصلوات الخمس المعروفة . جاء في الخبر أن أبا جهل قال لئن رأيت محمداً يصلي عند الكعبة لأطأن على عنقه فبلغ النبي صلى الله عليه وسلم فقال لو فعل لأخذته الملائكة وفيه نزلت الآيات ولا مانع من أن يكون في الآيات إشارة اليه ولكنها عامة في كل وقت وزمن كما ترى والخطاب فيها موجه الى من يخاطب لا الى شخص النبي صلى الله عليه وسلم والله أعلم

سورة القدر مكتوبة وهي خمس آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ

(انا أنزلناه في ليلة القدر) قال الله تعالى في مفتتح سورة الدخان وهي سورة قصد في مفتتحها الى ذكر الزمن الذي نزل فيه القرآن كهذه السورة « حم والكتاب المبين انا أنزلناه في ليلة مباركة انا كنا منذرين فيها يفرق كل أمر حكيم أمراً من عندنا انا كنا مرسلين رحمة من ربك انه هو السميع العليم الخ » وقال في سورة البقرة « شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان » هذه هي المواضع من ذكر تنزيل القرآن التي جيء فيها بالاشارة الى زمن نزوله قال الشعبي المراد من نحو أنزلناه وأنزل فيه القرآن الابتداء بانزاله خصوصاً والقرآن كله والجملة منه وان قصرت كل ذلك يسمى قرآناً ويسمى كتاباً فالضمير في أنزلناه في هذه السورة عائد الى القرآن كالضمير في أنزلناه العائد الى الكتاب المبين في آية الدخان المتقدمة والمراد بانزاله الابتداء بانزال شيء منه وهو المعنى من قوله « شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن » أى ابتدئ فيه انزاله أى ان أول ما نزل منه نزل في شهر رمضان وقد جاء في آية الدخان وفي هذه السورة « سورة القدر » أن الله نزل القرآن ليلاً لانهاء وأنه سمي ههنا الليلة التي نزل فيها ليلة القدر ووصفها في آية الدخان بالمباركة وقد بين سبب الانزال في آية الدخان بقوله انا كنا منذرين أى اننا اذ خلقنا الانسان نوعاً ممتازاً بطبيعته يفارق سائر الحيوان بفطرته محتاجاً الى التعليم والارشاد بغريزته قد كتبنا على أنفسنا أن نتعهد بالانذار على السنة الرسل فأنزلنا القرآن لانذار الناس بما سيلاقون جزاء لأعمالهم ولما تعقد عليه قلوبهم ثواباً أو عقاباً في حياة أخرى بعد هذه الحياة ثم بين بركة الليلة بقوله « فيها يفرق كل أمر حكيم » أى يفصل فيها كل حكم من أحكام الدين ولا يقرر فيها من الأحكام الا ما كان حكماً يقف بك

عند الحق ويبعد بك عن الباطل وينصرف بك عما فيه شقاؤك وفناؤك الى ما فيه سعادتك وبقاؤك ثم حقق له الصفة بقوله أمراً من عندنا انا كنا مرسلين رحمة من ربك انه هو السميع العليم . اذا كان الأمر من عند الحكيم العليم الذي من شأنه ارسال الرسل رحمة بعباده وقد سمع توسل نبيه اليه في هدايتهم فلا ريب تكون الحكمة أوله وآخره وباطنه وظاهره ولا شك أن ابتداء نزول القرآن كان فرقاً بين الحق والباطل وكل ما جاء منه كان كذلك ثم توالى النزول بعد الليلة الأولى بما هو من نوع ما نزل فيها كما قال انا كنا مرسلين رحمة من ربك فصيح أن ينسب اليها أنه يفرق فيها كل أمر حكيم لأن كل ما جاء فيها كان أمراً حكيماً فرق به بين الحق والباطل وبداية لما يكون بعده من مثله كما صدق قوله « شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان » مع أنه لا يكون بينة وفارقاً بين الحق والباطل الا ما ظهر للناس منه وهو ما نزل وبلغ اليهم بالفعل أو كان بسبيل أن يبلغ فليس الأمر الحكيم الذي يفرق في الليلة المباركة الا أمر الدين والاحكام الذي سماه في البقرة هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان . وهذه الليلة المباركة هي بعينها ليلة القدر فهي ليلة من شهر رمضان بلا شك كما يصرح به نص آية البقرة مع ما ينضم اليه من هذه الآيات وكل تأويل يخرج عن ذلك فهو بعيد عن معنى النص بل لا يقبله الا من يقول ان اللفاظ العربية لا تدل على معانيها ثم الأخبار الصحيحة متضاربة على أنها في شهر رمضان ولا نعينها من بين لياليه فقد اختلفت فيها الروايات اختلافاً عظيماً وكتاب الله لم يعينها وما ورد في الأحاديث من ذكرها انما قصد به حث المؤمنين على احيائها بالعبادة شكراً لله تعالى على ما هداهم بهذا الدين الذي ابتداء الله افاضته فيهم في أثنائها ولهم أن يعبدوا الله فيها أفراداً وجماعات فمن رجح عنده خبر في ليلة أحيائها ومن أراد أن يوافقها على التحقيق فعليه أن يشكر الله بالفراغ اليه بالعبادة في الشهر كله وهذا هو السر في عدم تعيينها وتشير اليه آية البقرة فانها تجعل الشهر كله ظرفاً لنزول القرآن ليدكر المؤمنون نعمة الله عليهم فيه فهي ليلة عبادة وخشوع وتذكر لنعمة الحق والدين فلا تكون ليلة زهو وهو تتخذ فيها مساجد الله مضامير للرياء يتسابق اليها المنافقون ويحدث أنفسهم بالبعد عنها المخلصون كما جرى عليه عمل المسامين في هذه الأيام فان كل ما حفظوه من ليلة القدر هو أن تكون لهم

وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ

فيها ساعة سمر يتحدثون فيها بما لا ينظر الله اليه ويسمعون شيئاً من كتاب الله لا ينظرون فيه ولا يعتبرون بمعانيه بل ان أصغوا اليه فأنما يصغون لنعمة تاليه ثم يسمعون من الأقوال ما لم يصح خبره ولم يحمد في الآخرين ولا الأولين أثره ولهم خيالات في ليلة القدر لا تليق بعقول الأطفال فضلاً عن الراشدين من الرجال .

ثم سميت ليلة القدر اما بمعنى ليلة التقدير لأن الله ابتداءً فيها تقدير دينه وتحديد الخطة لنبيه في دعوة الناس الى ما ينقذهم مما كانوا فيه أو بمعنى العظمة والشرف من قولهم فلان له قدر أى له شرف وعظمة لان الله قد أعلى فيها منزلة نبيه وشرفه وعظمه بالرسالة وقد جاء بما فيه الاشارة بل التصريح بأنها ليلة جليلة بجلالة ما وقع فيها من انزال القرآن فقال (وما أدراك ما ليلة القدر) أى وما الذى يعلمك مبلغ شأنها ونباهة أمرها (ليلة القدر خير من ألف شهر) فكرر ذكرها ثلاث مرات ثم أتى بالاستفهام الدال على أن شرفها ليس مما تسهل احاطة العلم به ثم قال انها خير من ألف شهر لأنه قد مضى على الأئمة الاف من الشهور وهم يختبئون في ظلمات الضلال فليلة يسطع فيها نور الهدى خير من ألف شهر من شهورهم الاولى ولك أن تتقف في التفضيل عند النص وتقوض الامر في تحديد ما فضلت عليه الليلة بألف شهر الى الله تعالى فهو الذى يعلم سبب ذلك ولم يبينه لنا ولك أن تجرى الكلام على عاداتهم في التخاطب وذلك في الكتاب كثير ومنه الاستفهام الواقع في هذه السورة وما أدراك ما ليلة القدر فانه جار على عاداتهم في الخطاب والا فالعلم الخبير لا يقع منه أن يستفهم عن شيء فيكون التحديد بالالف لا مفهوم له بل الغرض منه التكثير وان أقل عدد تفضله هو ألف شهر ثم ان درجات فضائها على هذا العدد غير محصورة فاذا قلت اخفاء الصدقة خير من اظهارها لم تعين درجة الافضلية وهي درجات فوق درجات وقد جاء في الكتاب في واقعة واحدة هي واقعة بدر أن الله أمد المؤمنين بألف من الملائكة أو بثلاثة آلاف أو بخمسة الاف كما تراه في الانفال وآل عمران فالعدد هناك لا مفهوم له كما هو ظاهر فهي ليلة خير من الدهر ان شاء الله . ثم استأنف لبيان بعض مزاياها

تَنْزِلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ

فقال (تنزل الملائكة والروح فيها) يخبر جل شأنه أن أول عهد للنبي صلى الله عليه وسلم بشهود الملائكة كان في تلك الليلة تنزلت من عالمها الروحاني الذي لا يحده حد ولا يحيط به مقدار حتى تمثلت لبصره صلى الله عليه وسلم والروح هو الذي يتمثل له مبالغاً للوحي وهو الذي سمي في القرآن بجبريل وانما تظهر الملائكة والروح (بإذن ربهم) أى انما تتجلى الملائكة على تلك النفس الكاملة بعد أن هيأها الله لقبول تجليها وليست تتجلى الملائكة لجميع النفوس كما هو معلوم فذلك فضل الله يختص به من يشاء واختصاصه هو اذنه ومشيئته ثم ان هذا الاذن مبدؤه الاوامر والاحكام لان الله يحل الملائكة على النفوس لايحاء ما يريد منها ولهذا قال (من كل أمر) أى ان الله يظهر الملائكة والروح لرسله عند كل أمر يريد ابلاغه الى عباده فيكون الاذن مبتدئاً من الامر على هذا المعنى والامر ههنا هو الامر في قوله فيها يفرق كل أمر حكيم أمراً من عندنا انا كنا مرسلين فالكلام في الرسالة والاوامر والاحكام لافى شىء آخر سواها ولهذا قال بعضهم ان من ههنا بمعنى الباء أى بكل أمر ولا حاجة اليه لما قلنا وانما عبر بالمضارع في قوله تنزل الملائكة وقوله فيها يفرق كل أمر حكيم مع أن المعنى ماض « لان الحديث عن مبدأ نزول القرآن » لوجهين الاول لاستحضار الماضى لعظمته على نحو ما فى قوله وزلزلوا حتى يقول الرسول فان المضارع بعد الماضى يزيد الامر تصويراً قال تأبط شرا

ألا من مبلغ فتیان فهم * بما لا قيت عند رحي بطن (١)
وأنى قد لقيت الغول تهوى * بسهب كالصحيفة صحصحان
فقلت لها كلانا نضوأن * أخو سفر نخلى لى مكاني
فشدت شدة نحوى فأهوى * لها كفى بمصقول يمانى
فأضربها بلا دهش نخرت * صريعا لليسدين وللجبران
والشاهد في قوله فأهوى وقوله فأضربها في حكاية الماضى والثانى لان مبدأ

(١) رحي بطن محل بالبادية والسهب الفلاة والصحصحان المستوى من الارض ونضوأن أى مهزول من الاعياء والتعب والايات من أكاذيب العرب المعروفة في الحكاية عن الغول ووصف ما يكون منها ام منه

وَمَا أَذْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ

فيها ساعة سمر يتحدثون فيها بما لا ينظر الله اليه ويسمعون شيئاً من كتاب الله لا ينظرون فيه ولا يعتبرون بمعانيه بل ان أصغوا اليه فأما يصغون لنعمة تاليه ثم يسمعون من الأقوال ما لم يصح خبره ولم يحمد في الآخرين ولا الأولين أثره ولهم خيالات في ليلة القدر لا تليق بعقول الأطفال فضلاً عن الراشدين من الرجال .

ثم سميت ليلة القدر اما بمعنى ليلة التقدير لأن الله ابتداءً فيها تقدير دينه وتحديد الخطة لنبيه في دعوة الناس الى ما ينقذهم مما كانوا فيه أو بمعنى العظمة والشرف من قولهم فلان له قدر أى له شرف وعظمة لان الله قد أعلى فيها منزلة نبيه وشرفه وعظمه بالرسالة وقد جاء بما فيه الاشارة بل التصريح بأنها ليلة جليلة بجلالة ما وقع فيها من انزال القرآن فقال (وما أدراك ما ليلة القدر) أى وما الذى يعلمك مبلغ شأنها ونباهة أمرها (ليلة القدر خير من ألف شهر) فكرر ذكرها ثلاث مرات ثم أتى بالاستفهام الدال على أن شرفها ليس مما تسهل احاطة العلم به ثم قال انها خير من ألف شهر لأنه قد مضى على الأئمة الاف من الشهور وهم يختبئون في ظلمات الضلال فليلة يسطع فيها نور الهدى خير من ألف شهر من شهورهم الاولى ولك أن تتقف في التفضيل عند النص وتغوض الامر في تحديد ما فضلت عليه الليلة بألف شهر الى الله تعالى فهو الذى يعلم سبب ذلك ولم يبينه لنا ولك أن تجرى الكلام على عاداتهم في التخاطب وذلك في الكتاب كثير ومنه الاستفهام الواقع في هذه السورة وما أدراك ما ليلة القدر فانه جار على عاداتهم في الخطاب والا فالعلم الخبير لا يقع منه أن يستفهم عن شيء فيكون التحديد بالألف لا مفهوم له بل الغرض منه التكثير وان أقل عدد تفضله هو ألف شهر ثم ان درجات فضلها على هذا العدد غير محصورة فاذا قلت اخفاء الصدقة خير من اظهارها لم تعين درجة الافضلية وهي درجات فوق درجات وقد جاء في الكتاب في واقعة واحدة هي واقعة بدر أن الله أمد المؤمنين بألف من الملائكة أو بثلاثة آلاف أو بخمسة آلاف كما تراه في الانفال وآل عمران فالعدد هناك لا مفهوم له كما هو ظاهر فهي ليلة خير من الدهر ان شاء الله . ثم استأنف لبيان بعض مزاياها

تَنْزِلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ

فقال (تنزل الملائكة والروح فيها) يخبر جل شأنه أن أول عهد للنبي صلى الله عليه وسلم بشهود الملائكة كان في تلك الليلة تنزلت من عالمها الروحاني الذي لا يحده حد ولا يحيط به مقدار حتى تمثلت لبصره صلى الله عليه وسلم والروح هو الذي يتمثل له مبالغاً للوحي وهو الذي سمي في القرآن بجبريل وإنما تظهر الملائكة والروح (بإذن ربهم) أي إنما تتجلى الملائكة على تلك النفس الكاملة بعد أن هيأها الله لقبول تجليها وليست تتجلى الملائكة لجميع النفوس كما هو معلوم فذلك فضل الله يختص به من يشاء واختصاصه هو أذنه ومشيعته ثم إن هذا الاذن مبدؤه الاوامر والاحكام لأن الله يحل الملائكة على النفوس لا يحل ما يريد منها ولهذا قال (من كل أمر) أي إن الله يظهر الملائكة والروح لرسوله عند كل أمر يريد ابلاغه الى عباده فيكون الاذن مبتدئاً من الامر على هذا المعنى والامر ههنا هو الامر في قوله فيها يفرق كل أمر حكيم أمراً من عندنا انا كنا مرسلين فالكلام في الرسالة والاوامر والاحكام لا في شيء آخر سواها ولهذا قال بعضهم ان من ههنا بمعنى الباء أي بكل أمر ولا حاجة اليه لما قلنا وانما عبر بالمضارع في قوله تنزل الملائكة وقوله فيها يفرق كل أمر حكيم مع أن المعنى ماض «لأن الحديث عن مبدأ نزول القرآن» لوجهين الاول لاستحضار الماضي لعظمته على نحو ما في قوله وزلزلوا حتى يقول الرسول فان المضارع بعد الماضي يزيد الامر تصويراً قال تأبط شرا

ألا من مبلغ فتیان فهم * بمالاقیت عند رحي بطان(١)
وأتی قد لقيت الغول تهوی * بسهب كالصحيفة صحصحان
فقلت لها کلانا نضوأن * أخو سفر نخلی لی مکانی
فشدت شدة نحوی فأهوی * لها کفی بمصقول یمانی
فأضربها بلا دهش نخرت * صریعا للیدین وللجبران
والشاهد في قوله فأهوى وقوله فأضربها في حكاية الماضي والثاني لأن مبدأ

(١) رحي بطان محل بالبادية والسهب الفلاة والصحصحان المستوى من الارض ونضوأن أي مهزول من الاعياء والتعب والايات من أكاذيب العرب المعروفة في الحكاية عن الغول ووصف ما يكون منها ام منه

سَلَامُ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ

النزول كان فيها ولكن بقية الكتاب وما فيه من تفصيل الاوامر والاحكام كان فيما بعد فكانه يشير الى أن ما ابتدأ فيها يستمر في مستقبل الزمان حتى يكمل الدين (سلام هي حتى مطلع الفجر) أي أنها كانت ليلة سالمة من كل شر وأذى والاخبار عنها بالسلام نفسه وهو الامن والسلامة للمبالغة في أنه لم يشبها كدر بل فرج الله فيها عن نبيه كل كربة وفتح له فيها سبل الهداية والارشاد فاناله بذلك ما كان يتطلع اليه الايام والشهور الطوال .

اماما يقوله الكثير من الناس من أن الليلة المباركة التي يفرق فيها كل أمر حكيم هي ليلة النصف من شعبان وان الامور التي تفرق فيها هي الارزاق والاعمار وكذلك ما يقولونه من مثل ذلك في ليلة القدر فهو من الجراءة على الكلام في الغيب بغير حجة قاطعة وليس من الجائز لنا أن نعتقد بشيء من ذلك ما لم يرد به خبر متواتر عن المعصوم صلى الله عليه وسلم ومثل ذلك لم يرد لاضطراب الروايات وضعف أغلبها وكذب الكثير منها ومثلها لا يصح الاخذ به في باب العقائد ومثل ذلك يقال في بيت العزة ونزول القرآن فيه جملة واحدة في تلك الليلة فانه لا يجوز أن يدخل في عقائد الدين لعدم تواتر خبره عن النبي صلى الله عليه وسلم ولا يجوز لنا الاخذ بالظن في عقيدة مثل هذه والا كنا من الذين ان يتبعون الا الظن نعوذ بالله وقد وقع المسامون في هذه المصيبة مصيبة الخلط بين ما يصح الاعتقاد به من غيب الله ويعد من عقائد الدين وبين ما يظن به للعمل على فضيلة من الفضائل فأحذر أن تقع فيها مثلهم والله أعلم

سورة البينة مدنيّة وهي ثمان ايات

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

لَمْ يَكُنِ الدِّينُ كَمَا كَفَرُوا

هذه السورة مدنية على أرجح الاقوال كان الكثير الاغلب من أهل الكتاب من اليهود والنصارى والمشركين من العرب في ظلام من الجهل بما يجب الاعتقاد به والعمل عليه من شرائع أنبيائهم وسلفهم وذلك لاعتمادهم فيما يعتقدون وما يعملون على تقليد آبائهم وقد كان فيمن تقدم منهم من أدخل على الشرائع كثيراً مما ليس منها اما بسوء الفهم واما للعناد لافحام الخصم واما باستحسان عقولهم ضروبا من البدع يتوهمونها مؤيدة للدين مفخمة لأمره وهي من أشد الاشياء ضرراً بالدين ثم جاء من بعدهم يزيد على ما وضعوه الى أن خفي الحق في ظلام الباطل ولم يزالوا كذلك الى أن جاء النبي صلى الله عليه وسلم فأخذت صيحته تشق تلك القبور ويده الكريمة ترفع تلك الستور فيسرى شعاع من ضوء الحق الذي جاء به من خلال تلك الحجب الى ما وراءها من أعماق الضمائر فاذا أحسوا ببصيصه فرح به طلاب الحقائق في تلك الظلم وأزاحوا عن أبصارهم غطاء الشبهة ومثلوا بين يدي الداعي صلى الله عليه وسلم ملبين دعوته طالبين هدايته أما أهل العناد منهم فيقع الزلزال في اعتقادهم ويضعف جبل تقليدهم ولكنهم يثبتون في ضلالهم ويقولون لأنفسهم ولاخوانهم هذا الذي يقوله الداعي ليس بالشيء الجديد ولم يترك الأول شيئاً للآخر وجميع ما يدعوننا اليه كان معروفاً لنا مذكوراً في كتبنا وارداً في قول أسلافنا ولو لم يأت به لعرفناه واهتدينا اليه مما عندنا ولكن ما نحن فيه خير مما يدعوا اليه وينسجون من أوهامهم ما يبيعونه على الجهال كما هي عادة أمثالهم في كل زمان ففي الرد على مزاعم هؤلاء الكافرين الجاحدين الذين يجدون لامع الحق فيعرفونه ثم يغمضون عيونهم عن النظر اليه نزلت هذه السورة فيقول الله (لم يكن الدين كَمَا كَفَرُوا) ووجدوا نبوتك بعناداً

مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ
رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ

بعد ما تبينوا الحق منها (من أهل الكتاب) اليهود والنصارى والصابئين الذين عرفوك وسمعوا أدلتك وشهدوا آياتك لم يكونوا هم (والمشركين) أى وثني العرب (منفيين) عن غفلتهم وجهلهم بالحق ووقوفهم عند ما قلدوا فيه آباءهم لا يعرفون من الحق شيئاً (حتى تأتيهم البينة) أى الحجة القاطعة المثبتة للمدعى وهى هنا النبي صلى الله عليه وسلم فجئته هو الذى أحدث هذه الرجة فيمارسح من عقائدهم وتمكن من عوائدهم حتى أخذوا يحتجون لعنادهم ومناكرتهم بأنه كان شيئاً معروفاً لهم يصلون اليه بما كان لديهم ولكنه ليس بمستحق أن يتبع فان ما هم فيه أجهل وابدع ومتابعة الآباء فيه أشهى الى النفوس وأمتع . تلك البينة التى تعرفهم وجه الحق هى (رسول من الله) محمد صلى الله عليه وسلم (يتلو صحفاً مطهرة) هى صحف القرآن وهى مطهرة من الخلط وحشو المدلسين فلهذا تنبعث منها أشعة الحق حتى يعرفه طالبوه ومنكروه معا وتلاوتها تلاوة ما فيها تقول حفظت الصحيفة أو حفظت المصحف والمعنى حفظت ما فيه والنبي صلى الله عليه وسلم وان كان أمياً فقد كان يتلو الكلام المكتوب فى تلك الصحف هذه الصحف (فيها كتب قيمة) القيمة المستقيمة التى لا عوج فيها واستقامة الكتب اشتمالها على الحق الذى لا يميل الى باطل « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » والكتب التى فى صحف القرآن ومصاحفه اما أن تكون هى ماصح من كتب الاولين موسى وعيسى وغيرهما مما حكاها الله فى كتابه عنهم فانه لم يأت منها الا بما هو قويم سليم وقد ترك حكاية ما لبس فيه الملبسون الا أن يكون ذكره لبيان بطلانه ولهذا لم يجد الجاحدون لرسالته عليه السلام من أهل الكتاب سبيلاً الى انكار الحق وانما فضلوا عليه سواه . او هى سور القرآن فان كل سورة من سوره كتاب قويم فصحف القرآن أو صحائفه وأوراق مصحفه تحتوى على سور من القرآن هى كتب قيمة . ولما كان لسائل أن يسأل اذا كان هؤلاء

وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ
وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا
الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ

الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين قد انفكوا عن ذلك الظلام المطبق
وبدأهم من الحق ما عرفوه كما يعرفون أبناءهم فما بالهم لم يؤمنوا بهذا الحق الذي
جاءهم أجاب الحق بأن أهل الكتاب قد جاءتهم البينة والحجة القاطعة على الحق
الذي لا يختلف وجهه بما أوحى الله به إلى أنبيائهم وكان من حقهم أن
يسترشدوا بكتبهم في معرفة سبيله حتى لا يذحرفوا عنه فاذا عرض لأحدهم شبهة
رجع في كشفها إلى العارف بمعاني الكتب ثم كان عليهم أن يحرصوا على تعلم
معانيها وفهم أساليبها ويحافظوا عليها حتى لا يضلوا فيها مضلل لكن هذه البيئة لم
تقدم شيئاً فانهم اختلفوا في التأويل وتفرقوا في المذاهب حتى صار أهل كل مذهب
يبطل ما عند أهل المذهب الآخر وكان ذلك بغيا منهم واستمراراً في المراءوأصراراً
على ما قاد إليه الهوى وهذا هو قوله تعالى (وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من
بعد ما جاءتهم البينة) على السنة أنبيائهم فهكذا كان شأنهم في النبي صلى الله عليه
وسلم جحدوا بينته كما جحدوا بينة أنبيائهم بتفرقهم فيها وبعدهم بالتفرق عن حقيقتها
فان كان هذا شأن أهل الكتاب في بينتهم وبينتنا فما ظنك بالمشركين وهم أعرق
في الجهالة وأسلس قياداً للهوى منهم يقول الله عن أهل الكتاب (وما أُمِرُوا
إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين
القيمة) الواو في قوله وما أُمِرُوا الخ للحال ومعنى أُمِرُوا أى بلغت إليهم أوامر
ووضعت لهم شرائع وأحكام والدين هو اذعان النفس لآلهها مع الخضوع له
وامتثال أوامره فيما يطلب منها واخلاص الدين لله تنقيته من أن يشركه فيه
شيء لا واسطة ولا مال ولا كرامة ولا جاه والحنفاء جمع حنيف وهو من يتبع
ابراهيم عليه السلام أو من يكون على مثاله والاصل في معنى الحنيف المائل

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي

المنحرف ولما كان الناس في زمن ابراهيم على وثنية واحدة وفارقهم ابراهيم الى التوحيد وحده قيل فيه حنيف أى مائل عن الناس كافة ولما كان العرب قبل النبوة يزعمون أنهم عل دين ابراهيم لقبوا بالحنفاء مع ما خلطوا في دينهم وأدخلوا عليه من عقائد الوثنية وعوائدها وخفي هذا على كثير من الناس فظنوا أن الحنيف معناه الوثنى وليس الامر كما يظنون واقامة الصلاة الاتيان بها لاحضار القلب هيبة المعبود وترويضه بالخشوع لا أن تكون مجرد حركات ظاهرة فان ذلك ليس من الصلاة فى شئ البتة وايتاء الزكاة صرفها فى مصارفها التى عينها الله وهذا هو دين الكتب القيمة أو دين الامة القيمة المستقيمة ومعنى الآية ان أهل الكتاب قد افترقوا ولعنت كل فرقة أختها وكان افتراقهم فى العقائد والاحكام وفروع الشريعة مع أنهم لم يؤمروا ولم توضع لهم تلك الاحكام الا لأجل أن يعبدوا الله ويخلصوا له عقائدهم وأعمالهم فلا يأخذونها الا عنه مباشرة لا يقلدون فيها أباً ولا رئيساً وانما يحصلون من العلم ما يؤهلهم لفهمها مائلين فى ذلك عما عليه أهل الضلال من الامم الاخرى وأن يخشعوا لله فى صلاتهم وأن يصلوا عباد الله بركاتهم فاذا كان هذا هو الاصل الذى يرجع اليه فى الاوامر فما كان عليهم الا أن يجعلوه نصب أعينهم فيردوا اليه كل ما يعرض لهم من المسائل ويحلوا به كل ما يعترض أمامهم من المشاكل ومتى تحكم الاخلاص فى الانفس تسلط الانصاف عليها فسادت فيها الوحدة ولم تطرق طرقها الفرقة

هذا ما نعاه الله من حال أهل الكتاب فما نقول فى حالنا أفاينعاه كتابنا الشاهد علينا بسوء أعمالنا فى افتراقنا فى الدين وان صرنا فيه شيعا وملائناهم محدثات وبدعا بهذا الذى تقدم عرفت أن الذين كفروا هم الذين أنكروا رسالة النبى صلى الله عليه وسلم عند دعوتهم الى قبول ما جاء به وأن من فى قوله من أهل الكتاب للتبعض وان معنى لم يكونوا منفكين أى لم يكن وجه الحق لينكشف لهم فيقع الزلزال فى عقائدهم فينفكوا عن الغفلة المحضة التى كانوا فيها حتى تأتيتهم البينة ويجوز أن يكون المراد من الذين كفروا والله أعلم أولئك الذين جحدوا شيئاً من دين الله

نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ

تعالى عند ما جاءهم ولم ينظروا في دليله أو أعرضوا عنه بعد ما عرفوا دليله سواء كانوا من مشركي العرب أو من أهل الكتاب وان آمنوا بعد ذلك وصدقوا فأراد الله أن يذكر منته على من آمن من هؤلاء فبين أن الذين كفروا أى جحدوا ما أوجب الله على عباده أن يعتقدوه عنه من صفاته وشرائعه من أهل الكتاب ومشركي العرب لم يكونوا براجمين عن كفرهم وجحدوهم هذا حتى يأتيهم الرسول فيبين لهم بطلان ما كانوا عليه من الكفر فيؤمنوا فما أعظم فضل الله عليهم في ارسال رسوله اليهم وهذا وجه آخر غير الذى قدمناه في معنى الذين كفروا وانفكاهم وبذلك أو هذا ظهر معنى حتى وبطل جميع ما يهذى به كثير من المفسرين الذين أضلهم التقليد عن رأى السيد فصعبوا من القرآن سهله وحرموا من فهمه أهله

نار جهنم هى دار العذاب فى الآخرة وهى نار يجب علينا الايمان بها والتصديق بأن العذاب فيها أشد من العذاب فى نار الدنيا كما يجب علينا أن لا نبحت فى حقيقتها ولا بما تتقد ولا أين يكون موضعها فذلك مما لا يمكن لعقولنا أن تصل اليه وليس بمحال عقلى حتى تحتاج فيه الى تأويل (خالدين فيها) أى لا يخرجون منها أبداً (أولئك) هؤلاء الذين كفروا وجحدوا الحق بعدما عرضت عليهم حجته وظهرت لهم حقيقته (هم شر البرية) أى شر الخليقة أى هم أقبح وأسوأ ما خلق الله حالاً لأن منكر الحق بعد معرفته وقيام الدليل عليه منكر فى الحقيقة لعقل نفسه مهلك لروحه جالب الهلاك الى غيره (الذين آمنوا) هم الذين سطع لهم نور الدليل فاهتدوا به وأذعنوا لما دل عليه فصدقوا من جاء به وهو النبى صلى الله عليه وسلم (وعملوا الصالحات) لان اذعانهم الصحيح ووجدانهم لذة معرفة الحق ملكت الحق قيادهم فعملوا الاعمال الصالحة من بذل النفس فى سبيل الجهاد للحق وبذل المال فى أعمال البر مع القيام بفرائض العبادات والاخلاص فى سائر شروب المعاملات (أولئك هم خير البرية) أى هؤلاء المؤمنون الصالحون المحسنون هم

جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ وَعْدْنُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ

أفضل الخليفة لأنهم بمتابعة الحق عند معرفته بالدليل القائم عليه قد حققوا لأنفسهم معنى الإنسانية التي شرفهم الله بها وبالعمل الصالح قد حفظوا نظام الفضيلة الذي جعله الله قوام الوجود الإنساني وهدوا غيرهم بحسن الاسوة الى مثل ما هدوا اليه من الخير والسعادة فمن يكون أفضل منهم

(جنات عدن تجري من تحتها الأنهار) الجنات هي مغارس الاشجار النضرة والعدن الإقامة والانهار جمع نهر وهو جدول الماء العظيم والمراد منها ههنا دار النعيم في الحياة الآخرة وهي كذلك مما يجب علينا الاعتقاد به وان النعيم واللذة فيها أكمل وأوفر من جميع لذائد الدنيا وأنها دار خلد أي ان من دخلها من أهلها لا يخرج منها أبداً وهو معنى (خالدين فيها أبداً) ولا يجوز لنا البحث في حقيقةها ولا أين موضعها ولا كيفية التمتع فيها فان ذلك لا يعامه الا الله (رضى الله عنهم) لأنهم لم يخرجوا عن حدود شريعته ولم يهملوا العمل بسنته ورضا الله تفضله واحسانه (ورضوا عنه) لأنهم يحمدون صنيعه فيهم واحسانه اليهم بسعادة الدارين فانهم بحسن يقينهم يرتاحون الى امثال ما يأمر به في الدنيا فهم راضون عنه ثم اذا ذهبوا الى نعيم الآخرة وجدوا من فضل الله ما لا محل للسخط معه فهم راضون عن الله في كل حال (ذلك لمن خشى ربه) أي هذا الجزاء الحسن وهذا الرضا انما هو لمن كان قلبه بيتاً لخشية ربه والخوف منه أراد بهذه الكلمة الرفيعة الاحتياط لدفع سوء الفهم الذي وقع ولا يزال يقع فيه العامة من الناس بل الخاصة كذلك وهو أن مجرد الاعتقاد بالوراثة وتقليد الابوين ومعرفة ظواهر بعض الاحكام وأداء بعض العبادات كحركات الصلاة وامساك الصوم مجرد هذا يكفي في نيل ما أعد الله من الجزاء للذين آمنوا وعملوا الصالحات وان كانت قلوبهم حشوها الحسد والحقد والكبرياء والرياء وأفواهم ملؤها الكذب والنميمة والافتراء وتهزأ عظامهم رياح العجب والخيلاء وسرأرهم مسكن العبودية والرق للامراء بل ولمن دون الامراء

سورة الزلزال مكية وهي ثمان آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا
وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا

خالية من أقل مراتب الخشوع والاخلاص لرب الارض والسماء كلا لا ينالون
حسن الجزاء فان خشية ربهم لم تحل قلوبهم ولهذا لم تهذب من نفوسهم ولا يكون
ذلك الجزاء الا لمن خشى ربه وأشعر خوفه قلبه والله أعلم

(سورة الزلزلة) من السور المدنية وهي سورة ارباب وترغيب قيل انها نزلت
لازالة ما وقع في نفوس كثير من المؤمنين من أن الخير القليل لا ينظر الله اليه
ولا يجازى عليه وكذلك الصغائر من الذنوب ايست بشىء يلام عليه كالكدبة والنظرة
ونحو ذلك فأزال شبهتهم وكشف عنهم وهمهم وعرفهم أن لا شىء من عمل الانسان
يفوته فالخير يجازى بالخير مهما صغر والشر يلقي جزاءه من الشر مهما نظر .
(اذا زلزلت الارض زلزالها) أى أصاب الارض ذلك الزلزال الشديد والاهتزاز
الرائع المدهش وهو كقوله « يا أيها الناس اتقوا ربكم ان زلزلة الساعة شىء عظيم »
(وأخرجت الارض أثقالها) أى أنها لشدة الزلزال والاضطراب تشققت وثار
باطنها فقدفت بما فى جوفها من الاثقال من كنوز ودفائن وأموات وغير ذلك
مما يكون فى باطن الارض ومثاله المشهور ما يرى الآن فى الآراضى التى فيها البراكين
« جبال النار » فان الزلزال يحدث والارض تنشق وتقذف بما فيها من نيران
ومعادن ومياه ونحو ذلك وهو كقوله تعالى « واذا الارض مدت والقت ما فيها
وتخلت » (وقال الانسان ما لها) من يكون من الانسان شاهد لهذا الزلزال يجده
مخالفاً فى الشدة لجميع ما سبقه من أمثاله ولا يجد من عقله ما يهديه الى معرفة

يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا يَوْمَئِذٍ يُصْدِرُ
النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّرَوِّاعِمَاهُمْ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ

سببه ويصيبه الدهش فيقول ما لهذه الارض وما الذي وقع لها فوق ما جرت به العادة (يومئذ تحدث أخبارها) يومئذ بدل من اذا أى في ذلك الوقت وقت الزلزال تحدثك الارض أحاديثها وتحديث الارض تمثيل كما قال الطبرى وجماعة غيره أى أن حالها وما يقع فيها من الانقلاب وما لم يعهد من الخراب يعلم السائل ويفهمه الخبر وأن ما يراه لم يكن لسبب من الاسباب التى وضعتها السنة الالهية حال استقرار نظام الكون بل ذلك (ب) سبب (أن ربك أوحى لها) يقال أوحى له واليه ووحى له واليه والمعنى واحد أى أن ما يكون للارض يومئذ انما هو بأمر الهى خاص قال لها كونى خراباً كما قال لها عند إيجادها كونى أرضاً فهذا أمر من الاوامر التكوينية التى هى كمن فيكون ماصدر به أمر كن والاوامر التكوينية عبارة عن تعلق القدرة الالهية بما هو أثر لها وكثيراً ماتكون الاوامر الالهية التكوينية بأسباب كتكوين الانسان والحيوان والنبات فان كل كائن منها انما كان بتكوين الله وقوله له كن فيكون ولكنه وضع لذلك أسباباً من التناسل والتوالد ولا مانع من أن يكون خراب الارض فى آخر عمرها بسبب من الاسباب التى تهدم بناءها وتجعلها هباء منثوراً ومعنى اختصاصه هذه الحالة باسم الوحي لانها تأتى على خلاف ما عهد من أول نشأة الارض (يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم) يوم يقع ذلك الخراب العظيم لهذا العالم الارضى وتبدل الارض غير الارض كما جاء فى الآية الاخرى يظهر ذلك الكون الجديد كون ذلك اليوم الآخر والحياة الاخرى فيصدر الناس بعد بعثهم أشتاتاً متفرقين مختلفين يقال صدر عن المدينة أى سافر منها أى يذهب الناس على اختلافهم شقيهم وسعيدهم محسنهم ومسيئهم ليروا أعمالهم يروا بضم الياء أى ليرىهم الله جزاء أعمالهم يقال عاش فلان حتى رأى عمله أى جنى ثمرة ما قدم وفى قراءة ليروا بفتح الياء أى ليبصروا بأنفسهم أعمالهم أى ما أعد لهم جزاء عايلها (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره) الذرة النملة الصغيرة وهى مثل فى الصغر وقيل الدر هو الهباء الذى

وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ

يرى في ضوء الشمس اذا دخلت من نافذة ومثقال الذرة وزنها أى من يعمل من الخير أدنى عمل وأصغره فانه يراه ويجد جزاءه لافرق في ذلك بين المؤمن والكافر غاية الأمر أن حسنات الكفار الجاحدين لا تصل بهم الى أن تخلصهم من عذاب الكفر فهم به خالدون في الشقاء والآيات التي تنطق بحبوط أعمال الكفار وانها لا تنفعهم معناها هو ما ذكرنا أى أن عملاً من أعمالهم لا ينجيهم من عذاب الكفر وان خفف عنهم بعض العذاب الذي كان يرتقبهم على بقية السيئات الاخرى اما عذاب الكفر نفسه فلا يخفف عنهم منه شيء كيف لا والله جل شأنه يقول ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وان كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين فقوله فلا تظلم نفس شيئاً أصرح قول في أن الكافر والمؤمن في ذلك سواء وأن كلاً يوفى يوم القيامة جزاءه وقد ورد أن حاتماً يخفف عنه لكرمه وأن أبا لهب يخفف عنه لسروره بولادة النبي صلى الله عليه وسلم وما نقله بعضهم من الاجماع على أن الكافر لا تنفعه في الآخرة حسنة ولا يخفف عنه عذاب سيئة ما لا أصل له فقد قال بما قلناه كثير من أئمة السلف رضى الله عنهم على أن كلمة الاجماع كثيراً ما يتخذها الجهلاء السفهاء آلة لقتل روح الدين وحجراً يلقمونه أفواه المتكلمين وهم لا يعرفون للاجماع الذى تقوم به الحجة معنى فبئس ما يصنعون (ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) لافرق في ذلك بين المؤمن والكافر فالمؤمنون يرون جزاء ما عملوا من شر اذا لم يكونوا تابوا عنه وليس الجزاء منحصراً في العقاب في دار العذاب فمنه ما يكون كذلك وهو الجزاء على الكبائر وترك الفرائض اذا لم تمحها التوبة الصحيحة ومنه ما يكون بنقص في درجة الكرامة كجزاء الصغائر فانها وان لم تدخل النار ولكنها تترك منزلتك أحط من منزلة من تنزه عنها وهذا شر تراه يقابل الشر الذى صنعتته والله أعلم

سورة العاديات مكية وهي إحدى عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا
فَأَثَرُنَ بِهِ نَقْعًا فَوْسَطُنَ بِهِ جَمْعًا

(والعاديات ضبحاً) العاديات جمع عادية من العدو وهو الجرى والضح صوت أنفاس الخيل عند جريها يقسم جل شأنه بالخيال التي تعدوا وتجري وهي من شدة الجرى تضبح ضبحاً ويسمع لها زفير شديد (فالموريات قدحاً) الموريات جمع مورية من الايراء وهو اخراج النار بنحو الزناد والقدح هو الضرب لاجراج النار كضرب الزناد بالحجر يذكر سبحانه وصفاً من أوصاف الخيل العاديات يحصل لها عند العدو ولذلك رتبته بالفاء وهو ما يكون من اخراجها النار بحوافرها أثناء الجرى أى يقسم بالعاديات التي يتطاير الشرر من حوافرها عند عدوها وهي تقدح بحوافرها الارض قدحاً (فالمغيرات صبحاً) المغيرات جمع مغيرة من أغار على العدو اذا هجم عليه ليقتله أو يأسره أو يستلب ماله وهو وصف عرض للخيال من الغاية التي أجريت لها أى أنها تعدو ويشدد عدوها حتى يخرج الشرر من حوافرها لتهم على عدو وقت الصباح وهو وقت المفاجأة لأخذ العدو وهو على غير أهبة (فأثرن به نقعاً) الاثارة التهييج وتحريك الغبار والنقع الغبار والفعل معطوف على وصف المغيرات لأنه فى معنى الفعل كأنه قال فاللاتى أغرن صبحاً فأثرن فى وقت الصبح غباراً لشدة عدوهن (فوسطن به جمعاً) أى فتوسطن ودخلن فى وسط جمع من الأعداء ففرقنه وشتته أقسم بالخيال متصفة بصفاتهما التي ذكرها آتية بالأعمال التي سردها لينوه بشأنها ويعلى من قدرها فى نفوس المؤمنين أهل العمل والجد ليغنوا بقنيتها وتدريبها على الكر والفر وليحملهم أنفسهم على العناية بالفرسية والتدرب على ركوب الخيل والاغارة بها ليكون كل واحد منهم مستعداً

إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ

في أى وقت كان لأن يكون جزءاً من قوة الأمة اذا اضطرت الى صد عدو أو بعثها باعث على كسر شوكرته . وكان في هذه الآيات القارعات وفي تخصيص الخيل بالذكور في قوله « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » وفيما ورد من الاحاديث التي لا تكاد تحصر ما يحمل كل فرد من رجال المسلمين على أن يكون في مقدمة فرسان الارض مهارة في ركوب الخيل ويبعث القادرين منهم على قينة الخيل على التنافس في عقائلها وأن يكون فن السباق عندهم يسبق بقية الفنون اتقاناً أفليس من أعجب العجب أن ترى أمماً هذا كتابها قد أهملت شأن الخيل والفروسية الى أن صار يشار الى راكبيها بينهم بالهزؤ والسخرية وأخذت كرام الخيل تهجر بلادهم الى بلاد أخرى أليس من أغرب ما يستغرب أن أناساً يزعمون أن هذا الكتاب كتابهم يكون طلاب العلوم الدينية منهم أشد الناس رهبة من ركوب الخيل وأبعدهم عن صفات الرجولية حتى وقع من أحد أساتذتهم المشار اليهم بالبنان عند ما كنت أكله في منافع بعض العلوم وفوائدها في علم الدين أن قال « اذا كان كل ما يفيد في الدين نعامه لطلبة العلم كان علينا اذن أن نعلمهم ركوب الخيل » يقول ذلك ليفحمني وتقوم له الحجة على كأن تعليم ركوب الخيل مما لا يليق ولا ينبغي لطلبة العلم وهم يقولون أن العلماء ورثة الانبياء فهل هذه الاعمال وهذه العقائد تتفق مع الايمان بهذا الكتاب أنصف ثم احكم .

يقسم الله بالخيل صاحبة تلك الصفات التي رفع ذكرها ليؤكد الخبر الذي جاء في قوله (ان الانسان لربه لکنود) الکنود هو الکفور يقال کند النعمة کفرها ولم يشكرها وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم « الکنود الذي يأكل وحده ويضرب عبده ويمنع رفقده » كأنه بذلك لا يعطى مما أنعم الله به عليه ولا يراف بعباد الله كما راف الله به فهو كافر بنعمة ربه غير أن الآية عامة والمراد منها ذكر حالة من حالات الانسان التي تلازمه في أغلب أفرادها الا الذين يروضون أنفسهم على الفضائل وهي حقيقة لا ريب فيها لأن في طبع الانسان أن يستغرق فيما حضره فيصعب عليه أن يجعل نصب عينيه شيئاً من ماضيه أو مما عساه يستقبله

وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ أَفَلَا يَعْلَمُ
إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ

فتحيط به الغفلة فهو اذا غمرته من الله نعمة غمرته بها غفلة وأدخلت الى قلبه ضرباً من قسوة وأحدثت في طبعه شوباً من جفوة وأكد الله هذا الخبر لزعم كثير من أهل الكنود أنهم شاكرون فأكد لهم الخبر ليرجعوا الى أنفسهم ويمتنعوا أعمالهم ليتبين لهم أن الغرور هو الذي غشهم في معرفة حالهم فيفزعوا الى الله بالشكر ولا يكون الشكر الا بالبذل في الحق الذي يبقى أثره ويجمل عند العقلاء ذكره ثم يزيد الامر تأكيذاً بقوله (وانه على ذلك لشهيد) أى وان الانسان لشهيد على كنهوده وكفره لنعمة ربه لانه يفخر بالقسوة على من دونه وبقوة الحيلة على من فوقه وبكثرة ما في يده من المال مع الخدق في توفيره وقلماً يفتخر بالمرحمة وكثرة البذل والخذق في اختيار المواضع للاتفاق اللهم الا أن يريد غشاً للسامع وفي ذلك كله شهادة على نفسه بالكنود لان ما يفتخر به ليس من حق شكر النعمة بل من آيات كفرها (وانه لحب الخير لشديد) الخير هو المال مثله في قوله تعالى «كتب عليكم اذا حضر أحدكم الموت أن ترك خيراً الوصية» وزعم عكرمة أن الخير حيث وقع في القرآن هو المال وليس يصح في بعض المواضع والشديد القوى ويقال هو شديد لهذا الامر وقوى له اذا كان مطيقاً له قادراً على ضبطه قال ذلك الزمخشري وأطلق الحب وأراد به الكسب لان كسب شيء والسعى في تحصيله انما يكون كما ينبغي اذا كان منشؤه حبه فقوة الانسان واقتداره على تحصيل المال وتوفيره انما جاءت له من شدة محبته له لهذا جعل الشدة وقوة الاحتمال لحب المال وهى في الحقيقة لكسبه لكن اذا عرض له سبيل لفعل ما هو خير على الحقيقة والنهوض بأمر مما طلبه الله منه تراه يضعف وتتضاءل قوته حتى لا يستطيع أن يخطو خطوة في ذلك السبيل الا من رحم ربك وقد فسر الشديد بالبخل والمعنى على ذلك وانه لبخل شحيح بسبب حبه للمال (أفلا يعلم اذا بعثر ما في القبور وحصل ما في الصدور) بعثرة ما في القبور اخراج موتاهها منها وتحصيل ما في الصدور اظهاره وبراذه بحيث لا يبقى سبيل الى اخفائه ومفعول يعلم محذوف حذف لتجول

إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ خَبِيرٌ

سورة القارعة مكية وهي إحدى عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْقَارِعَةُ مَا الْقَارِعَةُ وَمَا أَزْكَرُكَ مَا الْقَارِعَةُ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ
كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ

الفكرة في استحضاره ولو ذكر فربما مر على اللسان بدون الالتفات اليه أما وقد حذف فلا تجدد النفس محيصاً عن البحث عنه حتى يتم الكلام ويفهم وقد دل عليه ببعثة ما في القبور وتحصيل ما في الصدور أي أفلا يعلم الكنود الحريص ما يكون حاله في الحياة الاخرى يوم تكشف السرائر أفلا يعلم ظهور ما كان يخفي من قسوة وتحيل أفلا يعلم أنه سيحاسب عليه أفلا يعلم أنه سيوفي جزاء ما كفر نعمة ربه (ان ربهم بهم يومئذ لخبير) ان الله خبير بهم يومئذ وفي هذا اليوم كذلك ولكنه كنى عن مجازاتهم على ما كسبوا بالخبرة بهم كما تقول في تهديد شخص أو وعيده سأعرف لك عملك هذا مع أنك تعرفه الآن قطعاً وانما عرفانه الآتي هو ظهور أثر المعرفة كما قال تعالى « سنكتب ما قالوا » مع أن الكتب حاصل منه الآن والله أعلم

(القارعة) اسم من أسماء القيامة كالخاقة والصاخة والطامة والغاشية وهي قارعة لأنها تقرر القلوب بهولها (ما القارعة) استفهام عن حقيقتها قصد به تهويل أمرها كأنها لشدة ما يكون فيها مما تقزع له النفوس وتدهش له العقول يصعب تصورها (وما أدراك ما القارعة) أي أي شيء يعرفك بها زيادة في تعظيم تلك الحادثة العظيمة كأن لا شيء يحيط بها ويفيدك برسمها ثم أخذ يعرفها بزمانها وما يحدث للناس فيه فقال (يوم يكون الناس كالفرش المبثوث) الفرش هو ذلك

وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ

الطير الذي تراه يتراعى على ضوء السراج ليلاً وهو مثل في الحيرة والجهل بالعاقبة والناس من هول ذلك اليوم يكتنون منتشرين حيارى هائمين لا يدرون ماذا يصنعون ولا ما يصنع بهم وقال في آية أخرى كأنهم جراد منتشر (وتكون الجبال كالعهن المنفوش) العهن هو الصوف والمنفوش الذي نقشته بيديك أو بالآلة أخرى ففرقت شعراته بعضها عن بعض فهو على حالة يطير مع أضعف ريح والجبال لتفتتها وتفرق أجزائها لم تبق لها الا صورة الصوف المنفوش لا تلبث أن تتطاير وتذهب ومن المعلوم أن ذلك هو اليوم الذي تبتدى فيه الحياة الآخرة وفيها تعرف مقادير الاعمال وما تستحقه من الجزاء (فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية) ثقل ميزانك أى كان لك قدر وقيمة كأنك اذا وضعت في كفة ميزان كان لها بك رجحان وانما يكون المقدار والقيمة لاهل الاعمال الصالحة والفضائل الراجحة فهؤلاء يجزون بالنعيم الدائم ولا ريب في أن معيشتهم فيه تكون معيشة تمتع ولذة وهى التى تسمى العيشة الراضية الهنيئة (وأما من خفت موازينه فأما هاربة) خف ميزانك سقطت قيمتك فكأنك لست بشيء حتى لو وضعت في كفة ميزان لم ترجح بك عن أختها ومن كان في هذه الحياة الدنيا كثير الشر قليل الخير لم يبلغ بنفسه منازل الاخلاص لله في القول والعمل ولم يرتفع بها عن دنيا الامور وسفاسفها ولم ينزل عقله عن الاشراك ولم يطهر قلبه عن رذائل الاخلاق فذلك كان في الناس أخاً للعدم والفناء فماذا يكون في الآخرة لا ريب أنه لا يكون شيئاً فلا وزن له ولا ترجح به كفة ميزان لو وضع فيها وهذا المعنى قد صرح به في القرآن في قوله تعالى في سورة الكهف فخبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً وبهذا صح نسبة الثقل والخفة الى الموازين بأجمعها أما لو كان المعنى على ما قالوه فهو مالا تدل عليه العبارة وكان من حق التعبير من رجحت كفة أعماله وخفت كفة أعماله فاذا ارادوا ارجاع لفظ الآية الى ما فهموه احتاجوا الى تأويل كثير كما هو ظاهر وتقدير الله الاعمال وما تستحقه من الجزاء في ذلك اليوم انما يكون على

وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَةٌ

حسب ما يعلم لا على طريقة ما نعلم فعلينا أن نفوض الامر فيه اليه سبحانه مع الايمان به ومن عجيب ما قال بعض المفسرين « أنه ميزان بلسان وكفتين كأطباق السموات والارض ولا يعلم ماهيته الا الله » فإذا بقي من ماهيته بعد لسانه وكفتيه حتى يفوض العلم فيه الى الله والكلام فيه جراءة على غيب الله بغير نص صريح متواتر عن المعصوم ولم يرد في الكتاب الا كلمة الميزان وقد عرفت ما يمكننا أن نفهم منها لننتفع بما نعتقد وما عدا ذلك فعلمه الى الله سبحانه وقد قالوا ان منكر الميزان بالمعنى المعروف لا يكفر خصوصاً اذا كان القائل به يحدد له لساناً وكفتين مع أن البشر قد اخترعوا من الموازين ما هو أتقن من ذلك وأضبط وأوفى ببيان الموزون أفيأبى الحكيم الخبير الا استعمال ذلك الميزان الخشن الناقص الذي هدى العلم عقول البشر الى ما هو أدق منه أيا بى عالم الغيب والشهادة أن يستعمل فى وزن المعانى والمعقولات الا ذلك الميزان الذى اخترعه بعض البشر قبل أن يبلغ بهم العلم ما بلغ بأهل العصر الحاضر وما سيبلغ بأهل العصور المقبلة على أن جميع ما اخترع البشر وما يبتكرون مما دق ولطف انما هو معيار الاثقال الجسمية والاوزان المحسوسة وهلا يكون الالىق بالمقام الالهى أن يكون ميزان المعانى المعقولة لديه أسمى وأعلى من أن يكون على نمط ما يستعمله البشر مهما ارتقت المعارف وسمت بهم العلوم وهل يليق بمن يخاف مقام ربه أن يجزأ على القول بوجوب الاعتقاد بأن الميزان الذى يزن الله به الاعمال يوم القيامة هو الميزان الذى تستعمله القبائل التى لم تزل فى مهد الانسانية الاولى ميزان ضعفاء العقول قصار الانظار الذين لا يعرفون قيمة للايمان بالغيب ولا لحياء العقل من الله واطراقه عن ان ينظر الى ما تشامخ من غيوب الله تعالى علمه وتعاضمت قدرته عليك أيها المؤمن المطمئن الى ما يخبر الله به أن توقن أن الله يزن الاعمال ويميز لكل عمل مقداره ولا تسأل كيف يزن ولا كيف يقدر فهو أعلم بغيبه والله يعلم وأنتم لا تعلمون (فأمة هاوية) أى مرجعه الذى يأوى اليه كما يأوى الولد الى أمه هاوية أى مهواة سحيقة يهوى فيها وسميت هاوية مع أنها يهوى فيها كما سميت العيشة راضية مع أنها يرضى بها (وما أدراك ماهية) أى ما الذى يخبرك بما هى تلك الهاوية

نَارُ حَامِيَةٍ

سُورَةُ الْبَكَارِ مَكِّيَّةٌ وَهِيَ ثَمَانِ آيَاتٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْهَٰكُمُ التَّكَاثُرُ ۚ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۚ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ

وَأَيُّ شَيْءٍ تَكُونُ (نار حامية) هِيَ نار ملتهبة يهوى فيها ليلقى جزاء ما قدم من عمل والله أعلم

(الْهَٰكُمُ التَّكَاثُرُ) الْهَٰهَ يَلْهِيهِ أَيُّ شَغْلِهِ حَتَّىٰ صَرَفَ ذَهْنَهُ عَنْ سَوَىٰ مَا تَهَيَّ بِهِ وَإِذَا أَلْهَيْتَ بِشَيْءٍ فَأَنْتَ بِهِ غَافِلٌ عَمَّا سِوَاهُ وَالتَّكَاثُرُ هُوَ التَّبَاهَىٰ بِالكَثْرَةِ يَقُولُ كُلٌّ لِلْآخِرِ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ وَلَدَا أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَا لَا أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ رِجَالٌ حَرَبٌ وَضَرْبٌ وَمَا يَشْبَهُ ذَلِكَ مِنْ ضُرُوبِ التَّفَاخُرِ يَقُولُ قَدْ شَغَلَكَمُ التَّفَاخُرُ وَالتَّبَاهَىٰ بِكَثْرَةِ الْإِنصَارِ أَوْ الْأَشْيَاعِ وَصَرَفَكُمْ ذَلِكَ عَنِ الْجِدِّ فِي الْعَمَلِ فَكُنْتُمْ فِي لَهْوٍ بِالْقَوْلِ عَنِ الْفِعْلِ وَفِي غَفْلَةٍ بِالْفُرُورِ وَالْإِعْجَابِ بِالْآبَاءِ وَالْإِعْوَانِ عَنْ صَرَفِ الْقَوَىٰ فِي الْقِيَامِ بِمَا فَرَضَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْأَعْمَالِ لَا تَفْسِكُمْ وَأَهْلِكُمْ وَدِينَكُمْ وَاسْتَمِرُّ بِكُمْ ذَلِكَ (حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ) أَيُّ حَتَّىٰ هَلَكْتُمْ وَصَرْتُمْ مِنْ أَهْلِ الْقُبُورِ أَنْتُمْ هِيَ الْغَايَةُ وَأَنْتُمْ تَظُنُّونَ أَنْكُمْ فَائِزُونَ (كَلَّا) ارْتَدَّ عُوا عَنْ مِثْلِ هَذَا الظَّنِّ الْبَاطِلِ فَانْهَ لَا فَوْزَ بِالتَّكَاثُرِ وَإِنَّمَا الْفَوْزُ بِمُحَقِّقَةِ التَّفَاوُصِ وَالتَّضَافُرِ عَلَى الْحَقِّ وَ (سَوْفَ تَعْلَمُونَ) مُصِيرُكُمْ إِذَا اسْتَمَرُّ بِكُمْ هَذَا التَّفَاخُرُ بِالْبَاطِلِ بِدُونِ عَمَلٍ صَحِيحٍ يَنْفَعُكُمْ فِيمَا يُطَالِبُكُمْ بِهِ الْمَجْدُ الصَّادِقُ وَالْإِوَامِرُ الْإِلَهِيَّةُ وَلَمَّا كَانَتْ عَوَاقِبُ اللَّهِوَ انْمَا تَأْتِي بَعْدَ إِمْهَالٍ مِنَ اللَّهِ وَطَوِيلَ مَدَقَةٍ فِي الْإِغْلَابِ عِبْرٌ بَسُوفَ وَلَمَّا كَانَتْ الْغَفْلَةُ شَدِيدَةً وَتَمَكَّنَ اللَّهُوَ فِي النُّفُوسِ قَدْ وَضَعَ عَلَى الْقُلُوبِ

ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ كَلَّا لَوْ تَقْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ

حجاباً كثيفاً يحول دون البصائر والمصائر أعاد الخبر للتأكيد بقوله (ثم كلاسوف تعلمون) وأتى بحرف العطف « ثم » مع أن الجمل المؤكدة لا توصل بحروف العطف ليفيدك أنه خبر جديد بمعناه جيء به بعد الخبر الأول لا مجرد إعادة لفظ . وقد يكون معنى التكاثر التغالب في الكثرة أى طلب كل واحد أن يكون أكثر من الآخر مالا أو رجالا والسعى الى ذلك لمجرد المغالبة لا يبنى الساعى في سعيه إلا أن يكون ماله أكثر من مال الآخر وأن يكون عضده أقوى من عضده لينال بذلك لذة التعلل والظهور بالقوة كما هو شأن الجمهور الاغلب من طلاب الثروة والقوة ولا ينظر الدائب منهم في عمله الى تلك الغاية الرفيعة غاية البذل مما يكسب في سبل الخير أو النهوض بالقوة الى نصرة الحق وحمل المبطلين على معرفته والتوجه اليه ثم المحافظة بعد ذلك عليه وهو معنى مقبول ذهب اليه بعض المفسرين وهو يتفق كل الاتفاق مع ما يفهم من لفظ الهاكم فان الذى يلهى الناس عن الحق في كل حال ويصرف وجوههم عنه الى الباطل هو طمع كل واحد منهم في أن يكون أكثر من الآخر مالا أو عدد رجال ليعلوا عليه ويستخدمه لسلطانه بقدر ما يدخل في امكانه أما التفاخر بالاقتوال فانما يلهيهم في بعض الاحوال . جرت سنة الغافلين اذا نهوا والذاهلين اذا ذكروا بعواقب ما هم فيه أن يحدثوا أنفسهم بأنهم يعلمون ذلك وأنهم يفعلون ما يفعلون عن يقظة وارشاد بصيرة وأنهم محيطون بما ينشأ عن فعالهم ويسلون أنفسهم بذلك ليستمروا في لهوهم لخارب الله هذه الهواجس وقاتل هذه الخواطر بقوله (كالا لو تعلمون علم اليقين) أى ارتدعوا عن تغريركم بأنفسكم بدعوى انكم تعلمون عاقبة ما أنتم فيه من اللهو بالتكاثر فان هذا الذى تسمونه علماً ليس على الحقيقة بعلم وانما هو وهم وظن لا يلبث أن يتغير مهما استحكم عقده من قلوبكم لانه لا يطابق واقعاً والجدير بأن يسمى علماً هو علم اليقين أى العلم الذى هو من أفراد اليقين واليقين هو الاعتقاد الذى يطابق الواقع عن عيان أو دليل صحيح مقدماته بديهية أو منتهية الى البديهييات بحيث يستحيل تغيره والنفس اذا ما كت هذا النوع من العلم ملك هو ارادتها وعاد المصرف لها في شئونها فلو تعلمون هذا

لَتَرُونَ الْجَحِيمَ ثُمَّ لَتَرُونَهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ثُمَّ لَتَسْتَلْنَ يَوْمَئِذٍ

العلم لرفعكم عن هذا التكاثر ودفعكم الى السعى فيما تصلح به ظواهركم وتخلص به لله سرائركم وتتحد به في تأييد الحق هممكم لان التحقق من سوء العاقبة ينأى بالنفس عما يفضى اليها ويدفعها الى طلب ما هو أحسن منها لجواب لو محذوف حذف ليطلبه العقل من الشرط وما سبقه ليستحكم فيه فضل استحكام . ثم استأنف القول لذكر بعض ما ينتهي اليه هذا اللهو وهو عذاب الآخرة بعد خزي الدنيا ولو كان اليقين به حاصلًا ما أقدمت النفس الموقنة به على عمل أوعد الله بذلك العذاب عليه فقال (لترون الجحيم) أى ان دار العذاب التى لا يمنعكم الآن تصورها عن اللهو بالباطل مع أنها جزاء من يلهو به عن الحق هى ثابتة لا ريب فيها ولترونها بأعينكم فاجعلوا صورة عذابها حاضرة فى أذهانكم فتكون منبهة لكم الى ما هو خير لكم مما تلهون به ولما كان الكثير من الناس يظن أنه يعتقد بالآخرة وما فيها من عذاب ونكال ومع ذلك يرتكب السيئات ويقترب المنكرات وهو فى ذلك يبنى نفسه بأنه ممن يعفو الله عنهم فيزحزحه عن النار بمجرد نسبته الى دين وتجلببه بقلب من ألقاه كأن يسمى نفسه مسالمًا وهو يخالف أحكام القرآن أو من أمة محمد وهو يعمل أعمال أعداء محمد صلى الله عليه وسلم لما كانت هذه الظنون مما يسرع الى النفوس أبطلها الله بتأكيده الخبر وتكريره فقال (ثم لترونها عين اليقين) أى لترونها رؤية هى اليقين نفسه وعلم العيان والمشاهدة من أفراد اليقين يسمى عين اليقين لانه هو الذى تنتهى اليه جميع العلوم اليقينية لان العلم البرهانى ان لم ينته الى علم عيانى لا يعد يقينًا فالعيانى هو ذات اليقين وبقية العلوم تضاف اليه متى استوفيت شرائطها وكفى برؤية الجحيم عن ذوق العذاب فيها وهى كناية شائعة فى الكتاب العزيز فاذا كان اللاهون بالتفاخر لا بد أن يصلوا نار الجحيم الى أى دين أو الى أى شخص كانت نسبتهم فلم يبق عليهم الا أن يتقوا الله فى أنفسهم وينتهوا عما يقذف بهم فى ذلك العذاب الاليم وينظروا الى ما هم فيه من نعمة فيرعوا حق الله فيها ويستعملوها فيما أمر الله أن تستعمل فيه ولا يكتفوا منها بالتمتع بالذات ثم التفاخر بها ولقد زاد الامر عليهم تشديدًا بقوله (ثم لتسئلن يومئذ

عَنِ النَّعِيمِ

عن النعيم) أى أن هذا النعيم الذى تتفاخرون به وتعدونه مما يباهى به بعضكم بعضاً هو مما لا بد أن تسئلوا عنه ماذا صنعتم به هل أدبتم حق الله فيه وراعى حدود أحكامه فى التمتع به فان لم تكن الحقوق أدبت ولم تكن الأحكام روعيت كان هذا النعيم غاية الشقاء فى دار البقاء نسأل الله أن يوفقنا لرعاية أحكامه فيما أنعم به علينا .

بقى أن يقال ان هذا خطاب موجه الى الأحياء ليعتبروا فكيف جىء فيه بصيغة الماضى فى قوله زرتم المقابر مع أن الحى لم يزرها بعد وهو ما حمل أبا مسلم على أن يقول أن هذا خطاب من الله للناس فى الآخرة للتقريع مع أن قوله ثم لتسئلن يومئذ يدافع هذا المعنى وحمل غير أبى مسلم على الرجوع الى أسباب ذكرها المفسرون وقالوا انها نزلت فى قبيلتين من الانصار تفاخروا وتكاثروا بأحيائهم فلما كثرت احدى القبيلتين الاخرى لجأت الاخرى الى الاموات وقالت هلموا بنا الى المقابر لنعد من كان من رجالنا ونشير الى قبورهم ولا يخفى أن التكاثر ليس خاصاً بالرجال بل يشمل المال واللفظ والخطاب عامان ولا بد أن يكون المعنى على العموم وتلك الحيرة التى حاروها لاداعى اليها فقد جرت سنة الكتاب العزيز أن يخاطب الحاضر بما كان من الغائب متى كان الحاضر يحتذى حذو الغائب وكان للجميع جامعة تضمهم والله يخاطب جمهور المترفين أو المنعمين من الناس ويدكر عمل من سلف منهم كما قال لبنى اسرائيل يخاطبهم فى زمن النبي صلى الله عليه وسلم « واذ انجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب » الى آخر الآيات وفيها ثم اتخذتم العجل الخ مع أن الذى وقع له ومنه ما ذكر فى الآيات أسلافهم وذلك كما تقول لأعقاب الظالمين « لازتم تظلمون الناس حتى أكلكم الظلم وأهلككم ففنيتم وأراح الله الناس منكم » مع أن الذى هلك واستراحت الناس منه أسلافهم وهو ضرب من التعبير يريد الله به أن يحمل تبعة الناس بعضهم على بعض حتى لا يدع أحدهم أخاه يأتى منكراً يفسد به أمر جماعتهم والله أعلم

سورة العصر مكيه وهى ثلاث آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا

(العصر) هو الزمان الذى تقع فيه حركات الناس وأعمالهم أى الدهر كما قال ابن عباس أو هو الوقت المعروف الذى تجب فيه صلاة العصر وكان من عادة العرب أن يجتمعوا وقت العصر ويتحدثوا ويتذاكروا فى شئونهم وقد يكون فى حديثهم مالا يلىق أو مايؤذى به بعضهم بعضاً فيتوهم الناس أن الوقت مذموم فأقسم الله به لينبهك الى أن الزمان فى نفسه ليس مما يذم ويسب كما اعتاد الناس أن يقولوا زمان مشئوم ووقت نحس ودهر سوء وما يشبه ذلك بل هو عاد للحسنات كما هو عاد للسيئات وهو ظرف لشؤون الله الجليلة من خلق ورزق واعزاز واذلال وخفض ورفع فكيف يذم فى ذاته وإنما قد يذم ما يقع فيه من الافاعيل الممقوتة يقسم الله بالزمان مطلقاً أو بذلك الوقت المخصوص (ان الانسان لفي خسر) الى آخر السورة ليؤكد بالقسم تلك القضية وهى أن جميع من يطلق عليه اسم الانسان ممن هو معهود للمخاطبين وهو الانسان العاقل البالغ خاسر فى أعماله ضرباً من الخسران الا من يستثنىهم فأعمال الانسان هى مصدر شقائه لا الزمان ولا المكان وتصور الاستغراق بما قدمت لاينافى الشمول والعموم كما رأيت فان هذا هو الفرق بين الاستغراق بكل والاستغراق بأل فالاستغراق بأل انما هو لما عهد عند المخاطبين من الافراد يخطر بالبال عند ذكر الاسم مقروناً بها ولو قيل كل انسان فى خسر الا الذين آمنوا لم يصح لان من الانسان الصبي الذى لا يميز وهو لا خسران له ولا ربح و (الذين آمنوا) هم الذين صدقوا بأصل الخير والشر كما قال وصدق بالحسنى واعتقدوا اعتقاداً صحيحاً بالفرق بين الفضيلة والرذيلة وبأن لا تقسمهم وللعالم حاكما يرضى ويغضب ويثيب ويعاقب وأن لهم جزاء على أعمالهم الخير بالخير والشر بالشر ثم كان تصديقهم هذا بالغاً من أنفسهم حد أن يملك ارادتهم فلا يعملون

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ

الا ما يوافق اعتقاداتهم فهم يعملون الصالحات وهي الأعمال التي عدت بالتفصيل في القرآن وجماعها أن تكون نافعا لنفسك ولأهلك ولقومك وللناس أجمعين بعيداً من أن تضر أحداً الا لكف ضرر أعظم منه ومن تلك الأعمال الدعوة الى الحق والوصية بالصبر لكنه أراد تخصيص هذين الامرين بالذكر لأنهما حفاظ كل خير ورأس كل أمر والحق هو ما تقرر من حقيقة ثابتة أو شريعة صحيحة وهو ما أرشد اليه دليل قاطع أو عيان ومشاهدة فشرط النجاة من الخسران أن يعرف الناس الحق ويلزموه أنفسهم ويمكنوه من قلوبهم ثم يحمل الناس بعضهم بعضاً عليه بأن يدعو كل صاحبه الى الاعتقاد بالحقائق الثابتة التي لا ينزع فيها العقل ولا يخلف فيها النقل وأن يبعدوا بأنفسهم وبغيرهم عن الاوهام والخيالات التي لا قرار للنفوس عليها ولا دليل يهدي اليها ولا يكون ذلك الا باعمال الفكر واجادة النظر في الاكوان حتى تستطيع النفس دفع ما يرد عليها من باطل الاوهام وهذا اطلاق للعقل من كل قيد مع اشتراط التدقيق في النظر لا الذهاب مع الطيش والانخداع للعادة والوهم ومن لم يأخذ نفسه بحمل الناس على الحق الصحيح بعد أن يعرفه فهو من الخاسرين كما ترى في الآية بالنص الصريح الذي لا يقبل التأويل و (الصبر) قوة النفس على احتمال المشقة في العمل الطيب واحتمال المكروه من الحرمان من اللذة ان كان في نيلها ما يخالف حقاً أو مالا تأذن به الشريعة الصحيحة التي لا اختلاف فيها واحتمال الآلام اذا عرضت المصائب بدون جزع ولا خروج في دفعها عن حدود الحق والشرع فشرط النجاة من الخسران أن تصبر وأن توصي غيرك بالصبر وتحمله على تكميل قواه بهذه الفضيلة الشريفة التي هي أم الفضائل بأسرها ولا يمكنك حمله على ذلك حتى تكون بنفسك متحلياً بها والا دخلت فيمن يقول ولا يفعل كما يقول فلم تكن ممن يعمل الصالحات . ترى السورة قد شملت بحكمها جميع أفراد المكلفين سواء بلغتهم دعوة نبي قآمن بها من آمن وعمل الصالح ووصى بالحق والصبر فنجا وأعرض عنها من أعرض فخرس أم لم تبلغهم دعوة فمنهم من صدق بأصل الخير والشر كما قلنا وآثر الفضيلة على الرذيلة ففاز ومنهم من أساء العمل فخرس الخسران الذي يناسبه . ثم تراها لم تدع

سورة الهزلة بكية وهي سبع آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ

شيأ الا أحرزته في عبارتها الموجزة حتى قال الشافعي رحمه الله لو تدبر الناس هذه السورة لوسعتهم أو قال لو لم ينزل من القرآن سواها لكفت الناس ولجلالة ما جمعت روى أنه كان الرجال من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا التقيا لم يتفرقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر سورة والعصر ثم يسلم أحدهما على الآخر . ذلك ليدكر كل منهما صاحبه بما يجب أن يكون عليه فإذا رأى منه شيأ يذنبى أن يذبه اليه فعليه أن يذكره له (١)

(الهزمة اللمزة) هو الذى يطعن فى أعراض الناس ويغض منهم ويحقّر من أعمالهم وصفاتهم وينسب اليهم السيآت تلذذاً بالخط منهم وإظهاراً لترفعه عليهم أصله من الهمز واللمز بمعنى الطعن والكسر ثم صار عرفاً لغوياً فيما ذكرنا ويقال ان الهمز يكون بالعين والشدق واليد حركات تشير الى التحقير والهزاء واللمز يكون باللسان وبناء الصفة على فعلة يفيد كثرة وقوع الفعل وجريانه مجرى العادة وذلك هو حال (الذى جمع مالا وعدده) أى أن الذى يجمعه على الخط من أقدار الناس هو جمعه المال وتعديده أى عدّه مرة بعد أخرى شغفاً به وتلذذاً بأحصائه لأنه لا يرى عزأولا شرفأولا مجداً فى سواه فكما نظر الى كثرة ما عنده منه انتفخ

(١) وقد كتبنا تفسيراً لهذه السورة الشريفة نشر وحده بعد ان طبع فى مطبعة جريدة المنار وهو ما كذا القيناه درسا فى مدينة الجزائر فى شهر جمادى الآخرة سنة ١٣٢١ وفيه تفصيل طويل لما اجلناه فى هذا التفسير المختصر فمن اراد بيانا اوسع وتفصيلا أبداع فليطلب ذلك التفسير فهو فيما اعلم غير مسبوق بنظير

يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ وَمَا أَدْرَاكَ
مَا الْحُطَمَةُ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ الَّتِي تَطْلُعُ عَلَى الْأَفْتَدَةِ

وظن أنه من رفعة المكانة بحيث يكون كل ذى فضل ومزية دونه فهو يهزأ به ويهمزه ويأمره ثم لا يخشى أن تصيبه عقوبة على الهمز واللمز وتزيق العرض لأن غروره بالمال أنساه الموت وصرف عنه ذكرى المال فهو (يحسب أن ماله أخلده) أى يظن أن ما عنده من المال قد حفظ له حياته التى هو فيها وأرصدها عليه فهو لا يفارقها الى حياة أخرى يعاقب فيها على ما كسب من سئ الأعمال .
يوعد الله من هذه صفاته بالويل والهلاك والنكال فى قوله ويل لكل همزة لمزة الخ ثم يصرح بذلك ويفصله فى دفع وهمه أن المال يغنى عنه من الله شيئاً وأنه يحفظ عليه ما هو فيه أبداً حيث يقول (كلا) فليرتدع عن هذا الظن (لينبذن فى الحطمة) أى ليلقين فيها محقراً مصغراً وكلمة النبذ تقييد التحقير والتصغير (وما أدراك ما الحطمة) يستفهم عنها لتعظيم أمرها واكبار هولها كأنها مما لا يحيط به العرفان فمن ذا الذى يعلمك بمقدار ما لها الا الذى أوجدها وأعدها لأهلها هى (نار الله الموقدة) أى النار التى لا تنسب الا اليه سبحانه لانه هو منشئها فى عالم لا يعلمه سواه وهى ملتهبة التهاباً لا يدرك كنهه غيره سبحانه ولا يمكننا الوقوف على حقيقة تلك النار وانما الذى نعرفه أن للعذاب بها ألماً أشد من ألم الاحراق بنار الدنيا ولذلك وصفها بوصف ليس من أوصاف نيران الدنيا فقال (التى تطلع على الافئدة) ولا يخفى عليك أن الفؤاد انما يطلق على القلب اذا لوحظ أنه بمعنى موضع الوجدان والشعور فكأنه قال التى تعلو مشاعرهم ومداركهم ومواطن الوجدان من نفوسهم أى أن سلطان هذه النار على قوى الوجدان والشعور التى هى مواطن النيات والمقاصد ومساكن الفضائل والرذائل وقد قيل أن معنى الاطلاع ههنا المعرفة والعلم أى أن هذه النار تعرف ما فى الافئدة فتأخذ من تعرفهم أهلاً لها من أهل الوجدان الخبيث والنار التى تعرف من يستحق العذاب بها لا تكون من النيران المعروفة لنا فى الدنيا بالضرورة وعلى كل لا يخلو

إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ

سورة الفيل كنه وهي خمس آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ
فِي تَضْلِيلٍ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ

الكلام على هذا التأويل الثاني من التمثيل والتجوز ثم قال (أنها عليهم مؤصدة) أي مطبقة لا مخلص لهم منها (في عمدة ممددة) العمدة جمع عمود وهو معروف والممددة المطولة أي أن أطباقها عليهم واغلاقها في عمدة طويلة تمتد على أبوابها بعد أن تؤصد وهو تصوير لشدة الاطباق واحكامه وتأكيده لليأس من الخلاص أما كون العمدة كعمدنا فذلك مما لا يمكن معرفته لأن شأن الآخرة غير شأن الدنيا كما هو معلوم فلا وجه للبحث فيه وذلك يكون عند نزول العذاب يجد الممذب أنه لا مخلص له مما هو فيه سواء خلس بعد ذلك ان كان من المؤمنين الخاطئين أم لم يخلص ان كان من الذين أحاطت بهم خطيئاتهم فكانوا من الهالكين نعوذ بالله من غضبه ونسأله أن يحفظنا من نقمه

(ألم تر) أي ألم تنظر أو ألم تعلم (كيف فعل ربك) أي الحالة التي وقع عليها عمل الله الذي يتولى أمرك (بأصحاب الفيل) وهو الحيوان المعروف وبين تلك الحالة التي وقع عليها الفعل الإلهي بقوله (ألم يجعل كيدهم في تضليل) الكيد هو تدبير السوء والتضليل التضييع والهمزة في ألم تر وألم يجعل للتقرير أي أنك ترى ما كان عليه فعل الله بأولئك القوم وذلك أنه ضيع تدبيرهم وخيب سعيهم (وأرسل عليهم طيراً أبابيل) الأبابيل الفرق والجماعات يتبع بعضها بعضاً من طير

تَرْفِيهِمْ بِمِجْكَاتٍ مِنْ سَجِيلٍ فَجَعَلَهُمْ كَصَفِّ مَأْكُولٍ

أو خيل مثلاً والطير هو ما يطير في الهواء سواء كان صغيراً أو كبيراً وسواء كان مرئياً لك أم غير مرئي (والسجيل) الطين المتحجر وأصل الكلمة فارسية دخلت في العربية أى حجارة من طين متحجر (والعصف) ورق الزرع (والمأكول) الذى أكله الدود أو السوس أو أكل الدواب بعضه وتناثر من بين أسنانها بعضه .

السورة الكريمة تعلمنا أن الله سبحانه يريد أن يذكر نبيه ومن تبلغه رسالته بعمل عظيم من أعماله الدالة على عظم قدرته وأن كل قدرة دونها فهي خاضعة لسلطانها وأنه القاهر فوق عباده لا يمنعهم منه عزة ولا تتعاضى عليه منهم قوة ذلك العمل العظيم هو أن قوماً أرادوا أن يتعززوا بفيلهم لينغلبوا بعض عباده على أمرهم ويصلوا اليهم بشر وأذى فأهلكهم الله ورد كيدهم وأبطل تدبيرهم بعد أن كانوا فى ثقة بعددهم وعددهم فلم يفددهم ذلك شيئاً وكان يمكننا أن نكتفى بذلك المعنى من الآيات ولا نزيد عليه أدنى تفصيل وهو كاف فى الاعتبار والعظة كما اكتفينا بذلك فى أصحاب الاختود لكن فى هذه السورة يجوز لنا التفصيل لأن واقعة الفيل فى ذاتها كما ورد فى هذه الآيات معروفة متواترة الرواية حتى أنهم جعلوها مبدأ تاريخ يحددون به أوقات الحوادث فيقولون ولد عام الفيل وحدث كذا لسنتين يعد عام الفيل ونحو ذلك وما تواتر من الواقعة هو أن قائداً حبشياً ممن كانوا قد غلبوا على اليمن أراد أن يعتدى على الكعبة المشرفة ويهدمها لينزع العرب من الحج إليها أو ليقهرهم ويذلهم فتوجه بجيش جرار إلى مكة لذلك واستصحب معه فيلاً أو فيلة كثيرة زيادة فى الأرهاب وحشر الخوف إلى القلوب ولم يزل سائراً يغلب من يلاقيه حتى وصل إلى المغمس بالقرب من مكة ثم أرسل إلى أهل مكة يخبرهم أنه لم يأت لحربهم وإنما أتى لهدم البيت ففرعوا منه وانطلقوا إلى شعف الجبال ينتظرون ما هو فاعل وفى اليوم الثانى فشا فى جند الحبشى داء الجدري والحصبة قال عكرمة وهو أول جدري ظهر ببلاد العرب وقال يعقوب بن عتبة فيما حدث أن أول مارؤيت الحصبة والجدري ببلاد العرب ذلك العام وقد فعل ذلك الوباء بأجسامهم ما يندر وقوع مثله فكان لهم يتناثر ويتساقط فذعر الجيش وصاحبه

ولولا هارين وأصيب الحبشى ولم يزل يسقط لحمه قطعة قطعة وأثمة أثمة حتى انصدع صدره ومات في صنعاء هذا ما اتفقت عليه الروايات ويصح الاعتقاد به وقد بينت لنا هذه السورة الكريمة أن ذلك الجدرى أو تلك الحصبة نشأت من حجارة يابسة سقطت على أفراد الجيش بواسطة فرق عظيمة من الطير مما يرسله الله مع الريح فيجوز لك أن تعتقد أن هذا الطير من جنس البعوض أو الذباب الذى يحمل جراثيم بعض الامراض وأن تكون هذه الحجارة من الطين المسموم اليابس الذى تحمله الرياح فيعلق بأرجل هذه الحيوانات فاذا اتصل بجسد دخل فى مسامه فأثار فيه تلك القروح التى تنتهى بافساد الجسم وتساقط لحمه وان كثيراً من هذه الطيور الضعيفة يعد من أعظم جنود الله فى اهلاك من يريد اهلاكه من البشر وأن هذا الحيوان الصغير الذى يسمونه الآن بالمكروب لا يخرج عنها وهو فرق وجماعات لا يحصى عددها الا بارئها ولا يتوقف ظهور أثر قدرة الله تعالى فى قهر الطاغين على أن يكون الطير فى ضخامة رؤس الجبال ولا على أن يكون من نوع عنقاء مغرب ولا على أن يكون له ألوان خاصة به ولا على معرفة مقادير الحجارة وكيفية تأثيرها فله جند من كل شىء

وفى كل شىء له آية * تدل على أنه الواحد

وليس فى الكون قوة الا وهى خاضعة لقوته فهذا الطاغية الذى أراد أن يهدم البيت أرسل الله عليه من الطير ما يوصل اليه مادة الجدرى أو الحصبة فأهلكته وأهلكت قومه قبل أن يدخل مكة وهى نعمة من الله غمر بها أهل حرمه على وثنيهم حفظاً لبيته حتى يرسل من يحميه بقوة دينه صلى الله عليه وسلم وان كانت تقمة من الله حلت بأعدائه أصحاب الفيل الذين أرادوا الاعتداء على البيت بدون جرم اجترمه ولا ذنب اقترفه . هذا ما يصح الاعتماد عليه فى تفسير السورة وما عدا ذلك فهو مما لا يصح قبوله الا بتأويل ان صحت روايته ومما تعظم به القدرة أن يؤخذ من استعز بالفيل وهو أضخم حيوان من ذوات الاربع جسماً ويهلك بحيوان صغير لا يظهر للنظر ولا يدرك بالبصر حيث ساقه القدر . لا ريب عند العاقل أن هذا أكبر وأعجب وأبهر .

سورة قريش مكية وهي أربع آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِلَيْلَافٍ قُرَيْشٍ إِيْلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ

قريش اسم للقبائل العربية من ولد النضر بن كنانة كما قال القرطبي وعليه الفقهاء أو من ولد فهر بن مالك بن النضر بن كنانة على ما قال الزبير بن بكار انه قول جميع النساين والايلاف من معنى الألفة والائتلاف وفيه معنى أنس شيء الى آخر وتعلقه به وسلامته عن النفور منه وكانت لقريش رحلتان احدهما الى اليمن زمن الشتاء والاخرى الى الشام في فصل الصيف يذهب التجار فيهما للكسب واجتلاب الربح والاستكثار من الرزق وكانت قوافل قريش معروفة عند العرب محترمة في نفوسهم لانهم سكان مكة وجيران بيت الله فكانوا يذهبون آمنين ويعودون سالمين لا يمسهم سوء على كثرة ما كان بين العرب من النهب والسلب فكان احترام البيت ضربا من القوة المعنوية التي كانت تحتوى بها قريش في أسفار أرباب التجارة منها ولهذا ألفت نفوسهم تلك الاسفار وتعلقت بالرحيل لاستدراهم مادة الرزق ولو نزلت مكانة البيت من نفوس العرب ونقصت حرمة عندهم واستطالت الايدى بالتعدى على سفارهم لنفروا من تلك الرحلات وكرهتها نفوسهم فقلت وسائل الكسب بينهم لأن أرضهم ليست بذات زرع وما هم بأهل صناعة مشهورة يحتاج الناس اليها فيأتونهم وهم في عقر ديارهم ليأخذوا منها فكانت تضيق عليهم مسالك الارزاق وتنقطع عنهم ينابيع الخير وهذا الاجلال الذي ملك نفوس العرب من البيت الحرام اما هو من تسخير رب البيت سبحانه وقد حفظ حرمة برد الحبشة الذين أرادوا هدمه واهلاكهم قبل أن ينقضوا منه حجرا بل قبل أن يدنوا منه بل زاد ذلك في اجلاله لتدوم ألفتهم للاسفار والترحل في الصيف والشتاء

فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ

فعلیهم أن (یعبدوا رب هذا البيت) الذی حماه ومکن منزلته من النفوس وقد (أطعمهم) بذلك وأوسع لهم من الرزق ولولا ذلك لكانوا فی جوع وضنك عیش (وآمنهم) من التعدی وتناول الایدی الى أموالهم وأرواحهم ولولا ذلك لاخذهم الخوف من كل مكان فاذا كانوا یعرفون ان هذا كله انما هو فضل رب هذا البيت فلم يتوسلون اليه بتعظیم غيره وتوسیط سواه عنده مع أنه لا فضل لاحد من یوسطونه فی شيء من النعمة التي هم فیها نعمة الا من وهی أكبر نعمة ونعمة الرزق وكفاية الحاجة

من الحق أن یفردوه بالتعظیم ویخصوه بالاخلاص لهذا المعنی الذی بیناه ذهب بعض المفسرين الى أن هذه السورة متعلقة بالتي قبلها وأن اللام فی قوله لا یلا ف قريش متعلقة بقوله فجعلهم كعصف ما کول أي انه أرسل الجماعات من الطیر على أصحاب الفیل ترميهم بالحجارة حتى أصیبوا بمرض الجدري أو الحصبة وهلكوا به فعل ذلك كله لا یلا ف قريش رحلة الشتاء وهو وجیه ولا ینافیہ الفصل بالبسملة وكونها سورة مستقلة لانه لا مانع من أن تكون سورة مستقلة متعلقة بأخرى والفصل انما هو لاظهار العناية بما احتوت علیه كل من السورتين حتى أن كل جملة مما حوتا یصح أن تقصد لذاتها وما تضمنته سورة قريش جدير بالعناية لان الخطاب والتذكیر كان لهم وهم قومه صلى الله علیه وسلم والسامعون لدعوته فحق أن یفصل ما یختص بهم عما قبله بفواصل یلفت الذهن اليه وان كان مرتبطا به وبعضهم یقول أن اللام متعلقة بمحذوف أي أعجبوا لا یلا ف قريش وما فیہ من عظم النعمة وهو من اجلال العرب للبيت وذلك من فضل ربه ومع ذلك یعظمون غيره ويتوسلون اليه بسواه فان لم تكن هناك نعمة سوى هذه النعمة فلیعبدوه ویخلصوا له لاجلها وهذا خلاف لایهم طالب العظة والاعتبار فوجه التذكیر ظاهر ایلافهم رحلة الشتاء بدل من ایلاف قريش وأفراد الرحلة مع اضافتها الى

نُورَةُ الْمَابُغُونِ بَكِيَّةٌ وَهِيَ سَبْعُ آيَاتٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْذِّينِ

متعدد مما يعرف مثله في كلام العرب قال شاعرهم * حمامة بطن الواديين ترنمى *
ولم يقل بطنى الواديين وقال آخر

كلوا في بعض بطنكم تعفوا * فان زمانكم زمن خميص
ولم يقل في أبعاض بطونكم وبقية المعنى ظاهر مما سبق بيانه والله أعلم

(أرأيت) ههنا بمعنى هل عرفته وعلمت من هو على التحقيق والدين هو ما وراء
المحسوس من الشؤون الالهية التي لا تحيط بها النفس الا من وجه معرفة آثارها
في الكون المشهود ومنها ارسال الرسل المؤيدين بالأدلة القاطعة الدالة على أنهم
يبلغون عن مدبر الكون ما تصلح به شؤون عبادته وان للناس حياة أخرى يجازى
فيها كل بعمله وكثير من الناس بل الاغلب فيهم يقولون أنهم يعتقدون بالدين
ويصدقون بالله وبما جاء به رسله وبالحياة الآخرة وينتحلون لأنفسهم المزايا على
غيرهم ويظنون أنهم المصطفون وأن من يخالفهم قد حقت عليه كلمة الشقاء
ويكتفون في الدلالة على هذه الدعوى ببعض أعمال رسما الدين وان لم يكن لها
أثر في قلوبهم كالصلاة وما يشابهها مما لا ينقص مالا ولا يحشم مشقة والجمهور
الاعظم من النصارى واليهود والمشركين ممن كان في زمنه صلى الله عليه وسلم
كانوا يظنون أنهم يصدقون بالدين ولا يكذبون به وغرتهم صلاتهم وصيامهم مع أنهم
كانوا في أبعد طريق عن حقيقة دينهم يشهد بذلك ما كان بينهم من التنافس في
الباطل واستعباد قلوبهم لضعيفهم وبخل غنيهم بالمعروف يفيض به على فقيرهم

فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ وَلَا يَحْضُرُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ

ومع ذلك كان كل فريق منهم يعد نفسه صاحب الخطوة عند الله ويحسب كل من خالفه في مسقط النعمة فأراد الله جل شأنه أن يعلمنا من هو المكذب بالدين ومن تعريف المكذب به يعرف المصدق به على الحقيقة فبدأ الكلام بقوله (أرأيت الذي يكذب بالدين) على طريقة الاستفهام لينبه السامع الى أن الأمر خفي على المحجوب عن نفسه المغرور بأوهامه والخطاب لكل من يفهم الخطاب أى هل تبينت من هو المكذب بالدين ان لم تكن تبينته (فذلك الذي يدع اليتيم ولا يحض على طعام المسكين) هذا هو المكذب بالدين فاللقاء واقعة في جواب الشرط الذي دل عليه الكلام ويدع اليتيم أى يدفعه ويزجره زجراً عنيفاً اذا جاء يطلب منه حاجة احتقاراً له وتكبراً عليه لفقده النصير وخلو ظهره من المجير واليتيم مظهر الضعف وممثل الحاجة فالمستهين به مستهين بكل ضعيف محتقر لكل محتاج فالمنى أن المكذب بالدين هو الذي يغمط حق غيره تعزاً بقوته فكل ظالم منتهك لحرمان الحقوق مكذب بالدين متى كان ذلك له ديدناً وسواء كان ظلمه لقليل من الناس أو كثير والحض على طعام المسكين الحث عليه ودعوة الناس اليه والذي لا يحض على اطعام المساكين لا يطعمهم في العادة فقوله ولا يحض على طعام المسكين كناية عن الذي لا يجود بشيء من ماله على الفقير المحتاج الى القوت الذي لا يستطيع له كسباً وليس المسكين هو الذي يطلب منك أن تعطيه وهو قادر على قوت يومه بل هذا هو الملحف الذي يجوز الاعراض عنه وتأديبه بمنعه ما يطلب وانما جاء بالكناية ليفيدك أنه اذا عرضت حاجة المسكين ولم تجد ماتعطيه فعليك أن تطلب من الناس ان يعطوه وفيه حث للمصدقين بالدين على اغانة الفقراء ولو بجمع المال من غيرهم وهى طريقة الجمعيات الخيرية فأصلها ثابت في الكتاب بهذه الآية وبنحو قوله في سورة الفجر كلابل لا تكرمون اليتيم ولا تحاضون على طعام المسكين ونعمت الطريقة هى لأغانة الفقراء وسد شيء من حاجات المساكين فالمكذب بالدين هو المحتقر لحقوق الضعفاء كبراً وعتواً والذي يبخل بماله على الفقراء ويبخل بسعيه عند الاغنياء لاغانة أهل الحاجة ممن تحقق عجزهم عن كسب ما ينقذهم

قَوْلُ الْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ الَّذِينَ هُمْ يُرَآؤُونَ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ

من الضرورة ويقوم لهم بالكفاف من العيش وسواء كان المحتقر للحقوق البخيل بالمال والسعي مصلياً أم غير مصلي فصلاته لا تنفعه ولا تخرجه من صف المكذبين بالدين لأن المصدق بشيء لا تطاوعه نفسه بالخروج عن حد ماصدق به فلو صدق بالدين لعرف أن صلاته انما هي عنوان الخشوع للقاهر الذي لا يجوز لأحد أن يشاركه في عظمته الذي خالق الخلق وحدد حدود الحق وفرض على الاقوياء الرحمة والعدل في الضعفاء فمن لم تذكره صلاته بهذا الذي فرض عليه فهو كاذب في قوله وراء في ظاهر عمله ولهذا جاء سبحانه بالتفريع على تعريف المكذب بالدين في قوله (فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون) أى اذا عرفت أن المكذب هو الذي أقفر قلبه من الرحمة وأجذب من العدل والمكرمة فويل لأولئك الذين يصلون ويؤدون ما يسمى صلاة في عرفهم من الاقوال والافعال وهم مع ذلك ساهون عن صلاتهم أى غافلة قلوبهم عما يقولون وما يفعلون فهو يركع في ذهول عن ركوعه ويسجد في لهو عن سجوده وانما هي حركات تشبه الخطرات التي يخطوها في الطريق ينقل قدمه من خطوة الى أخرى ولا يلاحظ في كل خطوة ذلك المقصد الذي قصده بمشيئه فهو يدخل في الصلاة بنية أنها مطلوبة منه ثم يمضى فيها بلا شعور بالقصد مما يفعل وانما تجرى الاقوال وتتابع الحركات على حسب العادة بلا استحضار للمعاني في القلوب ثم هم ساهون عن حقيقة الصلاة والحكمة التي فرضها الله لها وهو اخضاع القوى لواهب القوى وهل يجتمع الخشوع له والخروج عن أوامره فيما فرض أن يراعى من حقوق عباده ولذلك قال في وصفهم (الذين هم يراؤون) أى يفعلون ما يرى للناس فقط ولا يستشعرون من روح العبادة ما أوجب الله على النفوس أن تستشعره ثم أعاد ذكر الوصف الذي يتحقق به التكذيب بالدين مع الصلاة فقال (ويمنعون الماعون) والماعون كل ما يستعان به فأولئك الذين يصلون ولا يأتون من الاعمال الا ما يرى للناس مما لا يكلفهم بذل شيء من مالهم ولا يخشون منه ضرراً يالحق بأبدانهم أو نقصاً يلم بجاههم ثم يمنعون الناس وجوههم

ولا ينهضون يباعث الرحمة الى سد حاجتهم وتوفير ما يكفل راحتهم وأمنهم وطمأنينتهم أولئك لا تنفعهم صلاتهم ولا تخرجهم من حد المكذبين بالدين لافرق في ذلك بين من وسموا أنفسهم بسمة الاسلام أو غيره فان حكم الله واحدا لمحاباة فيه للاسماء المنتحلة التي لا قيمة لها الا بمعانيها الصحيحة المنطبقة على مراده تعالى من تحديد الأعمال وتقرير الشرائع فخاصة المصدق بالدين التي تميزه عن سواه من المكذبين هي العدل والمرحمة وبذل المعروف للناس وخاصة المكذب التي يمتاز بها عن المصدقين هي احتقار حقوق الضعفاء وقلة الاهتمام بمن تلذعهم آلام الحاجة وحب الاثرة بالمال والتعزز بالقوة ومنع المعروف عن يستحقه من الناس . فهل تجد نصاً أصرح من هذا في تعريف التصديق بالدين وبيان الصفات التي يعرف بها وفي شرح التكذيب بالدين وتفصيل لوازمه وما يتميز به عن التصديق فهل للمسلمين أي الذين يزعمون أنهم يؤمنون بمحمد صلى الله عليه وسلم وبما جاء به أن يقيسوا أحوالهم وما يجدونه من أنفسهم بما يتلونه في هذه السورة الشريفة ليعرفوا هل هم من قسم المكذبين او المصدقين وليقلعوا عن الغرور برسم هذه الصلاة الذي لا أثر له الا في ظواهر أعضائهم وبهذا الجوع الذي يسمونه صياما ولا أثر له الا في عبوس وجوههم وبذاءة ألسنتهم وضياع أوقاتهم في اللهو والبطالة وليرجعوا الى الحق من دينهم فيقيموا الصلاة ويحيوا صورتها بالخشوع وتطامن القوى الانسانية لقوة العلي الأعلى فلا يخرجون من الصلاة الا وهم ذاكرون أنهم عبيد له يلتمسون رضاه في رعاية حقوق برايه ويجعلوا من الصوم مؤدباً للشهوة ومهذباً للرغبة ورادعاً للنفس عن الاثرة فلا يكون في صومهم الا الخير لا أنفسهم ولقومهم ثم يؤدوا الزكاة المفروضة ولا ييخلوا بالمعونة فيما ينفع الخاصة والعامة أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها أفلا ينظرون الى ما نزل بهم من الضعف والذلة وتسلط الامم عليهم وانتقاصها ارضهم من كل جانب فيعلموا أن هذا هو عقاب الله للمكذبين فيطلبوا النجاة من هذا كله بأخذ سبيل المصدقين وينزعوا عن الانخداع بما سولته لهم أو هام بعض من يدعى العلم منهم فان العيان قد كذبهم وأظهر ان سنة الله في الخلق لا تتبدل وأن صورة الاثمة اب الى دين لا تغنى عن اتباع هديه الصحيح الذي يدل عليه النص بعد التواتر في النقل واجادة التدبر من العقل

سورة الكوثر مكتوبة وهي ثلاث آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَنْعَمْنَا عَلَى الْكَوْثَرِ

كان المستهزئون من قريش كالعاص بن وائل وعقبة بن أبي معيط وأبي لهب وأمثالهم إذا رأوا أبناء النبي صلى الله عليه وسلم يموتون يقولون بتر محمد أي لم يبق له ذكر في أولاده من بعده ويعدون ذلك عيباً يلهزون به وينفرون به الناس من أتباعه وكانوا إذا رأوا ضعف المسلمين وفقركم وقتلهم يستخفون بهم ويهونون أمرهم ويعدون ذلك مغزاً في الدين ويأخذون القلة والضعف دليلاً على أن الدين ليس بحق ولو كان حقاً لنشأ مع الغنى والقوة شأن السفهاء مع الحق في كل زمان أو مكان غاب فيه الجهل وكان المنافقون إذا رأوا ما فيه المؤمنون من الشدة والبأساء يمنون أنفسهم بغلبة اخوانهم القدمات من الجاحدين وينتظرون السوء بالمسلمين لقلة عددهم وخلو أيديهم من المال وكان الضعفاء من حديثي العهد بالاسلام من المؤمنين تمر بنفوسهم خواطر السوء عندما تشتد عليهم حلقات الضيق فأراد الله سبحانه أن يحص من نفوس هؤلاء ويكتب الآخرين فأكد الخبر لنبيه أن ما يخيله النظر القصير قليلاً هو الكثير البالغ الغاية في الكثرة ليؤكد له الوعد بأنه هو الفائز وأن متبعه هو الظافر وأن عدوه هو الخائب الابر الذي يمحي ذكره ويعني أثره فقال (انا أعطيناك الكوثر) الكوثر صيغة مبالغة من الكثرة ومعناه الشيء البالغ من الكثرة حد الإفراط قليل لاعرابية رجع ابنها من السفر بم رجع ابنك قالت بكوثر وقال الكميت

وأنت كثير يا ابن مروان طيب * وكان أبوك ابن العقائل كوثرأ
وقد اختلف في معنى الكوثر اختلافاً كثيراً ولكن تعريف اللفظ يدل على أن المقصود به كان امراً معهوداً للسامعين تذهب أذهانهم اليه عند سماعه وان كانوا لم يعهدوا وصفه بأنه أكثر الكثير وهو الذي كان يستقله أعداؤه والذي أعطيه

النبي صلى الله عليه وسلم وكان معروفاً لسامعي الكتاب هو النبوة والدين الحق والهدى وما فيه سعادة الدارين الدنيا والآخرة ولهذا فاني أذكر لك ما قاله جمع من الأئمة فقال أبو بكر بن عياش ويمان بن وثاب الكوثري هم أصحابه وأشياعه صلى الله عليه وسلم الى يوم القيامة وقال الحسين بن الفضل هو تيسير القرآن وتخفيف الشرائع وقيل هو الاسلام وقال هلال هو التوحيد وقال عكرمة هو النبوة وقال جعفر الصادق هو نور قلبه صلى الله عليه وسلم وقيل هو العلم والحكمة وقال ابن كيسان هو الايثار « أي ايثاره عليه السلام غيره بالمنفعة على نفسه » وقيل هو الفضائل الكثيرة التي وهبه الله اياها وذهب جماعة من الأئمة الى أنه الخير الكثير والنعم الدنيوية والاخرية من فضائل وفواضل وهو مارواه ابن جرير وابن عساكر عن مجاهد وهو المشهور عن ابن عباس وأخرج البخاري وابن جرير والحاكم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنه أنه قال الكوثري الخير الذي أعطاه الله تعالى اياه قال ابو بشر قلت لسعيد فان ناساً يزعمون أنه نهر في الجنة قال النهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه الله عز وجل اياه عليه الصلاة والسلام ويروى هذا الجواب عن ابن عباس نفسه أيضاً فاذا جرينا على أن الكوثري هو النبوة أو العلم والحكمة أو نور القلب وهو الهدى والرشاد كان المعنى أن الذي أعطيناك من هذه المواهب هو الكثير الذي لا يكثره شيء وان استقله الضعفاء أو استخف به الاعداء وأي كثير يعد كثيراً بالنسبة الى الهدى والرشاد ومعرفة طريق السعادة أليس الهدى منبع القوة والعزة وهو الذي يحفظهما بعد حصولهما اذ القوة والمال اذا لم تكن معهما الهداية التي تقيم صاحبها على الطريق المستقيم لابقاء لهما ومصيرهما الى الزوال ومصير كثيرتهما الى قلة كما قال سيدنا علي رضى الله عنه العلم يحفظك وأنت تحفظ المال ولا سبيل الى حفظ المال الا بالعلم والجهل والضلال مضیعة كل شيء من جاه أو مال . وعلى أن الكوثري هو الخير الدنيوي والاخروي يكون المراد أن هؤلاء المستعجلين بالسيئة يظنون أنك في قل وضعف وأن أغنياءهم وأقوياءهم في عز ونعمة ولا يعلمون أننا قد أعطيناك من الخير الذي يعظم في نفوسهم مما يعرفون ومن الخير المدخر لك في الغيب مما لا يدركون شيئاً كثيراً لاتحد كثرته . وأما أن هناك نهراً في الجنة اسمه الكوثري وأن الله أعطاه نبيه فلا يفهم من معنى الآية بل الذي يدل عليه

فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ

سياق السورة وموضع نزولها هو الذي بيناه من أحد القولين والاول وهو النبوة وما في معناها أرجح أما الاعتقاد بوجود هذا النهر في الجنة فموقوف على تواتر الاخبار التي وردت به وقد ذهب جماعة الى انها متواترة المعنى فيجب الاعتقاد بوجود النهر على وجه عام بدون تفصيل أو صافه لكثرة الخلاف فيها ولكن التواتر لا يصح أن يكون برأى جماعة أو برأى آخرين فخذ التواتر هو ما تراه في القرآن تعرفه طبقة عن طبقة يؤمن تواطؤ كل منها على الكذب الى أن وصل اليك لا تنكره فرقة من فرق المسلمين قاطبة فهذا التواتر هو الذي يوجب اليقين وليس الامر كذلك في أحاديث النهر فانها وان كثرت طرقها لم تبلغ هذا المبلغ فلا يصدق عليها اسم المتواتر خصوصاً وانه يظن بالرواة سهولة التصديق في مثل هذا الخبر لما فيه من غرابة الكرامة وجمال الوصف فيسهل على كل راو الميل الى تصديق ما يقال له وهذا يخل بشرط التواتر لان أول شرط فيه أن لا يكون في الطبقات راحة التشيع للمروى وبالجملة فخير وجود النهر من الاخبار الغيبية لا يجوز الاعتقاد به الا بعد التيقن أنه ورد عن المعصوم صلى الله عليه وسلم فاذا وصلت فيه الى اليقين الذي لا يجوز عندك تبذله وكان علمك بصدوره عنه عليه السلام كعلمك بوجود مكة أو المدينة قبل أن تراهما فاعتقد به والا ففوض الامر الى الله وقل لا أعلم والله أعلم . بعد أن أكد الله لنبيه الخبر بان الذي أعطاه هو الكوثر الذي لا يستقل عدده ولا ينتقص قدره وان ما يعدونه كثيراً عظيماً فهو بالنسبة اليه قليل وحقير طالبه بالشكر على ذلك وأفضل الشكر الاخلاص لله في العبادة لا يشرك في التوسل اليه ولا في الخشوع القلبي له أحداً سواه ثم بذل المال للفقراء والمساكين ولهذا فرع على الخبر قوله (فصل لربك وانحر) أى فاجعل صلاتك لربك وحده وانحر ذبيحتك مما هو نسك لك الله وحده فانه هو مربيك ومسبغ النعم عليك دون سواه كما قال تعالى « قل ان صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين » نوه الله بقدر ما أعطاه ثم أمره بالشكر عليه وبعد ذلك استأنف الكلمة لذكر حال أعدائه ومبغضيه

إِنَّ شَانِكَ هُوَ الْبَتْرُ

ووعيدهم بما سيصيبهم في أنفسهم وأموالهم فقال (ان شانتك هو الأبتَر) الشانى معناه المبغض والابتَر هو المقطوع الذى لا يبقى أثره ولا يحسن من بعده ذكره شبه بقاء الذكر الحسن واستمرار الاثر الجميل بذنب الحيوان لانه يتبعه وهوزينة له وشبه الحرمان من ذلك ببتَر الذنب وقطعه لأن البتر شاع في هذا المعنى وان كان أصله القطع مطلقاً وشأنه صلى الله عليه وسلم لم يكن يشنؤه لشخصه لان شخصه كان محبباً الى النفوس كما يدل عليه تاريخه قبل ادعاء النبوة وانما كان الشانئون يشنئون ويمقتون ما جاء به من الهدى فهؤلاء هم الغارقون فى الضلال الخابطون فى ظلام الجهل فلا ريب فى فساد أمرهم وانقطاع أثرهم وقد حقق الله هذا الوعيد فى شأنيهِ فى زمنه صلى الله عليه وسلم من العرب وغيرهم فقد جرم الخذلان الى غاية الخسران ولم يبق لهم الا سوء الذكر لبعضهم والنسيان التام لبقيتهم بخلاف النبي صلى الله عليه وسلم ومن اهتدى بهديه فان ذكرهم لا يزال رفيعاً وأثرهم لا يزال باقياً فى نفوس الصالحين

ومن يشناً ما جاء به صلى الله عليه وسلم ويدخل فيما يضمه معنى الابتَر أولئك الذين يتركون كتاب الله الذى جاء به ويتمسكون بالظنون وأقوال غير المعصومين بدون نظر الى ما تجر اليه من الانحراف عن سبيل جملة الدين القويم ويجعلون الدين شيعاً وفرقاً بعد أن صرح الكتاب بقوله ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء ثم يعملون على ترويح ما ألصقوا أو الصق أسلافهم بالدين من البدع وبيع العبادات واتخاذ الوسائط والشفعاء ممارى بهم الى ما وراء الصراط المستقيم فاذا ذكروا بالقرآن أودعوا اليه لووا رؤوسهم وذكروا لك من قول القائلين ما يصادمون به كتاب الله ويظنون أنهم به يؤمنون فلا عجب أن ترى الغضب الالهى يتبعهم فى كل مكان ويقذفهم من ذلة الى مسكنة ومن متلفة الى مهلكة وهم لا يشعرون بل ينظرون الى ما يحل بهم وهم ضاحكون لاهون ساخرون فعوذ بالله من الخذلان ونستعين به على تقرير الايمان

سورة الكافرون مكية وهي ست آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ
 مَا أَعْبُدُ

الكافر هو المعاند الجاحد الذي اذا رأى ضياء الحق أغمض عينيه واذا سمع الحرف من كلمته سد اذنيه ذلك الذي لا يبحث في دليل بعد عرضه عليه ولا يذعن لحجة اذا اخترقت فؤاده بل يدفع جميع ذلك حباً فيما وجد نفسه فيه مع الكثير ممن حوله واستند في التمسك به الى تقليد من سلفه فهذا الصنف هو الذي قال الله فيه ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون . بعض هذا الصنف بل الغالب من أفرادهم يقول للداعي الى الحق أو يحدث نفسه ليلهمها عن فهمه الام يدعونا الى الله فنحن نعتقد به الى توحيده فنحن نوحده وغاية ما في الأمر تتخذ شفعاء اليه نسأله بحقهم عنده أو بمكائهم لديه الى عبادته فنحن نركع ونسجد له وغاية ما عندنا زيادة على ذلك أننا نعظم أوليائه وأهل الشفاعة عنده وتتوسل اليهم ليتوسلوا اليه . هذه وساوسهم وهذه أمانهم فأراد الله سبحانه أن يقطع العلاقة بينهم وبين ما عليه الداعي الى الحق صلى الله عليه وسلم بأصرح ما يمكن أن يصرح به فقال له (قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون) أي ازالاله الذي تزعمون أنكم تعبدونه ليس هو الذي أعبده لا نكم إنما تعبدون ذلك الذي يتخذ الشفعاء أو الولد أو الذي يظهر في شخص أو يتجلى في صورة معينة أو نحو ذلك مما تزعمون وإنما أعبد الهاً منزهاً عن جميع ما تصفون به الهكم (ولا أنتم عابدون ما أعبد) أي أنكم لستم بعابدين الهى الذي أدعو اليه كما تزعمون فإنكم زعمتم أن الذي تعبدونه يتقرب اليه بتعظيم الوسائط لديه فتوسلتم بها اليه وتعتقدون أنه يقبل

وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِي دِين

توسطها عنده فهذا الذي تعبدونه ليس الذي أعبد فلهذا لا تعبدون ما أعبد بل تعصونه وتخالفون أمره ثم لما كانوا يظنون أن عبادتهم التي يؤدونها أمام شفعايم أو في المعابد التي أقاموها لهم وبأسمائهم أو يؤدونها لله في المعابد الخاصة به أو في خلواتهم وهم على اعتقادهم بالشفعاء عبادة لله خالصة وأن النبي صلى الله عليه وسلم لا يفضلهم في شيء نفى أن تكون عبادته مماثلة لعبادتهم وأن تكون عبادتهم مماثلة لعبادته فقال (ولا أنا عابد ما عبدتم) فما هذه مصدرية وليست بالمتصلة مثل التي تقدمت أي ولا أنا بعابد عبادتكم (ولا أنتم عابدون ما أعبد) أي ولا أنتم عابدون عبادتي فمفاد الجملتين الأوليين الاختلاف التام في المعبود ومفاد الجملتين الأخريين تمام الاختلاف في العبادة فلا معبودنا واحد ولا عبادتنا واحدة لأن معبودي ذلك الإله الواحد المنزه عن الند والشفيع المتعالى عن الظهور في شخص معين أو المحابة لشعب أو واحد بعينه الباسط فضله لكل من أخلص له الأخذ قهره بناصية كل من نابذ المبلغين الصادقين عنه والذي تعبدونه على خلاف ذلك وعبادتي مخصصة لله وحده وعبادتكم مشوبة بالشرك مصحوبة بالغفلة عن الله تعالى فلا تسمى على الحقيقة عبادة فأين هي من عبادتي (لكم دينكم) دينكم مختص بكم لا يتعداكم إلى فلا تظنوا أنني عليه أو على شيء منه (ولي دين) أي ديني هو دين خاص بي وهو الذي ادعوا إليه ولا مشاركة بينه وبين ما أتم عليه ولا يخفى أن هذا المعنى الذي بيناه هو ما يهدي إليه أسلوب السورة الشريفة خصوصاً هذه الآية الأخيرة « لكم دينكم ولي دين » فإنها صريحة في أن المراد نفي الخلط المزعوم ومادلت عليه السورة هو مادلت عليه آية أن الدين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء أي لا علاقة بينك وبينهم لا في المعبود ولا في العبادة وأما ما قيل من غير ذلك فإن صح شيء مما ورد فيه فأحمله على معناه مستقلاً عن معنى السورة ولا تغتر بكل ما يقال فأفضل ما تفهم هو أقرب ما يفهم والله أعلم

سورة النصر مدنية وهي ثلاث آيات

الخطاب الذي يرد في كتاب الله مفرداً تارة يكون للنبي صلى الله عليه وسلم خاصة كقوله « يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضات ازواجك » وقد يكون لكل من يفهم الخطاب كقوله « أرأيت الذي ينهى عبداً اذا صلى أرأيت ان كان على الهدى أو أمر بالتقوى » وكقوله « أرأيت الذي يكذب بالدين » وقد يكون خطاباً له عليه السلام مقصوداً به نفسه الشريفة مع من معه من أصحابه والمخلصين من أمته ومن هذا الاخير ما جاء من الخطاب في سورة النصر . كان المؤمنون أيام قلتم وفقرهم وكثرة عدد عدوهم وقوته واشتداده عليهم ومضايقته لهم يمر الضجر بنفوسهم ويأخذ الحزن منها مأخذه وكان صلى الله عليه وسلم يحزن ويضيق صدره لما يكذبه قومه والحق يسطع نوره وهم يعمون عنه حتى قال الله له « فلعلك تارك بعض ما يوحى اليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل (سورة هود) وقال له قد نعلم انه ليحزنك الذي يقولون فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون » وقال بعد ذلك « وان كان كبر عليك اعراضهم فان استطعت أن تبتغي نقفاً في الارض أو مسلماً في السماء فتأتيتهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين » وجاء في غير ذلك من آيات الكتاب ما يدل على أن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه كانوا يضجرون ويقلقون لشدة ما كانوا يلقون ولا يخفى ما في القلق والضجر من استبطاء نصر الله لاحق الذي بعث به نبيه بل فيه شيء من السهو عن وعد الله بتأييد دينه وليس ذلك من النقص الذي يعاب به صلى الله عليه وسلم فان كل مخلوق لا يعلم من غيب الله ما يعلم الله لا بد أن يمسه هذا الضجر ويصيبه هذا القلق وتأخذه الشدة بهذا النسيان حتى يكون الكمال لله وحده قال « وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله » ولكن الله جل شأنه قد يعده على أقرب المقربين اليه كما قالوا حسنت الابرار سيئات المقربين وقد يراه النبي صلى الله عليه وسلم اذا رجع الى نفسه وخرج من غمرة الشدة ذنباً يتوب الى الله ويستغفره منه ولهذا ورد له الامر الالهي بالاستغفار مما كان منه من حزن وضجر في اوقات الشدة ورد له ذلك الامر في صورة البشارة بقرب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ
 أَفْوَاجًا فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا

مجىء الفتح والنصر حيث قال (اذا جاء نصر الله والفتح) فعبر باذا المفيدة لتحقيق وقوع ما يضاف اليه أى عند ما ترى نصر الله لدينه الحق على الباطل ويفتح الله بينك وبين قومك فيجعل لك الغلبة عليهم ويضعف أمرهم في التمسك بعقائدهم الباطلة (ورأيت الناس) عند ذلك (يدخلون في دين الله) وهو دينك الذى جئتهم به لزوال ذلك الغطاء الذى كان يحول بينهم وبينه وهو غطاء قوة الباطل فيقبلون عليه (أفواجا) أى طوائف وجماعات لا آحادا كما كان ذلك في بدء الامر أيام الشدة اذا حصل ذلك كله وهو لا ريب حاصل (فسبح بحمد ربك) أى فزه ربك عن أن يهمل الحق ويدعه للباطل يأكله وعن أن يخلف وعده فى تأييده وليكن هذا التنزيه بواسطة حمده والثناء عليه بأنه القادر الذى لا يغلبه غالب والحكيم الذى اذا أمهل الكافرين ليمتحن قلوب المؤمنين فلن يضيع أجر العاملين ولا يصلح عمل المفسدين والبصير بما فى قلوب المخلصين والمنافقين فلا يذهب عليه رياء المرأين (واستغفره) أى اسأله أن يغفر لك ولاصحابك ما كان من القلق والضجر والحزن لتأخر زمن النصر والفتح والاستغفار انما يكون بالتوبة الخالصة والتوبة من القلق انما تكون بتكميل الثقة بوعده الله وتغليب هذه الثقة على خواطر النفس التى تحدثها الشدائد وهو وان كان مما يشق على نفوس البشر ولكن الله علم ان نفس نبيه صلى الله عليه وسلم قد تبلغ ذلك الكمال فلذلك أمره به وكذلك تقاربه قلوب الكمل من أصحابه وأتباعه عليه السلام والله يتقبل ذلك منهم (انه كان توابا) أى انه سبحانه لا يزال يوصف بأنه كثير القبول للتوبة لانه رب يربى النفوس بالحن فاذا وجدت الضعف أنهضها الى طلب القوة وشددهم بها بحسن الوعد ولا يزال بها

سورة ابي لهب مكية وهي خمس ايات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ

حتى تبلغ الكمال وهي في كل منزلة تتوب عن التي قبلها وهو سبحانه يقبل توبتها فهو التواب الرحيم وكأن الله يقول اذا حصل الفتح وتحقق النصر وأقبل الناس على الدين الحق فقد ارتفع الخوف وزال موجب الحزن فلم يبق الا تسبيح الله وشكره والنزوع اليه عما كان من خواطر النفس فلن تعود الشدة تأخذ نفوس المخلصين ماداموا على تلك الكثرة في ذلك الا خلاص ومن هذا أخذ النبي صلى الله عليه وسلم أن الامر قد تم ولم يبق له الا ان يسير الى ربه فقال فيما روى عنه انه قد نعت اليه نفسه والله أعلم

(أبو لهب) هو عبد العزى بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم كان من أشد الناس عداوة له وصح في الخبر انه لما نزل قوله تعالى وأنذر عشيرتك الاقربين صعد النبي صلى الله عليه وسلم على الصفا ونادى بطون قريش فاجتمع من جميع القبائل خلق كثير حتى جعل الرجل اذا لم يذهب يرسل رسولا لينظر ما الخبر وكان في المجتمعين أبو لهب فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم رأيتم لو أخبرتمكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقوا قالوا نعم ما جربنا عليك الا صدقا قال فاني نذير لكم بين يدي عذاب شديد فقال أبو لهب « تبألك سائر الايام ألهذا جمعتنا » وكان أبو لهب يتبع النبي صلى الله عليه وسلم في بعض غدواته الى القبائل يدعوها الى الله فاذا قال رسول الله « اني رسول الله اليكم » يكذبه عمه وينهى الناس عن تصديقه وكانت امرأته أم جميل بنت حرب أخت أبي سفيان وعمة معوية رضى الله عنه تسمى عند القوم بالنميمة على رسول الله صلى الله عليه وسلم لتفسد عليه قلوب القوم والعشيرة والساعي بالنميمة يلقب بحامل الخطب كما قال الراجز

مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ

ان بنى الادرم حمالو الحطب * هم الوشاة في الرضاء والغضب
وفي كلامهم كثير من الشواهد على ذلك ولقب عبد العزى بأبى لهب لتلهب وجنتيه
واشراقهما كما زعموا وقد أنزل الله فيه وفي زوجته هذه السورة ليكون مثلاً يعتبر به
من يعادى ما أنزل الله على نبيه مطاوعة لهواه وإيثاراً لما ألفه من العوائد والعوائد
والاعمال واغتراراً بما عنده من الاموال وبماله من الصولة أو من المنزلة في قلوب
الرجال قال تعالى (تبت يدا أبى لهب وتب) تبت يدا فلان أى خسراً أو هلك والجملة
الاولى «تبت يدا أبى لهب» دعاء عليه بأن يخسر أو يهلك ولما كانت اليد هي
آلة العمل والبطش فاذا هلكت وانقطعت أو خسرت كان الشخص كأنه معدوم
هالك عد العرب خسراً كناية عن خسران الشخص نفسه وهلاكها كناية عن
هلاكه فاذا دعى عليه بخسران يديه فقد دعى عليه بخسرانه ولذلك قال بعد
الجملة الدعائية «تب» أى وهلك أو خسر هو أى أبو لهب أى أن مادعى به عليه
لم يكن لمجرد نكايته واظهار مقتته وشدة الغضب عليه كما جرت به سنة العرب
في كلامهم بل هذا دعاء فيه ما تعرفه العرب وفيه مع ذلك أنه بامر واقع فان
أبا لهب قد هلك أو خسر بالفعل والواو في قوله وتب للاستئناف أى وهو قد تب
ثم استأنف الكلام بغير حرف لبيان أن ما كان يتعزز به من المال والجاه
لم يكن مما يفديه ويخلصه من الخسران فقال (ما أغنى عنه ماله وما كسب) أى
لم يفده ماله ولا عمله الذى كان يأتيه في معاداة النبي صلى الله عليه وسلم طلباً للعلو
والظهور (سيصلى ناراً ذات لهب) لهب النار هو ما يسطع منها عند اشتعالها وتوقدها
أراد بوصفها هذا أنها نار شديدة الحرارة والمراد من هذه النار نار الآخرة التى لا يعلم
حقيقتها الا الله وسيعذب فيها أبو لهب جزاء ما كان يأتيه من العناد والمجاهدة
وسيصلها معه امرأته أم جميل كما قال الله (وامرأته حمالة الحطب) فامرأته
معطوفة على ضمير أبى لهب وحمالة الحطب نصب على فعل محذوف قصد به
التخصيص بالذم أى وامرأته تلك النمامة الواشية التى توجب النار بين الناس بنميمته

فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ

كَأَنَّهَا تَحْمِلُ الْحَطْبَ لَتَحْرِقَ مَا بَيْنَهُمْ مِنَ الصَّلَاتِ وَلِزِيَادَةِ التَّبَشُّعِ فِي التَّصْوِيرِ قَالَ (فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ) أَيْ فِي عُنُقِهَا حَبْلٌ مِنَ الْإِيفِ أَيْ أَنَّهَا فِي تَكْلِيفِ نَفْسِهَا الْمَشَقَّةَ الْفَادِحَةَ لِلْإِفْسَادِ بَيْنَ النَّاسِ وَتَأْرِثُ نِيرَانِ الْعَدَاوَةِ بَيْنَهُمْ بِمَنْزِلَةِ حَامِلِ الْحَطْبِ الَّذِي فِي عُنُقِهِ حَبْلٌ خَشِنٌ يَشُدُّ بِهِ مَا حَمَلَهُ إِلَى عُنُقِهِ حَتَّى يَسْتَقِلَّ بِهِ وَهَذِهِ أَشْنَعُ صُورَةٍ تَظْهَرُ امْرَأَةً تَحْمِلُ الْحَطْبَ وَفِي عُنُقِهَا حَبْلٌ مِنَ الْإِيفِ تَشُدُّ بِهِ الْحَطْبَ إِلَى كَاهِلِهَا حَتَّى تَكَادَ تَخْتَنُقُ بِهِ . وَقَدْ عَلِمْتَ مِمَّا أَشْرْنَا إِلَيْهِ سَابِقًا أَنَّ اللَّهَ لَمْ يَعْزِ بِسَبِّ أَبِي لَهَبٍ بِلَقْبِهِ الْمَعْرُوفِ بِهِ عِنْدَ قَوْمِهِ لِمَجْرَدِ عِدَاوَتِهِ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَذَكَرَ الْكِتَابُ مِثْلَ عَقِبَةَ بْنِ أَبِي مَعِيْطٍ وَالْعَاصِ بْنِ وَائِلٍ وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَكْبَرِ أَعْدَائِهِ مِمَّنْ كُنِيَ عَنْهُمْ أَحْيَانًا بِأَوْصَافِهِمْ وَلَمْ يَذْكُرْهُمْ وَإِنَّمَا خَصَّ أَبَاهُ بِالذِّكْرِ لِأَنَّهُ قَدْ اشتهر بالتكذيب وتأثر النبي في حركاته ليحبط مساعيه ويصد الناس عن الإقبال عليه فكانه بذلك صار ممثلاً للصاد عن الحق المنفر للناس من فهم ما أنزل الله على نبيه المحول لهم عن الإصغاء إلى الكلام الطيب وتناول ماضئته من الهدى والدلالة على نهج النجاة

فَمَا تَضُمُّهُ الدُّعَاءُ مِنَ التَّكَايَةِ وَمَا جَاءَ بِهِ الْوَعِيدُ مِنْ سُوءِ الْعَاقِبَةِ يَلَاقِي كُلَّ مُحْوَلٍ لِلنَّاسِ عَنْ تَدْبِيرِ كِتَابِ اللَّهِ وَفَهُمْ مَا جَاءَ فِيهِ مِنْ عِبَرٍ وَاحْكَامٍ لِجَمِيعِ أَوْلَئِكَ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَكَ أَنْتَ مَهْمَا بَلَغْتَ مِنَ الْعِلْمِ لَا يُمْكِنُكَ أَنْ تَعْرِفَ عَنْ اللَّهِ مِنْ كِتَابِهِ وَلَا مِنْ كَلَامِ نَبِيِّهِ شَيْئاً مِنَ الْإِحْكَامِ وَالْعُقَائِدِ وَلَا يَجُوزُ لَكَ أَنْ تَسْتَنْدَ فِي تَقْرِيرِ حُكْمٍ إِلَى آيَاتِ الْكِتَابِ وَلَا إِلَى الصَّحِيحِ مِنَ السُّنَنِ وَإِنَّمَا الْوَاجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تَرْجِعَ إِلَى قَوْلِ فَلَانٍ وَرَأَى فَلَانٌ وَإِنْ وَصَلْتَ مِنْ مَعْرِفَةِ لُغَةِ الْكِتَابِ وَالسُّنَةِ إِلَى أَعْلَى غَايَةِ أَوْلَئِكَ هُمْ آبَاءُ لَهَبٍ لَا تَغْنَى عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَعْمَالُهُمْ شَيْئاً وَسَيَصِلُونَ مَا يَصِلُ وَكُلُّ امْرَأَةٍ تَمُّ بَيْنَ النَّاسِ لِتَفْرُقَ كَلِمَتَهُمْ وَتَذْهَبَ بِهِمْ مَذَاهِبُ السُّوءِ فَهِيَ مِثْلَةٌ فِي هَذَا الْمِثَالِ نَازِلٌ بِهَا ذَلِكَ النِّكَالُ نَسَأَلُ اللَّهَ الْعَاقِبَةَ وَنُحَمِّدُهُ عَلَى هِدَايَتِهِ الْوَاقِيَةِ

سورة التوحيد وليكن هي خسران

بسم الله الرحمن الرحيم

قل هو الله أحد

(سورة الاخلاص) وهي سورة قل هو الله أحد تشتمل على أهم الاركان التي قامت عليها رسالة النبي صلى الله عليه وسلم وهي ثلاثة الاول توحيد الله وتنزيهه والثاني تقرير الحدود العامة للأعمال ببيان الصالحات وما يقابلها وذلك هو الشريعة والثالث أحوال النفس بعد الموت من البعث وملاقاة الجزاء من ثواب وعقاب وأول هذه الاركان هو التوحيد والتنزيه لاخراج العرب وغيرهم من الشرك والتشبيه وهو ركن الاركان وأول مأمور به من أصول الايمان فيصح أن يكون الامر بتبليغ ما في هذه السورة صادراً من الحق جل شأنه تحقيقاً لامر رسالته صلى الله عليه وسلم ولارشاد الناس الى ما يجب أن يعتقدوه في جانب الله ولا حاجة الى أن يسأل بعض العرب النبي صلى الله عليه وسلم ما هو نسب الله حتى تنزل السورة جواباً لهذا السؤال وإنما حاجة القوم بل العالم الانساني كانت ماسة الى بعثة النبي صلى الله عليه وسلم لدعوة المشركين من العرب وأهل الكتاب في سورة واحدة وتعريفهم بالله في أوجز عبارة وأجزلها ولما بينا لا يستغرب ماورد في الخبر من أنها تعدل ثلث القرآن لان من عرف معناها حق المعرفة وأدرك ماأشارت اليه ادراك صاحب البصيرة المستنيرة لم يكن بقية ما جاء في التوحيد والتنزيه عنده الا تفصيلاً للماعلم وشرحاً لما حصل (قل هو) أي الخبر الحق المؤيد بالبرهان الذي لا يرتاب فيه وهو مايعبر عنه النحويون بالقصة أو الحديث (الله أحد) الاحد هو الواحد الذي لا كثرة في ذاته فهو ليس بمركب من جواهر مختلفة فليس بمادى ولا هو من أصول متعددة غير مادية كما يزعم بعض أرباب الاديان من انه أصلان فاعلان أو أنه ثلاثة أصول تعتبر واحداً وهي متعددة سواء عقل ذلك أم لم يعقل فان الله برىء منه لان العقلاء أجمعت على أن موجد العالم وهو الله واجب الوجود ووجوب الوجود يستلزم ببداهة

الله الصمد

العقل وحدة الذات لان التعدد في الذات مستلزم لافتقار المجموع الى الاجزاء فلا يكون المجموع المسمى بالله أو موجد العالم واجب الوجود وكذلك الافراد نفسها لا يكون كل واحد واجب الوجود لانه يختلف عن الآخر بميزه وذلك المميز غير ما يشتركان فيه من الوجود فيكون كل منهما مركبا والمركب غير واجب كما ذكرنا فلم يبق الا أن يكون واجب الوجود واحدا فالله أحد ثم ان جميع ما يصل اليه عقلا وحواسنا من هذا العالم يدخل في نظام واحد يرتبط بعضه ببعض تمام الارتباط وهو يدل على أن موجدده واحد وتعدد الاصول فيه من مخترعات الاوهام فيجب أن يخلص العقل منها. ونكر الخبر لان المقصود أن يخبر عن الله بانه واحد لا بانه لا واحد سواه فان الوحدة تكون لكل واحد تقول لا أحد في الدار بمعنى لا واحد من الناس فيها والذي كان يزعمه المخاطبون هو التعدد في ذاته فاراد نفي ذلك بانه أحد وهو تقرير لخلاف ما يعتقد به أهل الاصلين من المجوس وما يعتقدده القائلون بالثلاثة منهم ومن غيرهم (الله الصمد) الصمد هو السيد الذي يصمد اليه ويقصد في الحوائج قال الشاعر

لقد بكر الناعي بخير بنى أسد بعمر بن مسعود وبالسيد الصمد

وهذه القضية « الله الصمد » من الكلمات الجامعة التي تملأ النفس مما قصد بها بدون جهد ولا تعب لان تعريف الصمد مع العلم بان لفظ الجلالة معرفة صير الجملة معرفة الطرفين وهي تقييد الحصر كما تقول زيد العالم اذا كان مخاطبك يعتقد أن غيره يشاركه في العلم فتدفع ظنه بذلك تريد أنه لا عالم سواه فهذه الآية تقول لك ان حاجة ما في الوجود لا تتوجه الى غيره وان محتاجا لا يجوز له أن يتوجه في طلب حاجته الى سواه فقد أفادتنا أن جميع المسببات تنتهي اليه وجميع ما يسرى فيها من الوجود فهو من ايجاده وان صاحب الاختيار كالانسان اذا أراد أن يحصل مسببا من سبب فعليه أن يبحث عن طريقة ارتباطه به على حسب ما أمره الله بالبحث والنظر والتدبر في مخلوقاته ليعلم كيف يسرى الوجود الموهوب من واجب الوجود من الاسباب الى المسببات ثم يذهب بها حتى يسندھا الى مبدئها وهو الامر الالهي هذا فيما يظهر فيه السبب والمسبب ويظهر فيه أثر الكسب وعمل

لَمْ يَكُنْ وَلَمْ يُولَدْ

الارادة والقوى الممنوحة البشرية أماماهو وراء ذلك مما لادخل للارادة فيه فعلى صاحب الحاجة أن لا يتوجه في المعونة عليها بعد الأخذ بالاسباب الا الى الله وحده فهو المستأثر بالعمل فيما وراء ما جعل لك فيه عملا وقوله الصمد يشعر بانه الذى ينتهى اليه الطلب مباشرة بدون واسطة ولا شفيع وهو فى ذلك يدعو الى ما يخالف عقيدة مشركى العرب الذين يعتقدون بالوسائط والشفعاء وكثير من أهل الاديان الآخر يعتقدون بان لرؤسائهم منزلة عند الله ينالون بها التوسط لغيرهم فى نيل مبتغياتهم فيلجئون اليهم أحياء أو أمواتا ويقومون بين أيديهم أو عند قبورهم خاشعين خاضعين كما يخشعون لله بل أشد خشية ثم هو الصمد فى تحديد الحدود العامة للأعمال ووضع أصول الشرائع فلا بد أن يرد الى ما أنزل جميع ما يقع الاختلاف فيه وليس من المباح أن يرجع الى قول غيره متى نطق صريح كتابه بخلافه وعلى الناس كافة أن يرجعوا الى الكتاب فاذا لم يكونوا عارفين به رجعوا الى العارف وطالبوه بالدليل منه وعليهم أن يهتموا بان يعرفوا منه أصول ما يعتقدون وما يعملون فان لم يفعلوا اختلفت الآراء وحجبت المذاهب كتاب الله فدرس معناه وذهبت الحكمة من انزاله عبثا لتعلق الناس بقول غير المعصوم وعما هم عن هدى المعصوم فكانوا بمنزلة من لم تأتهم رسالة وانما يعملون بما يقول لهم زعماءهم الذين لا يجدون دليلا على امتيازهم بالزعامة فيكونون مستمسكين بما لم ينزل به الله سلطانا فيستقون فى مهاوى الشقاء الدنيوى والاخروى (لم يلد ولم يولد) ينزه الله عن أن يلد أحداً ويشير الى فساد رأى القائلين بأن له ابنا أو بنات وهم مشركو العرب والهند والنصارى وغيرهم ويبين لهم أن الأبنية تستلزم الولادة والتعبير بالانبثاق ونحوه لا يغير المعنى والولادة انما تكون من الحى الذى له مزاج وماله مزاج فهو مركب ونهايته الى انحلال وفناء وهو جل شأنه منزّه عن ذلك وقوله لم يولد يصرح ببطلان ما يزعمه بعض أرباب الاديان من أن ابنا لله يكون الها ويعبد عبادة الاله ويقصد فيما يقصد فيه الاله بل لا يستحى الغالون منهم أن يعبروا عن والدته « بام الله القادرة » فان المولود حادث ولا يكون الا بمزاج وهو لا يسلم من عاقبة الفناء ودعوى انه أنزل مع أيه مما لا يمكن تعقله ولا تغير من حقيقة الامر شيئا فاذا أراد أحد من

وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ

سورة الفلق ملكية وهي خمس آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ

هؤلاء أن يدعى التنزيه فما عليه الا أن يقلع عن هذه الالفاظ والنسب ويقول كما تقول الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد (ولم يكن له كفواً أحد) الكفو معناه المكافى والمماثل في العمل والقدرة وهو نفي لما يعتقد به بعض المبطلين من أن لله ندأ في أفعاله يعاكسه في أعماله على نحو ما يعتقد بعض الوثنيين في الشيطان مثلاً فقد نفي بهذه السورة جميع أنواع الاشرار وقرر جميع اصول التوحيد والتنزيه وأصل تركيب الآية ولم يكن أحد كفواً له ولكن قدم المجرور لان الحديث عن الله وأشد الاهتمام انما هو بتنزيهه فقدم ضميره مع الجار في حيز الكون المنفى ثم قدم المنفى نفسه وهو الكفو لان العناية موجهة الى تنفيه وأخر من سلبت عنه المكافاة لانه لم يثبت به في الكلام الا لقصد تعميم النفي فقط والا فقد كان يكفي أن يقال وليس له كفو لكن العبارة على ما في الآية آيين وأجل والله أعلم وقد قال الله في تفصيل ما أجملته هذه السورة « وقالوا اتخذ الرحمن ولداً لقد جئتم شيئاً ادا تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الارض وتخر الجبال هدأ أن دعوا للرحمن ولداً وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً ان كل من في السموات والارض الا آت الرحمن عبداً لقد احصاهم وعدهم عداً وكلهم آتية يوم القيامة فردأ » وقال « وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون » وقال « وجعلوا بينه وبين الجنة سباً ولقد علمت الجنة انهم لمحضرون سبحانه الله عما يصفون »

(الفلق) قيل هو الصبح وربّه هو الله الذي وضع نظام الكواكب على أن يكون في الارض ليل يغمر الارض بظلمته ثم يكون صبح فيفلق هذا الظلام ويفرج

مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ

كربه عن الانام وقال جمع من المفسرين ان الفلق هو الموجود الممكن كله وربّه هو خالقه الذى شق ظلمة العدم عنه ومن كان رب الوجود كله أو رب الصبح ولا يمكن أن يأتى بالصبح سواه فهو جدير أن يتعوذ به ويلجأ اليه وحده دون سواه (من شر ما خلق) أى من كل شر وأذى يصيبك من أى شىء خلقه . ان الله خلق الخلق لما لانه من الحكمة وقد يقفنا على حكمته فى بعض خلقه وقد خلق كل مخلوق ليصيب من الوجود الحظ الذى قدره له ووهبه كل ما يتم به ذلك الحظ المقدر فكل مخلوق فهو خير فى نفسه لانه أخذ مكانه من الوجود وهو الحق الذى لا يمكن أن يزحزح عنه وانما الشرور التى تعرض أمور نسبية فما هو شر بالنسبة اليك خير لكان آخرى كلك السبع فتألم وتموت ويحزن لك الاقارب والاصدقاء ويحرم سعيك الاولاد والفقراء فكل ذلك أذى وشر بالنسبة اليك واليهم ولكنه خير بالنسبة الى السبع وتكميل لحظه ولهذا أضاف الشر الى ما خلق لان الشر انما يأتى بمراعاة تلك الاضافة أما أفعال الله فى نفسها فكل منها خير فى نفسه كما بينا وهذا هو الذى يصح الاستعاذة بالله منه والاستعانة به على أن يخلصك من أذاه فانت تلجأ الى الله أن يقيقك الوقوع فى نسبة مع مخلوق آخر يصيبك أذى فى تلك النسبة كان لا يخلى بينك وبين الاسد أولا يدعه ينتبه اليك أو يقدرك على دفعه وهكذا ثم خصص بعض ما خلق لكثرة ما يقع الشرفيه مع غلبة الضعف عن دفعه فقال (ومن شر غاسق اذا وقب) أصل المعنى فى مادة غسق السيلان والالتصاب وأصل الوقب النقرة فى الجبل ونحوه ووقب بمعنى دخل دخولا لم يترك شيئا الا مر به والمراد من الغاسق هنا الليل ووقب أى دخل وغمر كل شىء كأنما انصب عليه واشتدت ظلمته فانه فى هذه الحالة مخوف موضع لان يدهمك وأنت لا تدري كيف تخلص منه فان كنت بصدد سفر ضللت الطريق ولا تدري كيف تهتدى وان كنت فى خصام مع عدو فقد يكون الظلام أشد أعوانه عليك ولا حاجة لتعديد ما فى الظلام من أطوار الشر فذلك مما لا يكاد يخفى على أحد من البشر فكان جديراً أن يخص بالاستعاذة من شره ربه سبحانه فهو القادر على الكفاية منه ثم خص مخلوقات أخر

وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ

لظهور ضررها وعسر الاحتياط منه فلا بد من الفرع الى الله والاستنجاد بقدرته الشاملة على دفع شرها فقال (ومن شر النفاثات في العقد) العقد ما تعرفه في الخيط والحبل جمع عقدة ثم تستعمل العقدة في كل ما ربط وأحكم ربطه ولذلك سمي الله الارتباط الشرعي بين الزوجين عقدة النكاح وسمى الايجاب والقبول في البيع ونحوه عقداً ونسميه عقدة أيضاً . والنفث النفخ الخفيف أو النفخ مع شيء من الريق والنفثاة من صيغ المبالغة كالعلامة والفهامة يستعمل كذلك للذكر والانثى والنفاثات جمعه والمراد بهم هنا النمامون المقطعون لروابط الالفه المحرقون لها بما يلقون عليها من ضرام نمامهم وانما جاءت العبارة كما في الآية لان الله جل شأنه أراد أن يشبههم بأولئك السحرة المشعوذين الذين اذا أرادوا أن يحلوا عقدة المحبة بين المرء وزوجه مثلاً فيما يوهمون به العامة عقدوا عقدة ثم نفثوا فيها وحلوا ليكون ذلك حلاً للعقدة التي بين الزوجين والتميمة تشبه أن تكون ضرباً من السحر لانها تحول ما بين الصديقين من محبة الى عداوة بوسيلة خفية كاذبة والتميمة تضلل وجدان الصديقين كما يضل الليل من يسير فيه بظلمته ولهذا ذكرها عقب ذكر الفاسق اذا وقب ولا يسهل على أحد أن يحتاط للتحفظ من النمام فانه يذكر عنك ما يذكر لصاحبك وأنت لا تعلم ماذا يقول ولا ما يمكن أن يقول واذا جاءك فربما دخل عليك بما يشبه الصدق حتى لا يكاد يمكنك تكذيبه فلا بد لك من قوة أعظم من قوتك تستعين بها عليه وهي قوة الله . وقد رويها هنا أحاديث في أن النبي صلى الله عليه وسلم سحره لبيد بن الاعصم وأثر سحره فيه حتى كان يخيل له أنه يفعل الشيء وهو لا يفعله أو يأتي شيئاً وهو لا يأتيه وان الله أنبأ بذلك وأخرجت مواد السحر من بر وعوفى صلى الله عليه وسلم مما كان نزل به من ذلك ونزلت هذه السورة

ولا يخفى أن تأثير السحر في نفسه عليه السلام حتى يصل به الامر الى أن يظن أنه يفعل شيئاً وهو لا يفعله ليس من قبيل تأثير الامراض في الابدان ولا من قبيل عروض السهو والنسيان في بعض الامور العادية بل هو تماس بالعقل آخذ بالوهم

وهو مما يصدق قول المشركين فيه (ان تتبعون الا رجلا مسحورا) وليس المسحور
عندهم الا من خولط في عقله وخيل له أن شيئاً يقع وهو لا يقع فيخيل اليه أنه
يوحى اليه ولا يوحى اليه وقد قال كثير من المقلدين الذين لا يعقلون ماهى النبوة
ولا ما يجب لها أن الخبر بتأثير السحر في النفس الشريفه قد صح فيلزم الاعتقاد به
وعدم التصديق به من بدع المبتدعين لانه ضرب من انكار السحر وقد جاء القرآن
بصحة السحر . فانظر كيف ينقلب الدين الصحيح والحق الصريح في نظر المقلد
بدعة نعوذ بالله يحتج بالقرآن على ثبوت السحر ويعرض عن القرآن في نفيه السحر
عنه صلى الله عليه وسلم وعده من افتراء المشركين عليه ويؤول في هذه ولا يؤول
في تلك مع أن الذى قصده المشركون ظاهر لانهم كانوا يقولون ان الشيطان يلبسه
عليه السلام وملابسة الشيطان تعرف بالسحر عندهم وضرب من ضروبه وهو
بعينه أثر السحر الذى نسب الى لبيد فانه قد خالط عقله وادراكه في زعمهم .
والذى يجب اعتقاده أن القرآن مقطوع به وأنه كتاب الله بالتواتر عن المعصوم
صلى الله عليه وسلم فهو الذى يجب الاعتقاد بما يثبت به وعدم الاعتقاد بما ينفيه
وقد جاء بنفى السحر عنه عليه السلام حيث نسب القول باثبات حصول السحر له
الى المشركين أعدائه ووبخهم على زعمهم هذا فاذن هو ليس بمسحور قطعاً وأما
الحديث فعلى فرض صحته هو آحاد والآحاد لا يؤخذ بها في باب العقائد وعصمة
النبي من تأثير السحر في عقله عميقة من العقائد لا يؤخذ في نفيها عنه الا باليقين
ولا يجوز أن يؤخذ فيها بالظن والمظنون على أن الحديث الذى يصل اليه من طريق
الآحاد انما يحصل الظن عند من صح عنده أما من قامت له الادلة على انه غير صحيح
فلا تقوم به عليه حجة وعلى أي حال فلنا بل علينا أن نقوض الامر في الحديث ولا
نحكمه في عقيدتنا ونأخذ بنص الكتاب وبديل العقل فانه اذا خولط النبي في عقله
كما زعموا جاز عليه أن يظن أنه بلغ شيئاً وهو لم يبلغه أو أن شيئاً نزل عليه وهو لم ينزل
عليه والامر ظاهر لا يحتاج الى بيان ثم ان نفي السحر عنه لا يستلزم نفي السحر
مطلقاً فربما جاز أن يصيب السحر غيره بالجنون نفسه ولكن من المحال أن يصيبه
لان الله عصمه منه ما أضر المحب الجاهل وما أشد خطره على من يظن أنه يحبه
نعوذ بالله من الخذلان على أن نافي السحر بالمرة لا يجوز أن يعد مبتدعاً لان الله
تعالى ذكر ما يعتقد به المؤمنون في قوله آمن الرسول الآية وفي غيرها من الآيات

وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ

ووردت الأوامر بما يجب على المسلم أن يؤمن به حتى يكون مسلماً ولم يأت في شيء من ذلك ذكر السحر على أنه مما يجب الإيمان بثبوته أو وقوعه على الوجه الذي يعتقد به الوثنيون في كل ملة بل الذي ورد في الصحيح هو أن تعلم السحر كفر فقد طلب منا أن لا ننظر بالمرء فيما يعرف عند الناس بالسحر ويسمى باسمه وجاء ذكر السحر في القرآن في مواضع مختلفة وليس من الواجب أن تفهم منه ما يفهم هؤلاء العميان فان السحر في اللغة معناه صرف الشيء عن حقيقته قال الفراء في قوله تعالى « فاني تسحرون » أي أنى تؤفكون وتصرفون سحره وافكه بمعنى واحد وما ذا علينا لو فهمنا من السحر الذي يفرق بين المرء وزوجه تلك الطرق الخبيثة الدقيقة التي تصرف الزوج عن زوجته والزوجة عن زوجها وهل يبعد أن يكون مثل هذه الطرق مما يتعلم وتطلب له الاساتذة ونحن نرى أن كتباً ألفت ودروساً تلقى لتعليم أساليب التفريق بين الناس لمن يريد أن يكون من عمال السياسة في بعض الحكومات وقد يكون ذكر المرء وزوجه من قبيل التمثيل واطهار الأمر في أقبح صورة أي بلغ من أمر ما يتعلمونه من ضروب الحيل وطرق الفساد أن يتمكنوا به من التفريق بين المرء وزوجه وسياق الآية لا ياباه وذكر الشياطين لا يمنعنا من ذلك بعد أن سمى الله خبثاء الانس المنافقين بالشياطين قال « واذا خلوا الى شياطينهم » وقال « شياطين الانس والجن يوحى بعضهم الى بعض » وسحر سحرة فرعون كان ضرباً من الحيلة ولذلك قال « يخيل اليه من سحرهم أنها تسعى » وما قال أنها تسعى بسحرهم قال يونس تقول العرب ماسحرك عن وجه كذا أي ماصرفك عنه ولو كان هؤلاء يقدرون الكتاب قدره ويعرفون من اللغة ما يكفي لعاقل أن يتكلم ماهذروا هذا الهذر ولا وسموا الاسلام بهذه الوصمة وكيف يصح أن تكون هذه السورة نزلت في سحر النبي صلى الله عليه وسلم مع أنها مكينة في قول عطاء والحسن وجابر وفي رواية ابن كريب عن ابن عباس وما يزعمونه من السحر انما وقع في المدينة لكن من تعود القول بالحال لا يمكن الكلام معه بحال نعوذ بالله من الخبال (ومن شر حاسد اذا حسد) الحاسد الذي يتمنى زوال نعمة محسوده ولا يرضى أن تتجدد له نعمة وهو اذا حسد أي أتخذ حسده وحقيقه بالسعي والجد

سورة الناس مكية وهي ت آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ مَلِكِ النَّاسِ إِلَهِ النَّاسِ

في ازالة نعمة من يحسده من أشد خلق الله أذى ومن أخفاهم حيلة وأدقهم وسيلة وليس في طاقة محسوده ارضاءه بوجه من الوجود ولا في استطاعته الوقوف على ما يدبره من المكاييد فلا ملجأ منه الا الى الله وحده فهو القادر على كف أذاه واجباط سعيه وقانا الله شر الحاسدين وكف عنا كيد الكائدين والله أعلم

هذه السورة مكية كالسورة التي قبلها في قول من ذكرنا ولا علاقة لها بسحر ولا بما هو من ناحيته وانما هي أمر الهى بالاستعاذة بالله والالتجاء اليه والاستعانة به على دفع شر عظيم يشبه الشرور التي ذكرت في الآية المتقدمة ولكنه شر قد يسهو عنه الناس فلا يبالون به لأنه يأتيهم من ناحية شهواتهم وتلبس به قواهم من حيث لا يشعرون فيقعون به في سيئات الاعمال وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ولما كان من الخفاء بحيث تضعف قوة الانسان عن دفعه بسهولة احتاج الى الاستعانة عليه بالله والياد بجواره منه وذلك الشر هو شر الوسواس قال (قل أعوذ برب الناس) أى ألتجأ اليه وأستعين به ورب الناس الذى يريهم بالنعم ويؤدبهم بالنقم (ملك الناس) الذى يحكمهم ويضبط اعمالهم ويدبر قواهم ويضع لهم الشرائع ويحدد لهم الحدود العامة التى لا يباح لهم الخروج عنها (إله الناس) المستولى على قلوبهم بعظمته فلا يحيطون بكنه سلطته وانما يخشعون لها يحيط بنواحي قلوبهم ولا يدرون من أى جانب يأتيهم فهو معبودهم الحق وملاذمهم اذا ضاق بهم الامر وانما خص هذه الصفات صفات الالهية بالاضافة الى الناس مع أن الله رب كل شىء وملك كل شىء واله كل شىء لان الناس هم الذين وهموا فى صفاته وضلوا فيها عن حقيقة معانيها فجعلوا لهم أربابا ينسبون اليهم بعض النعم أو كلها ويلجئون اليهم فى استدرارها ولقبوهم بالشفعاء وهم الذين تخيلوا لهم ملوكا وحنانين

مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ

يظنون أنهم هم الذين يدبرون حركاتهم وهم الذين يسمون لهم حدود أعمالهم بما يؤثرون عنهم من أقوالهم فيعرضون عن كتاب الله الى كتبهم وربما ضيعوا الكتب الالهية فمحي أثرها اكتفاء بما يبتقى في أيديهم من مبتدعات اولئك الرؤساء ثم أنهم لذلك يجدون في أنفسهم خشية لرؤسائهم هؤلاء ويخيلون لهم منها سلطة روحية فيخضعون لهم خنوعهم للسلطان الالهي ولذلك عدوا آلهة لهم سواء لقبوهم بهذا اللقب أم لم يلقبوهم به فالناس هم الذين اخترعوا بأوهامهم هؤلاء الارباب والملك والالهة فلذلك خصهم بالذكر أما ما يقال عن الجن من أنهم فعلوا مثل الناس فذلك مما لا يظهر للناس ولهذا لم يعتبرهم وإنما كرر ذكر الناس باللفظ الظاهر دون الضمير لتقرير الامر فضل تقرير لشدة تعلق الجمهور الاعظم من الناس بخيالاتهم وتمسكهم بأوهامهم وظنهم أنهم لكونهم ناساً أى بشراً عقلاء متفكرين قد وصلوا فيما تعلقوا به الى ما هو الصحيح المنطبق على الواقع فأراد أن ينبه بذكر اللفظ الدال عليهم بجانب كل صفة الى أن الله هو ربهم وهم أناس متفكرون وملكهم وهم كذلك والهمهم وهم كذلك وباطل ما اخترعوا لا تقسمهم بعقولهم من حيث هم بشر فاذا لم يكن للانسان رب ولا ملك ولا اله الا الله فاستعذ به وحده (من شر الوسواس) أصل الوسوسة الصوت الخفى وقد قيل لاصوات الحلى عند الحركة وسوسة والوسواس ههنا صفة كالثرثار أو اسم مصدر استعمال الصفة والمراد منه الذى يلقي الحديث فى النفس حديث السوء (الخناس) من خنس اذا رجع وهذه الاحاديث النفسية اذا سلط عليها نظر العقل فى العواقب خفيت واضمحلت وسكن الموسوس عن قائمها وحديث النفس بالفواحش وضروب الاذى بالناس اذا ذكر دين الله وأحضرت النفس مثال شرعه ذهب ذلك الحديث هباء وخنس الموسوس وكذلك اذا وسوس لك أحد من الناس وبعثك على فعل سوء وذكرت ذلك وذكرته به رأيته يخنس ويمسك عن القول الى أن يجد فرصة أخرى فالموسوس بالشر كثير الخنوس لانه من ناحية الباطل لا مكنة له على مقاومة الحق اذا صدمه ولكنه يذهب بالنفس الى أسوأ المصاير اذا انجرت مع الوسوسة وانساق بها الى تحقيق الخاطر بالفعل وإنما ذكر الله لنا هذا الوصف (الخناس) لينبهنا الى

الَّذِي يُوسُوسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ

مكان الموسوس من الضعف للتمس السبيل الى دفعه مع الاستعانة بالله عليه وليدلنا على أن ما أصاب الناس من قبله انما كان من ضعف عزائمهم وعشا بصائرهم ولو استعملوا قواهم فيما جعلها الله له مانع الوسواس في نفوسهم ولا جرهم الى سوء مصيرهم وقد وصف الله الوسواس الخناس بقوله (الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس) من الجنة والناس بيان للذي يوسوس أو بيان للوسواس الخناس فالوسوسون قسمان قسم الجنة وهم الخلق المستترون الذين لا نعرفهم وانما نجد في أنفسنا أثرا ينسب اليهم ولكل واحد من الناس شيطان وهي قوة فازعة الى الشر يحدث منها في نفسه خواطر السوء وانما جعل الوسوسة في الصدور على ما عهد في كلام العرب من أن الخواطر في القلب والقلب مما حواه الصدر عندهم وكثيراً ما يقال أن الشك يحوك في صدره وما الشك الا في نفسه وعقله وأفاعيل العقل في المخ وان كان يظهر لها أثر في حركات الدم وضربات القلب وضيق الصدر أو انبساطه وكل ما أوردوه في خرطوم الشيطان وخطمه ومنقاره وجثومه على الصدر أو القلب ونحو ذلك فهو من التمثيل والتصوير والا فليجعلوا مثل ذلك للقسم الثاني من الوسواس أو الموسوسين وهم الناس فان الله نسب الوسوسة اليهم على السواء فقال من الجنة والناس فليكن للناس الذين يوسوسون في صدور الناس خرطوم وخطم ومنقار يدخل في الصدور ويوضع على أذن القلب فاذا ذكر الله خنس الخرطوم كما ذكروه في الجنة ولكنهم يكثران الوصف ويخترعون ما يشاؤون بأوهامهم فيما لا يراه الناس وان كانوا لا يعقلونه ويخترعون على الغيب فيذكرون من شئونه ما استأثر الله بعلمه ثم لا يكفيهم ذلك حتى يخترعوا من الاحاديث ما يسند أوهامهم وينسبون الى السلف ما يظنون أنه يقوى مزاعمهم والله يشهد أن النبي صلى الله عليه وسلم والسلف الصالح برآء مما ينسب اليهم من ذلك كله وانما هو من اختراع من لم يرض لنفسه أن يقترب جريمة واحدة جريمة الجراءة على الغيب بوجهه حتى يضم الى ذلك جريمة الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم وسلف الامة أولئك الذين اذا انجر القول بهم الى ما يعرفه الناس ويمكنهم أن يكذبوهم

فيه سكتوا سكوت البكم ولجؤا الى سلاحهم الذى يشرعونه فى وجوه الجبناء وقالوا
هكذا مذهب أهل السنة كأن السنة عندهم مذهب جسمانى محض لاشائبة من
الروحانية فيه وافتروا على أهل السنة وهم السلف ما لا يعرفونه وما ذاعلهم لو أخذوا
السنة والكتاب ونظروا الى الدين جملة وفسروا بعض نصوصه ببعض كما هو الواجب
على المسلم الذى يؤمن بالكتاب كله وليس من الذين يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون
ببعض نعوذ بالله من الوسواس الخناس الذى يوسوس فى صدور الناس من الجنة
والناس والله أعلم

قال مؤلفه الامام حفظه الله فرغ منه منتصف الساعة السادسة بعد الظهر

من يوم الاحد ٢٣ اغسطس سنة ١٩٠٣ فى مدينة جنيف

من بلاد سويسرا

صفحة	
١٤٨	سورة التكاثر
١٥٢	سورة العصر
١٥٤	سورة الهمزة
١٥٦	سورة الفيل
١٥٩	سورة قريش
١٦١	سورة الماعون
١٦٦	سورة الكوثر
١٦٩	سورة الكافرون
١٧٢	سورة النصر
١٧٤	سورة أبي لهب
١٧٦	سورة التوحيد
١٧٩	سورة الفلق
١٨٤	سورة الناس

۳۱۷۷۹ (۱۵۱۸) ع - م

آخری درج شدہ تاریخ پر یہ کتاب مستعار
لی گئی تھی مقررہ مدت سے زیادہ رکھنے کی
صورت میں ایک آنہ یومیہ دیرانہ لیا جائیگا۔

کتابخانه

جامعہ

- ۱۔ اگر کسی نے ایک کتاب لکھی ہے اور اس میں ایک اور کتاب کا نام لکھا ہے تو اس کتاب کو "کتاب فی کتاب" کہتے ہیں۔
- ۲۔ اگر کسی نے ایک کتاب لکھی ہے اور اس میں ایک اور کتاب کا نام لکھا ہے اور اس کتاب کا نام بھی ایک اور کتاب کا نام ہے تو اس کتاب کو "کتاب فی کتاب فی کتاب" کہتے ہیں۔
- ۳۔ اگر کسی نے ایک کتاب لکھی ہے اور اس میں ایک اور کتاب کا نام لکھا ہے اور اس کتاب کا نام بھی ایک اور کتاب کا نام ہے اور اس کتاب کا نام بھی ایک اور کتاب کا نام ہے تو اس کتاب کو "کتاب فی کتاب فی کتاب فی کتاب" کہتے ہیں۔
- ۴۔ اگر کسی نے ایک کتاب لکھی ہے اور اس میں ایک اور کتاب کا نام لکھا ہے اور اس کتاب کا نام بھی ایک اور کتاب کا نام ہے اور اس کتاب کا نام بھی ایک اور کتاب کا نام ہے اور اس کتاب کا نام بھی ایک اور کتاب کا نام ہے تو اس کتاب کو "کتاب فی کتاب فی کتاب فی کتاب فی کتاب" کہتے ہیں۔
- ۵۔ اگر کسی نے ایک کتاب لکھی ہے اور اس میں ایک اور کتاب کا نام لکھا ہے اور اس کتاب کا نام بھی ایک اور کتاب کا نام ہے اور اس کتاب کا نام بھی ایک اور کتاب کا نام ہے اور اس کتاب کا نام بھی ایک اور کتاب کا نام ہے اور اس کتاب کا نام بھی ایک اور کتاب کا نام ہے تو اس کتاب کو "کتاب فی کتاب فی کتاب فی کتاب فی کتاب فی کتاب" کہتے ہیں۔
- ۶۔ اگر کسی نے ایک کتاب لکھی ہے اور اس میں ایک اور کتاب کا نام لکھا ہے اور اس کتاب کا نام بھی ایک اور کتاب کا نام ہے اور اس کتاب کا نام بھی ایک اور کتاب کا نام ہے اور اس کتاب کا نام بھی ایک اور کتاب کا نام ہے اور اس کتاب کا نام بھی ایک اور کتاب کا نام ہے اور اس کتاب کا نام بھی ایک اور کتاب کا نام ہے تو اس کتاب کو "کتاب فی کتاب فی کتاب فی کتاب فی کتاب فی کتاب فی کتاب" کہتے ہیں۔

